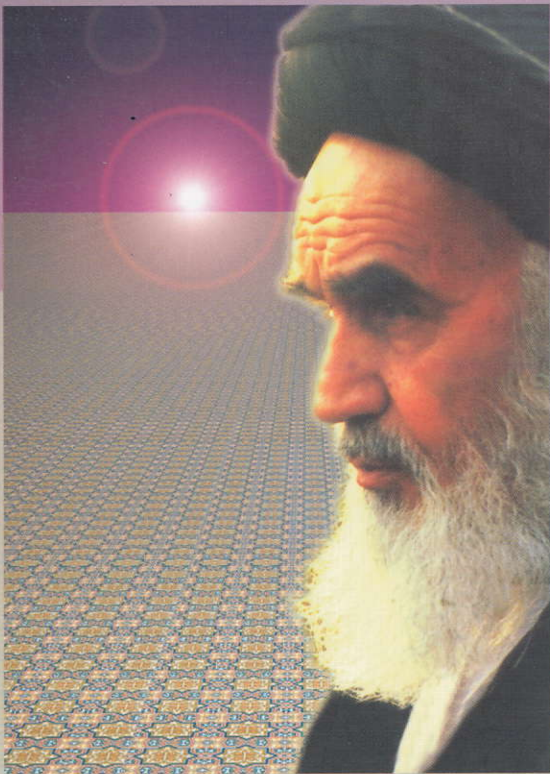


الإمام الخميني (قدّس سرّه)

تجسيد الخلق الإسلامي

السيد فاضل النوري

الإمام الخميني (قدس سره)

تجسيد الخلق الإسلامي

السيد فاضل النوري

صدر بمناسبة مرور ٢٦ عاماً على انتصار الثورة الإسلامية المباركة في إيران

مقدمة الناشر

امتازت شخصية الإمام الخميني بأبعاد كثيرة ووقف الكثيرون أمام سعة هذه الأبعاد وعمقها متحيِّرين ومعجبين بهذه الصياغة الإسلامية الفريدة.

في حين هامت بها الجماهير وذابت في حبها إلى حد خيالي لا يوصف. ومتا مظاهر الحب والهيام التي أبدتها حينما استقبلت عودته إلى إيران قبيل انتصار الثورة الإسلامية، وحين ودعت جثمانه الطاهر إلى مثواه الأخير توديعاً مليونياً لم يسبق له نظير في التاريخ. ما كل ذلك إلا مظهر من مظاهر الهيام والوله بهذا الإمام العظيم، وبما حمله من صفات إسلامية يقل اجتماعها بهذا العمق وهذا الصفاء في شخصية رجل.

وهذه السطور كتبها أديب هائم واله، حاول أن يعبر بها عن ما يجيش في صدره تجاه الإمام الخميني الكبير، وما يتسامى في فكره من أبعاد تلك الشخصية الفذة.

وفقنا الله تعالى للسير على خطى الإمام وتطبيق تعليماته الرشيدة.

الإهداء

سيدي روح الله.

يا مجدد الإسلام وحامي حماه... وهازم الكفر وماحي دجاه...

يا طلعة النور في كثافة الديجور ... وطليعة الفتح في عصر الظهور...

يا بسمة الحبور على أفواه الثاكلات... ومشعل الهدى في الفتن الداجيات...

يا كهف اليتامى وموئل المحرومين... وعبقة الخير في حياة المجدبين...

يا بضعة الحسين الشهيد... وباعث كربلاء من جديد.

يا وارث الوتر والثارات... وطالب الذحول والترات.

يا شموخ (بدر) ووجه علاها المبين... وضحكة النصر في (الخندق) و(الفتح) المكين.

يا رائد الثورة العصماء... وباني الدولة الغراء.

يا مذل المردة المستكبرين... وقاهر الطغاة النتجبرين.

يا إمام المسلمين... وقائد المستضعفين.

كلمات واهنة كليلة تقصر عن بلوغ معشار مداك، وتضعف عن بيان الأقلّ من شأن مجدك وعلاك، أهديها إليك يا بن الزهراء البتول، راجياً لها عندك حسن الرضا والقبول، يشفع لي فيهما حب لا ينتظم وصفه البيان. وإكبار يعجز عن أن يحيط به اللسان.

مقدمة الطبعة الثالثة

لماذا يخلد العظماء في التاريخ؟ بل يخلد التاريخ بهم، بنبض قلوبهم السامية، لتكون بهم حياته الأثيرة المنداحة على الزمن، لألاءة بالفلق الطافح بالرفعة والبهاء؟

لماذا يتأبى إلا أن يطلع بهم من أفق العلياء سرجاً وهاجة واصبة الإشراق لياليه المغدقة؟

لماذا كتب البقاء لهم وحدهم، فهم نداماه من دهر الدهور، لا يسعد إلا في نديهم الممتد الحافل بالأنس العجيب، كأن سواهم هباءة من الفناء هوت بها الريح في مكان سحيق من المجهول؟

لماذا لم يكونوا مثل تلك النطف الأمشاج المبتلاة التي قذفتها المشيئة الهادفة للفتنة الكبرى في مصهر الابتلاء، لتذوب فكأنها خرجت من باب العدم لتعود إليه من باب أخرى، بينما تفردوا هم بالصمود الساخر من عرامة الالواث المتربصة بالشامخين؟

ألم يتنسموا عين ذلك النسيم الذي عاش به سواهم، وإن ضاقت بهم المنادح إليه فلم يتشمموه أحياناً كثيرة إلا من سم الخياط؟

ألم يشربوا من ذلك الماء، وإن حجبوا عنه طويلاً في قيض المجادب وهاجرة المحول؟

ألم يطعموا ذلك الزاد، وإن ذاقوه حنظلياً مدافاً بالصاب في دوامة الطوى؟

ألم يكونوا رعاة أو مع الرعاة، وحفاة يحتفي بهم لفيف الحفاة؟

ألم يكونوا حلس محراب الحسرات المقدسة للظلامات الإنسانية وهم عين الظلامة؟

ألم يكونوا رهن الآهات المتسامية للمخلوقين وهو موطئ الأظلاف النابية للأذى والإضطهاد؟

ألم يكونوا ذلك القربان المقدس الذي تأست به القرابين على الطريق إلى منحر الفداء والإيثار؟

ألم يكونوا ذلك الأنين الفاجع في مطامير الحجب والإقصاء، قاوم عرامة الحجب مذ كان صوتاً جاهراً لرهائن الأسى، فأجاءته به الصروف القاهرة إلى مدفن الحرية، ليطلع من جدثها المهيب عنفواناً من صراخ البراكين؟

ألم يكونوا ذلك الحزن الفارد الموصول بالمكابدة الوتر للحياة الفانية وأهلها الذاهبين، كي تبقى ويبقوا مع الخالدين؟

ألم يكونوا تلك المرارة الطافحة الغشوم، واللوعة الجامحة المستشيطة، واللدغ الأفعواني المذيب، ولألم الواصب الممتد الساري مع الدماء في العروق؟

كيف صاروا نبتة المجد في روض الخلود، وعزمة البقاء في أعاصير الفناء، وعبقة المعنى الفذ في نتن الحماقات، وفلسفة الحكمة المتناهية الهادية في خبط المجاهيل والعمايات، وروح التفسير المكين البصير بالتنزيل والتأويل لمصحف الوجود الجليل، بل تجلى الله بالأسماء والصفات في واقع المقربين من شرّاح وجوده الأفذاذ.

كيف تنفست بهم فسحة الحياة الحالمة من ذلك الضنك المرير، وكأن قرارها المكين من دعتهم المحروبة، وأنسها النشوان من قلقهم المعجون بالحمم، وغفوتها المريحة من عصابهم الأليم الذي سامر النجوم في محفل السهاد، ونعماها الريانة من دنياهم المعشوشبة بالجدب والحرمان من بهارج النعيم؟

كيف عادوا هم السبيل السالكة إلى القمم على أنهم لم يعرفوا غير مهواة الحصار أو ضرورة الغار؟

وكيف صارت كبولهم الدامية التي زينت معاصمهم الأبية، معارج للحرية الوتر؟

كيف عاد الكمّام الظلوم لأفواههم بعدما ردت أيديهم فيها صيحة البشير النذير التي تشنف أسماع المظلومين، وتصم آذان الطغاة؟

كيف تجاوزوا العقبة الكأداء للحذف والنسيان، وعبروا الخندق المشحون بغلواء الغيض والإضغان؟

كيف مشوا على سعار الغضب الأرعن سحابة دهرهم فشقوا للسالكين ألين الجواد، وتنفسوا زفير الحمم الهوج فأسكروا الدنيا بأعذب الشميم، وانبثقوا صبحاً ضاحكاً من غياهب الليل ألأيهم الذميم، وانسابوا روْحاً دافقاً باللطف في هواجر العيش البائس العقيم، وطلعوا لواء طافحاً بالفتح على قلل المفاخر المأنوسة التي تعلم الجيال دروس المضاء والاعتزام، وشنفوا الدهر أنشودة خالدة بمنتهى السحر الأخّاذ ينشدها المجد المجذوب بجذوة الوله والإعظام؟

الأنبياء والأولياء وهم العظماء الحقيقيون خلدتهم العلقة الإلهية، ولطف البارئ العظيم، وصبرهم على الحق وعن ضده، وجرأتهم في ذات الحقيقة السامية، وتنزههم عن ذواتهم ليذوبوا في هموم الأمة، ووفاء الوعاة والدعاة الوارثين، يصونون منهجهم، ويديمون امتدادهم.

وحيث يكون الإمام الخميني غرة الباقين من العظماء، وثمالة الماضين منهم، وأسوة الصامدين في زمن الوضاعة الشائنة، والضعف العاجز، والذل الآسر، والتسليم لقهر الخداع والخور، والرغبة الحرام، والوغدية الصاغرة، وفتنة الخوض الفتان، وأحابيل النفس الأمارة، ودواعي النزعات والنزغات، وتسويلات الرهب والرغب، والكفر العملي المستساغ بالصمت والممارسة، والإلحاد المبرر المستور بجلباب الإيمان وظاهر الدين، وبريق الزخرف الفاتن المتربص خلف الخطوط الحمر لحرمة القيم، وأصالة الذات، وأسوار الأصول، والزامات السمو الإنساني، وسلطة الخوف على امتداد مشاربه وأسبابه.. وحيث يكون في معشرهم الشريف في جنة الحب والعشق، في قلب الوله اللهوف المستهام ومقعد الصدق في بحبوحة الزلفى وكرامة القرب، هناك حيث يتعالى اقتدار الفهم، ويستهال غوص الفطنة، ويستلذ الفكر العملاق أسر العجز والجمود ـ فهو إذن على شأنهم في أسباب الصمود والانتصار والإعجاز..

وكما لا ينسى العظماء لا يمكن أن ينسى إمام الثائرين وحليف الإباء في زمن رفرفت فيه راية التسليم الملفعة بالذل، المضخمة بدم الوسطية التي ذبحت في منحر الهزيمة لأمة شاهدة ألقت بأيديها أو كادت في زنزانة الحظر والترويض، وزعامات ذنابي، وقادة أدعياء

الإمام الخميني خالد في التاريخ إلى الأبد، وباق في وعي الواقع والأمة، مادام هناك واقع يحس، أو أمة تشعر، وكيف ينسى وما أنجزه حاضر في الأرض يستوعبها بالسحر، مهيمن على القلوب يملؤها بالإكبار، غامر كالبحر المحيط يكتنف أقطار المعمورة؟ وهذه الظاهرة الخمينية لا زالت حية كأنها وليدة اليوم، تتجلى في صحوة إسلامية هادرة، وتيار إيماني عارم، ونزعة ثورية غلابة، وكبرياء تهز عروش الطواغيت ومقاعد الأذناب، وتتبدى في أرواح مستضعفة مشدودة بالأمل المنجي، وقلوب مستكبرة واجفة تستشعر الخطر الماحق على الأبواب، ولهفات ثاقبة مستقطبة من عمق الرجاء بعودة الفجر الزاهر، وانبعاث المارد الذي اشتجرت عليه مكائد الخصوم من داخل حصونه وخارجها فطوته قرون العزلة ليبقى تحت دثارها ساجياً بلا حراك، محتجباً بلا ظهور.. وتشرق الظاهرة الخمينية حتى في

مقاصل الأعداء ومطاميرهم وأهاويلهم التي أفرغها الرعب من فتح الشريعة على يد الملايين التي خشعت للظاهرة، وتجحفلت لها ـ جنوداً مجندة ـ فظنوا النجاة في الإستئصال والخنق والترويع.

هذه في مبادئ الإمام وشعاراته حية ظافرة باصالتها، وحداثتها، وعالميتها، وفنها البديع في الخطاب ومناغمة القلوب، واستعداد الأمم المقهورة على القاهرين، وتأليب المحرومين والجياع على المترفين والمتخمين، والاستنصار بنصف الأمة المظلوم (المرأة) على الاستعباد المقدس باسم الشريعة.

وهذه لهفاته المتجسدة في خطه الثائر، وورثته الكرام، وعهود الجيل الصاعد المصمم على الاستمرار بمنتهى الصبر والمقاومة، كلها تعبر عن صدق الاعتقاد، وتحكي عمق المسؤولية، وقداسة الائتمام ونبل الوفاء، وكل أولئك يبقي ثائر القرآن مهيباً، فتياً، جديداً، واصب النداء، موصول الصرخات، ممتد العزمات، ملّح الحضور، غض الخطى، ذاكي العطر، ندس الأرجاء.

هذه همومه وصيحاته لله وللضعفاء، وقد كانت ملء صدره وفمه لم تزل مرشوشة مدوية في الآفاق مع قلبه المصمى والمتوزع أفلاذاً كسطوة الأسنة، ترعب الصروح، وتهز التيجان، وتستفز الهمم في الأكواخ والحفاة المرملين.

إن كل هذه المؤامرات على خط الإمام لمحو آثاره وتأثيره إنما معلم بارز من معالم الخلود لهذا الخط العظيم النابت في القلوب والأفهام على نحويها، العاشق الواله الواثب، أو الغيظ المذعور الناصب.

وهذه دولته الكريمة التي أرادها أفقاً باهراً تطلع منه على واقع المرارات والجاهليات شموس المبادئ القرآنية المجسدة، ترى الناس حقيقة ما يريده لهم من النجاة من الأطواق بشتى صنوفها وأشكالها، وهول ما هم فيه من المحن الجسام في أسر تلك الأغلال الفاقرة.

وتدخل النبوءات الخمينية في قائمة الدواعي الجمة لوصوب النبض الخميني، بل في طليعتها، ما دامت تعني عمق القداسة والوصل بالذات الإلهية، وصفاء النية، وسلامة الطوية، وجلاء البصيرة، والنظر بنور الله الذي اخذ على الخميني كل وجوده، عبادته الخاشعة في ثورة التبتل، رفضه الجاهر المقدس في حومة الإباء، ثورته العملاق في محراب المسؤولية العظمى، جهاده الفذ في هيام الوظيفة الكبرى، همومه الشريفة في أتون العشق المقدس، إبداعه الوتر في أفق الإعجاز، آلامه الحنظلية كحز النصال في ذروة العطاء، ومهجته الطهور في قمة البذل والفداء.

لم يكن الخميني جسداً انطوى، ولا أمداً انقضى، ولا فكرة عاثرة، ولا سحابة صيف عابرة، ولا ظاهرة أشعبية، ولا حالة طفيلية، ولا زعامة طامحة، ولا شراهة جامحة، ولا دنيا وردية الأحلام، ولا لذائذ زاهية في بهجة المقام، بل هو لطف إلهي سرى مهيباً في رفات الأمة ورميمها المحفوظ في متحف التراث والدموع والرثاء، وهو عمر الحقيقة الذي لا تحيط به القرون والأنواء، وهو صدى منهج الحق الذي قال فيه الحق (إنّا له لحافظون)، وهو قبسة وضاءة من المشيئة التي دان لها العالمون، ورنوة قهارة من الإرادة التي انزجر لها العمق الأكبر المهيب، ونظرة حانية من العين التي لا تأخذها سنة ولا نوم، ومظهر من مظاهر الاستطاعة القائمة الدائمة التي لا تبليها الأزمنة والعصور، وجلوة من جلوات السلطان الذي عرفت له الغلبة دهر الدهور، وشعلة وهاجة من منارة الهدى واليقين، وراية خفاقة موصولة بمحتدها في كف سيد المرسلين.

قضية مقدسة باقية لأنها شنجة من قضية كتب الله لها عز البقاء، وحركة باعثة مجددة تحرك رهائن الأجداث بروح السماء، لم ترد إلا ربها المنان داعية إلى هداه، ولم تطلب جاهدة إلا وصله المأنوس في أبهى ذراه، فحباها بما حبا به أولياءه الأصفياء، وأبقاها كما أبقى أوتاد أرضه العظماء، وسخر المجد يشدو لها في الآخرين، سلام على غرة الصبح المبين.

المقدمة

قد كان يحتجزني عن الكتابة عنك أمران: استعظامي لشأنك الرفيع، واستخفافي بما يمكنني أن أديه مما هو الحق والواجب على من يكتب في شأنك.

ولقد صرفني ذلك حيناً من الدهر لأجمد ساكناً يلفُّني الخشوع لجلالة قدرك، فلا انبس ببنت شفة ولا يخط لي يراع، وقد راح القلب ينطق بالكلام البديع حباً وخشوعاً وقداسة، وتتغشاني الحيرة لعظمتك المفرطة فتفوه الأحاسيس والمشاعر بالمجد والثناء، وتنطلق الروح في آفاق العجب بك ومنك، هائمة تذوب في سبحات المحبة والولاء.

ولقد دعَّني دعّاً عن الخوض في أمرك أنه كالبحر المتلاطم العباب لا ساحل له فيستقصى، ولا لين في عمقه فيسبر أو يستشف، ولا سهولة في ظاهره فيوصف على حقيقته إذ يوصف.

ولقد كنت أحسب أنني إن كتبت عنك فلم أُوفّك حقك لقصوري أو جهالتي، فإنما أكون بذلك قد ظلمتك وظلمت الحقيقة، وظلمت عشاقك المتيَّمين بك، الذين أرمضهم حرُّ الأشواق، فباتوا ظماءً صادين إلى ما يبل غلّتهم من سلسبيل العرفان بك أيها المعشوق الكبير، يا من أهوت إليه القلوب الوالهة تشمه وتلثمه فلا يزيدها هذان إلا صبابةً وولهاً، لأنها أحضنت على معناك الزكي، ولا رِيَّ في عالم هذه المحبة الفائقة إذا ظمئت القلوب، ولا بلول غلّة إذا صديت النفوس.

ومالي لا أكون كذلك مصروف الفكرة بالرهبة أو الضعف عن الخوض في شأنك الجسيم، محجوزاً بهما عن الحديث عن عليائك الأخاذة، محجماً ـ كل الإحجام ـ عن أن أعالج أمراً أحسب أن مغالبة التيار المزيد الثائر، ومساورة الأسد الكاسر، ومثاورة الريح الزعزع، ومطاولة الجبل الأشم الأرفع؛ أخف وطأةً من وطأته الخشناء، وأيسر جهداً وعناءً من جهده وعناءه البالغَين، وأقرب للمنال من نيل ما يناظر المحال، وقد دُهِشَت الدنيا لطلعته الفاتنة حتى قعدت رهينة الذهول الحيرة، وصعقت لمرآه الآسر فانكفأت يأكلها الحسد والغيرة، وراحت تتجاوب أنحاؤها من كل صوب كلمات الإكبار والإعظام، وتردد أوصالها من شتى الأنحاء نداء الإطراء والثناء، صراحاً جهاراً بثوبه المعهود، أو مضمراً دفيناً تنمُّ

عنه كثير من صور الواقع المشهود، حتى هذه السيوف الباترة المسعورة صورة لذلك الأمر هي أروع صورة.

وأولى لي ـ يا سيدي ـ أن أتأخر أزاء هذا الهول، وأنكص على عقبي فهي نفسك الزكية الطهور، وأخلاقك الرفيعة الرضية، ومحاسنك الغلابة القاهرة، ومحامدك الزاهيات الحسان، وفضائلك المشرقات المضيئات، وخصالك الساميات العاليات، كل أولئك حقيقة العظمة التي تجلْبَبْتَ رداءها، وطرتَ بها إلى آفاق المجد والعلاء، وسر هذه الكرامة التي ظفرت بها وقد حجزت عن غيرك حجزاً، وصدَّت عن سواك صدّاً، كأنما هي قدر لك مقدور قد خط في اللوح من دهر الدهور، ومَدْعى هذا الشموخ الذي حباك الله به فارتقيت ذرى المجد، وسموت به إلى ما يحار الفهم في إدراكه من سمو المكان وعلو المنزلة وبعد المقام، وما يعجز اقتدار الفطنة عن الفكر في شأنه من الجلالة والقداسة.

هذا الأمر العجاب هو الذي سولت لي نفسي أن ألج دنياه المتمادية الممتدة، وأن أجهد في سبر أغواره المتشعبة العصية، وأن أطيل الشخوص متعرفاً ببصري في شموس البدائع الخلقية في عالمه الرحيب، وأن أحدق مستجلياً في أنوار الفضائل الإنسانية لهذا الخلق البشري العجيب.

وأنى لي بالحول الذي يطير بي جناحاه في تلك الآفاق الرهيبة اللا متناهية، وتنهض بي قواه على ما أشبهه بالتنقيب في بطون الجبال، وحمل القلل، أو استقصاء جذور هذا الكوكب وأوتاده، ويتيح لي قدماه وساعداه حمل هذه المهمة الكبرى بثقل الأرض فلا ينقصم لي ظهر، ولا تكبو لي قدم، ثم لا أذم على ما فعلته ولا أعاب على ما أتيته.

ومالي لا أقدر الأمور بأقدارها، وأرد عليها من حيث أقدر على الإفادة منها وبها فلا أكلف نفسي الدخول فيما لا تحمد عقبى الدخول فيه، حيث العجز والإعياء، أو التيه والضياع، فالخيبة والحسرة والندامة بالهزيمة حيث كنت آمل الظفر المبين، والانكسار حيث رجوت أن لا أأُوب إلاّ منجحاً فاتحاً.

ولقد كنت أعلل نفسي بعد قعودي عن الأمر الخطير ذاك بما يعلل به نفسه (المتنبي) بعد قعوده عن الثناء على وصي الرسول من أن من مدحوا الشمس لم يأتوا بشيء لأن (صفات ضوء الشمس تذهب باطلاً) وتكون عبثاً، ويكون الحديث فيها لغواً كأنه الهذيان، وحسناً صنع المتنبي، ولقد كانت كلمته تلك أروع من كثير مما قيل في مدح صنو المصطفى مع كل ما احتوى عليه من فنون البيان وآيات الجمال.

ولست أدري كيف يراودني مع ذلك بل يرتفع في أعماقي صوت هاتف ملح متصل يقول لي: إذا كانت الأمثال تضرب ولا تقاس، فما بال أولئك الذين مجدوا الله على علو قدره، وقدسوه بألسنتهم، فكانوا عابدين مثابين؟ وما خطب أولئك الذين اثنوا عليه وأطروه ـ مع استعصائه على غوص الفطن ـ بأفواههم فكانوا عنده مرضيين؟ وما بال أولئك الذين كرموا أنبياءه وأولياءه بالثناء والإطراء فباتوا عند ربهم مأجورين ممدوحين؟

ألا ترى الكلام في أمر واضحاً كان أم مستعصياً لا يَرِد إلا على غايات ثلاث: تنبيه للغافلين، أو تفهيم للجاهلين، أو تذكير للعارفين. وثمة في الورى من يجهلون الكثير مما يشبه الواضحات ويحسن إليهم من يعرّفهم إياها، ولو كان لا يرى نفسه قد صنع شيئاً، وفيهم من لا يدركون الحقائق الكبيرة فيثنون على من يدنيهم منها ولو كان هو لا يرى أن قد أعطاها حقها.

ولا يزال هذا النداء ممتداً واصباً مكرراً، يصرفني الحق فيه رويداً رويداً عما كنت عليه من الراي، فإذا به قد ذهب في الفضاء شعاعاً، فأمسك القلم لأكتب في أمر كنت أرهب أن أكتب فيه، لأني قد عرفت الآن أن الرهبة تلك ضلال عن الحقيقة، وذهاب عن الرشد والصواب، وأن الخير بعد ذلك حاصل في تحاشي تلك الرهبة على حال، وأن الشر مصروف كذلك.

من هو الإمام الخميني

الإمام في تاريخنا الأصيل قل له المثيل...

أشرق من فجر أمره للحياة وجه عظيم...

وأطل من عليائه شأن جسيم...

خشعت له الدنيا، ودانت بالإجلال والإعظام...

الأمام في دهرنا المعهود بعد غياب القائم الموعود عجيبة العجائب، ويتيمة الزمان الآتي والذاهب، قد عقمت رحمها الولود عن أن تنجب مثله من جديد، وكلَّت يد الصناع عن أن تأتي بمثل هذا الإبداع، بل تعايا عن أن يصل بخاطره اللمَّاح إلى حقيقة هذا الوجه الطالع الوضاح، الذي تنفس في أحنائه صبحاً منيراً ثاقباً، وأزهر في قفره ربيعاً ضاحكاً مخصباً، يفضح دياجيه المطبقات، ويجلو لياليه المغدفات، ويمحو عن صفحة عيشه السوداء ظلمات الشقاوة والعناء.

الإمام في عالما الضائع الضِّلّيل صوت ونداء، ومشعل وضاء، وراية ولواء، صوت الحق، ونداء الرشاد، ومشعل البصيرة في ليل الفساد، وراية القيام ولواء الجهاد، قد نطق بالحق في كثافات الضلال إذ سكت الآخرون، وأطلع منار الهدى في غياهب الغي حين خنس الباقون، وانتضى حسام البأس ثائراً علوياً حيث قد خنع أو داهن الساكتون.

الإمام في حياتنا الهامدة صرخة دوت فتجاوبت بها الأنحاء؛ صرخة رفض وإباء، حيث أعلقت شراك الذل والاستخذاء، وصيحة تفجرت كالبركان هدرت من فم القرآن، تقلع أوتاد الشيطان، وعزمة ثاقبة عنود، راحت تكسر الأصفاد والقيود، تبعث الحياة في رهائن الموت والخمود، وبأس صائل جسور جسور، له صيال الأسد الهصور يشد على ذؤبان البغي والشرور.

الإمام يكاد يكون وصف جده أمير المؤمنين، ناجاه الله في فكره، وكلمه في ذات عقله، فاستصبح بنور يقظة في السمع والبصر والفؤاد، يذكر بأيام الله، ويخوف مقامه، يأمر بالقسط ويأتمر به، وينهى عن المنكر ويتناهى عنه، مصباح في الظلمات، ودليل في الشبهات، علم الهدى وضياء الدجى.

الإمام رجل رباني، ميمون الرأي، راجح الحلم، مقوالٌ بالحق، متراك للبغي، مضى قدماً على الطريقة، وأوجف على المحجة فظفر بالعقبى.

أليس هو روح الله؛ التي انبعثت من تحت دثار القرون كالشمس تنبعث من أحناء الليل الأيهم، روح محمد وعلي والحسين، روح الهدى والخير والرشاد، روح العزم والصلابة والاقتدار، روح التضحية والفداء والشهادة؟

أليس هو روح الله؛ روح المعاني السامية التي تجسدت خلقاً ملكوتياً، وروح الفضائل العالية التي تمثلت على الأرض بشراً سوياً، وروح المحامد والمكرمات هبطت من مكانها في ذرى العلياء لتحل في الأرض إنساناً علياً؟

أليس هو روح الله؛ الروح التي تنزلت من السماء بأفانين الآلاء، لتعمر الأرض بالخير والهناء، تضم المستضعفين إلى أحضانها الدافئة الرؤوم ، تنعش صدورهم، وتجلو غمومهم، وتفتح أمامهم أبواب العزة والرفاهية والسؤدد؟

أليس هو روح الله؛ العذاب الواصب الدائب الذي تفجر حمماً من تحت أقدام الطغاة والمستعبدين، وانصبَّ بلاء طاغياً من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ليجدوا أنفسهم في الموج الطاغي للبلاء؛ قد أحاط بهم فلا حيلة، وأخذ بخناقهم فلا منجي، وتكنفهم فلا سبيل سلامة؟

أليس هو روح الله؛ العجب الآسر القاهر الذي طاف بالشرق الكفور في عوالم الحيرة الطاغية؛ حيث بدد زيف المزاعم بأفيونية الدين حين فجرها ثورة لم تنطو أحشاء التاريخ على نظيرها، الله غايتها، والإيمان قوتها، والدماء الزاكيات وقودها حدوثاً وبقاء؟

إنه روح الله؛ البأس الفائق الذي نابذه الغرب العقور وصاوله وطاوله، وجاءه بغرائب الكيد والمكر وفنون العدوان والشر، لكنه انكفأ خاسئاً مدحوراً، ونكص على عقبيه ذليلاً مقهوراً، يلعق جراحه النازفات، وينادي بالثبور والويلات، وقد شربها كأساً مترعة من العذاب، وذاق طعمها مهانةً أمرَّ من الصاب.

إنه روح الله؛ من تعرى بحقيقته الغراء أدعياء الإسلام من أثواب الإدعاء، وتكشفوا لأعين الورى أعدى أعداء الهدى، أولياء الكافرين، وأجراء الظالمين، أعداء الأمة وعبيد الظلمة.

إنه الإمام؛ تلك اليد العلوية الحانية التي امتدت من عالم الغيب، لها جلال ومهابة وإشراق، تشير للضعفاء العانين المستذلين في داجيات الذل والاستعباد، إليَّ، إليَّ أيها المستعبدون أخرجكم من وهاد الضيم والشقاء إلى شواهق العزة والهناء، لتكنوا سادة فاتحين بعد أن كنتم عبيداً مسترقّين.

الإمام هو بضعة الرسول، وابن الزهراء البتول، سلالة الحسين السبط الشهيد، وعترة الإمام المسموم الفقيد وليد النبوة والإمامة، وفرع العلياء والكرامة، وارث الزعامة والريادة، وحفيد الجهاد والشهادة.

وثورة الإمام وسعيه الهمام، أمران طارفان لم تتضمنها أحشاء الزمان، أرأيت كيف يفعل الإيمان؟ إنه ليكفيك من الخبر العيان، وحسبك من السماع المشهد، فهذه وثبته المبدعة تبث في الأرض أفانين الإعجاز، وتبعث فيها ألوان العجب، وتنحو بها شطر الإبداع في فصولها.

الخميني والمؤمنون المستضعفون معه ـ على الضعف البادئ والعجز عن كل شيء، والحرمان من كل سبب ظاهر إلى المنعة، والهول المتلاطم كالخضم من حولهم، والبغضاء المستعرة في كل صوب من دنياهم، والعزم الشامل من كل من سواهم على حربهم ـ يفتحون الباب إلى الحياة السامية بقوة صبت فيهم ولم يألفوها، وعزم أُوتوه ولم يكن يشهدهم.

ثورة الإمام كربلاء مكررة منصورة، وعاشوراء مجدَّدٌ مسدَّدٌ، وراية حمراء مضمخة بالدماء ركزت حيث تشاء، نصراً مؤزراً ميموناً، وفتحاً مكللاً مبيناً، أمرين لم ترهما من قبل عين الدهر، ولم يبلغهما سعي الخيال، ودأب الفكر.

ثورة الإمام واقع تجسد بعد أن كان حلماً تجيش به قلوب الهداة الميامين، ومرغوب قد نيل وهو مهوى أفئدة الأجيال، كانت تحول بينها وبينه ظروف وأحوال، وضالة مطلوبة وجدت بعدما حفدت صوبها عزائم الساعين عبر القرون، قد سترتها عنهم شؤون من دُهرهم وَشؤون.

إنها من نبوءة الوعد الإلهي للمستضعفين، والعاقبة المرسومة للمتقين، والخلافة الموعودة للمؤمنين الصالحين، يمكَّنون فيها بعد العذاب المر هداة إلى الدين الرضيَ، ويستبدلون فيها الأمن بعد المخافة في الهول العصيّ.

جهاد النفس

جهاد النفس في حياة الإمام أمر عجيب تُجسد لنا حقيقته حقيقة المطلوب في جهاد الأنفس، ومنابذة أهوائها، ومقارعة شهواتها، وعدم الركون إليها، والاستسلام لرغباتها، وتصور لنا مجاهدة الإمام لنفسه ذلك المدى الواسع الكبير، الذي غاب عنه الكثير، للآية المباركة ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾[1] وتبين لنا بالتجسيم الماثل، قضية النفس المجبولة على الفجور، المطبوعة على الفساد كما يذكرها القرآن ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[2] فنحن نجد النفس عند الإمام في تحذيره منها، وتخويفه من الوقوع في حبائل مكرها، في كل ما قاله وكتبه في (جهاده الأكبر) وسواه وهو كثير وفير، وفي واقعة وسلوكه، قد انصرف عن نفسه، وعزف عن دنياها، وباينها مباينة لا تبعدها عنه ولا تدنيها، نجدها من هذين الأمرين في حياة إمامنا عدواً لدوداً، وخصماً عنيداً، قد عبا قواه، وأجلب خيله ورَجِلَهُ وشحذ بواتره، وحاك أشراكه، وبث شياطينه ليفتلوا هذا الإنسان عن هداه وسداده، ثم يركسوه على رأسه في هاوية العمى، ليقتلوه بعد ذلك قتلاً أنكى من القتل بالنصال، قتلاً لا تكافئه ألف قتلة بالسيف، ضلالة قائمة، وشقاوة دائمة،و عذاب واصب، وبلاء ثاقب، وخسارة الآجلة بعد ضياع العاجلة.

الرجل القرآني وحده هو الذي يستطيع أن يتفهم حقيقة السر في النهى الإلهي الشديد عن متابعة النفس، والتسليم لها، والتركاض خلف داعيها، والأمر الأكيد بمحاذرتها ومجانبتها، والخوف من الانقياد لمطالبها، فلا عجب بعد ذلك أن نرى إمامنا الرباني موصول النداء دائبه، يحذر من غوائل الهوى، ويخوف من مضلات الرغبات،وينهى عن السماع والاستماع لداعي النفس الأمارة.

---

[1] يوسف: ٥٣.

[2] الشمس: ٧ ـ ٨.

ومن يقرأ الإمام فعلاً وسلوكاً حيث لا يجد لأهواء النفس مسرباً إلى عالمه الرفيع الطاهر الوضاء، ولا لرغابتها سبيلاً إلى حياته النقية القدسية، ولا لداعيها أُذُناً سامعة أو واعية. قد تمحضت عزوفاً عن مطالبها، وتنكباً لطريق يؤدي إلى الالتقاء بها، وتعريجاً على كل ما يخالفها ويضادها، ومناوأة لها ومحاربة، هي في ميزان الحماسة والمناضلة والمصاولة أضرى من حرب ضروس، وأورى من نار غوالة أكول، وهذا سر تلك التسمية المباركة لحقيقة جهاد النفس بـ (الجهاد الأكبر)، وتسمية الحرب والطعان، وملاقات الأقران، ومنابذة الفرسان بـ (الجهاد الأصغر)، وتسمية الشجاع الهمام بأنه من يغلب هوى نفسه ولا يغلبه، ويقودها بخطامه ولا تقوده.

ومن يقرأ الإمام في كلماته القدسية، ومواعظه الإلهية حيث النداء والرجاء والدعاء، نداء الحذر من غوايات الأهواء، ورجاء الاستقامة على خط الإيمان والعقل، ومجانفة طريق الشهوات، ودعاء الشفيق بالرفيق إلى غلبة البصيرة على الهوى، وانكسار النفس في الحرب العوان بين رغائب النفس ومطالب الإيمان حيث يقول:

«ينبغي أن تكونوا قبل كل شيء بصدد تهذيب أنفسكم وإصلاحها، وينبغي أن يكون هذا محل اهتمامكم»، و**«اسألوا الله أن لا تصبحوا ذوي مقام اجتماعي قبل أن تتمكنوا من تربية أنفسكم وتهذيبها وإصلاحها، لأنكم حينئذٍ سوف تخسرون كل شيء، سوف تضلون، فابنوا أنفسكم وأصلحوها قبل أن يفلت الزمام من أيديكم، كلما خطوتم خطوة علمية عليكم ان تقرنوها بخطوة في تهذيب النفس وإصلاحها، واستئصال الأهواء النفسية الخبيثة، وتنمية القوى الروحية، واكتساب مكارم الأخلاق، وتحصيل التقوى»**، و**«عليكم أن تهذبوا أنفسكم حتى إذا أصبح أحدكم رئيس قوم، اشتغل في تهذيب نفوسهم»**، **«إن كمال الانقطاع لا يحصل ببساطة، إنه يحتاج إلى ترويض للنفس غير اعتيادي»**، **«حاربوا هوى أنفسكم، ويجب أن تظل هذه المحاربة مستمرة في بواطنكم»**.

من يقرأ الإمام في قوله وفعله، في كلماته وواقعه، فيما يفه به وما يجسده من حقيقة (جهاد النفس) يقرأ رجلاً سماوياً قد صفت نفسه من أوشاب الأرض وزخارفها ومغرياتها، وشفَّت حتى غدت ملائكية لا تربطها بالطين الواهن رابطة، وتسامت متعالية حتى حلَّت مكانها الرفيع بين خلق الله في السموات العلى.

..يقرأ رجلاً قل نظيره ومثيله في نبذ الهوى، وسما على من يباريه في خصلة الاعتصام من زلل الأهواء بذمام البصيرة والنهى، ومن يحاربه في خلة التمسك ـ في عرامة الرغبات ودعارة الشهوات ـ بحبل القرآن وحقائق الإيمان، فالنفس معه في حلبة السباق مغلوبة مقهورة، خاسرة مدحورة، قد خسئت وذلت، وباءت بالبوار والتباب بعد النكوص الدائم على الأعقاب، فلم تعد ثمة للإمام نفس أمارة، ولا أهواء خادعة، ولا شهوات مضلة ولا رغبات مغوية، إنما هي نفس هذبها ونزهها وزكاها، وعلمها ورباها، قد صهرها بالمجاهدة الدائبة وصبها في قالب الإيمان المحض، فخرجت نفساً قرآنية قد خلت من شوب الهوى، وسلمت من أدواة النفوس، وطارت على جناح تلك المجاهدة، وذلك التهذيب إلى محلها الأسمى في عالم ما يشبه العصمة، وارتفعت متسامية إلى مقامها الأعلى في الاستقامة كما أمر الله، حيث تتجسد لك حقيقة العالم الرباني الذي جعله الله خليفة وحجة لأنه مثال (صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه) فللعباد أن يقلدوه ويعملوا برأيه ويطيعوه، فإنه لا يدلهم إلا على الله، ولا يسير بهم إلا إلى ما يحبه ويرضاه، فليس لهم في ذلك مغمز، ولا لأحدهم منهم فيه مهمز، ولا يحجزهم عن إجلاله وإكباره حاجز معابة، ولا يقعد بهم عن طاعته والخضوع له ريب في الصدور.

هذا هو الإمام، فأنظره حيث شئت من أدوار حياته العلية وأنى شئت من مقاطع عمره الشريف، هل تجد إلا إماماً قد طلق النفس الخئون ثلاثاً لا رجعة لها بعدها إلية، منذ علم أنها سكن لا يؤتمن، وعشير تخشى بوائقه، وقرين يخاف من شروره، وصاحب قد عدم سجية الوفاء. أنظره في شبابه ورجولته حيث يقول له الهوى: اَرح نفسك المكدود، لا تعاند خصمك المدعوم وأنت أعزل، لا تبق رهن المناضلة وباب الفوز أمامك موصد، اقعد كما سواك وقد مالوا إلى الدعة وادعين مسالمين فظفروا براحة الدنيا ورضى السلاطين، علام هذا العناء والبلاء؟ولِم هذه الآهة الحرَّى والحسرة الجمرية؟ إلامَ هذا العذاب الواصب مع الغموم والهموم والسهاد في الغربة بعيداً عن الدار في لجة التيار وزعيق الإعصار. لا تسمعُ غير واعية الضحايا على الطريق الدامي، ولا يصك سمعك غير نداء الظليمة من أمتك، من فرعون وجنوده، ولا ترى غير الأشلاء المتناثرة على الساحة الحمراء، وغير النار تأكل أحبائك الأوفياء؟ ألا ترى أنك قد خسرت الدنيا...لذاتها ... دعتها ... أطايبها ... بل أيسر شؤون العيش المطلوب فيها، فأنت مع كل ما تعانيه وتلاقيه في جهادك من الأتعاب والأوصاب زاهد ... منصرف عن الدنيا... قد حرمت نفسك من أقل مرغوباتها، وصرفت عنها أقرب محبوباتها إلا القليل الذي يظفر به المرملون، وينالُه العانون،

ويستطيعه المحرومون. فأنت مرمل عان محروم، قد فقدت أولئك في خلال البؤوس بما تعانيه من هموم القيادة، وشؤون الجهاد، ووظائف النضال، وما أثقلها من هموم مبرِّحة، وأغلظها من شؤون لا تطاق، وأقساها من مهام لا تُتَحمَّل.

ثم أنظره في كهولته، حيث دعته صارخة الهوى قائلة في إلحاح: لمَ لا تعطي الدنية من نفسك والحرب قد أكلت خضراء بلادك، وأحابيل الكفر والنفاق قد راحت تعتصر قلبك، وتضيّق الخناق عليك؟ ترفض الصلح وفيه ظاهر صلاحك، وترفض أمريكا والقوى المستكبرة، ولا عيش مأمون إلا بالتبعية لها، وترفض العلائق المذلة، وتأبى الأواصر (اقتصادية أو سياسية) لأن فيها حيفاً على بلادك وأمتك، أو طمعاً فيهما، وبدونهما لا يستقيم ظاهراً أمر بلادك وأمتك، كل ذلك وسواه تقوله له نفسه فيجيبها (هيهات منِّي الركون إلى الباطل، وقد نهيت عنه، هيهات منِّي السكوت على الضلال وقد أمرت بمقارعته، هيهات منِّي ترك المجاهدة والنضال وقد ألزمني ربي بهما، هيهات منِّي اللهوف إلى رغائب الدنيا وأطايبها، ولي امة محرومة مستضعفة، هيهات منِّي أن أنشد لنفسي الراحة والدَّعة، وأمتي لا تذوق طعمها، هيهات منِّي أن أذلَّ للطغاة المتجبرين، أو أن أُعطي بيدي للغاوين المارقين، أو أن أمدَّ ـ غير مضطر بقهر المصلحة العليا ـ يد المسالمة والصلح للجناة الظالمين، أو أن أشتري الهوان والخضوع، وأبيع الكرامة والاستقلال والشرف بعرض الدنيا وزخارفها ومغرياتها وبهارجها).

أستغفر الله، إن نفسه المبَّرأة من النقص، الزكية الرضية المصونة لم تقل له ولن تقول له شيئاً من ذلك، ولن تسوِّلَ له، أو تأمره بالإثم، أو تزين له السوء، إنما هي نفوس الأتقياء دونه، تريد أن تغويهم فيردعونها بالرفض الشديد، وتنشد لهم الشر فيعاقبونها بالإباء والصدود.

وهلم نختم الحديث في هذا المر بوصية المجاهد الأكبر، لمسؤولي بلاده وحماتها، ومدراء شؤونها ورعاتها، بجهاد النفس، ومحاربة الهوى:

«يجب أن تصونوا أنفسكم ولا تجعلوها تتدخَّل في أموركم التي تديرونها، إن الذي يريد أن يصير حامياً ومدافعاً عن هذه الجمهورية يجب ألا يكون هواه متدخلا في عمله، فيغير وجه هذه الجمهورية. كلكم يجب أن تكونوا كذلك. أنتم أيها القائمون في الخدمة فعلاً، وكذلك السفراء، ومن يذهبون للعمل خارج البلاد، وكذلك حرس الثورة، وكل القوى المسلحة وأعضاء المجلس والسلطة القضائية والتنفيذية، يجب عليكم جميعاً أن تراقبوا أنفسكم وتصونوها».

التقوى

التقوى هي حق الله على عباده، وأرقى مصاديق العبودية، وأصدق شاهد على حقيقة الإيمان، وهي كما يصفها إمام الأتقياء، دواء داء القلوب، وبصر عمى الأفئدة، وشفاء مرض الأجساد، وصلاح فساد الصدور، وطهور دنس الأنفس، وجلا عشا الأبصار، وأمن فزع الجأش، وضياء سواد الظلمة، ولقد كان الإمام أوفر أهل الزمان حظاً من التقوى، وأكثرهم، وكان ألصقهم بها، وأدناهم إليها، وأشدهم حرصاً عليها، وتحلياً بزينتها، واستمساكاً بركنها، واعتصاماً بحبلها، وتقرباً إلى الله بآثارها وشواهدها، ودنوّاً منه وعروجاً إليه بأحكامها وفرائضها، ونيل المقام العليِّ في رضوانه بتقواه، والعمل بأمره والازدجار عما لا يرضاه، فريضة من العقل والوجدان بحق الطاعة الكاملة، وأمراً من المعبود أن يعبد بما يريد كما يريد، وأن يطاع بما يشاء كما يشاء، وألا تخالف أوامره، ولا تتعدى حدوده، لصلاح دنيا المربوبين وأخراهم.

ولله دره حيث يقول:

«إذا آمن الإنسان بالله تعالى، ورآه بعين القلب كما يرى الشمس ببصره، فليس يمكنه بعد ذلك أن يرتكب أيَّ ذنب».

«هل من الممكن أن تصدر المعصية من شخص معتقد بحضور الله ومراقبته؟».

وشاهدنا على رفيع الإمام بالتقوى، وعظيم شأنه في عالمها، وعلو منزلته في درجاتها أمور هنَّ مصاديقها وأفرادها . . . نتائجها وآثارها . . . عطاياها ومواهبها، انظر الإمام حيث شئت هل تجده إلا تقياً خائفاً خاشعاً، صائناً نفسه عما يسخط ربه، حافظاً لحدوده، لا يخالفه في الكبيرة، ولا يتجرأ على عصيانه في الصغيرة، ولا يتسامح أو يتهاون في أن يؤدي إليه كل حقوقه، ويطيعه بكل طاعاته التي فرضها، وينتهي له بكل نواهيه التي ألزم بتركها، مدركاً لعظيم حقه، مبصراً بعين القلب (العارف) جسيم شأنه، وما هو أهله من الطاعة والعبادة، فعبده واتقاه، وهابه وخشيه وسعى حافداً دؤوباً يؤدي إلى صاحب الربوبية ما هو أهله لديه من حقيقة العبودية، لأنه السيد المعبود المهاب قبل أن يكون شديد العقاب،

ولأنه حبيب قلوب العارفين قبل أن يكون المثيب المجازي يوم الدين، على سجية من جده المرتضى الذي ما عبد ربه خوفاً ولا طمعاً، بل لحق العبودية وحده ...

وإننا لنسمعه يقول:

«لا تعبدوا الله من اجل الوصول إلى هذه الأمور، بل اعبدوه لأنه أهل للعبادة...

...حينها تخترقون حجب النور، وتصلون إلى معدن العظمة».

أنظر الخميني في كفاحه المقدس، هل تراه خالف الحق، وتعدى حدود الشريعة، ليصل بذلك من أقصر السبل إلى غايته، وإن الطريق لتطول بالتقوى إلى الغاية الكريمة مع العدو اللئيم الفاجر؟ هل نأى عن طاعة الله أيام قيامه على الظلم ليدك عرش الطاغوت، فأمر بسلوك سبيل الباطل للوصول إلى الهدف، وانتهاك حقوق الله لنيل المبتغى والتجاوز على حرمات الرسالة ولو أدنى تجاوز لبلوغ المطلوب كما يفعل القادة المنحرفون سعياً إلى غاياتهم؟ أم تراه يأمر الناس ألا يخرجوا عن حدود طاعة الله وتقواه وهم يجاهدون عدوَّ الله وعدوهم، وألا يخالفوا ربهم وهم يناوئون المردة العصاة، وألا ينقلوا الخطى الملتوية وهم ينشدون طرد الضلالة، وألا يحيدوا عن السداد طلباً لأوبة الرشاد.

ثم تلك الحرب المفروضة بكل ما هتنت به من الفضائع والويلات على إيران البريئة، والظلم الفادح الذي نزل بساحتها، وكل ما حملتها بها قوى الباطل من المتاعب والهموم، وشغلتها بها عن أهدافها العالية وأغراضها السامية، من تثبيت دعائم الإسلام، ورفع كلاكل الحرمان والاستضعاف عن كاهل الأمة المسلمة في إيران، ونشر أوار الرفاه والهناء بعد ليالي الشقاوة والبلاء، وتصدير ثورتها إلى العالم بالحكمة والموعظة الحسنة، على الرغم من ذلك كله، وبالرغم من هذا الدم الزكي الذي تهريقه بواتر الجناة في هذه الحرب الغشوم، وهذه المهج البريئة التي تسفك ظلماً وعدواناً لا يعدوان الصغير والكبير ولا الرجل والمرأة، وتلك الفضائح التي ارتكبت على ثراها الطهور يبرأ منها هولاكو الطاغية، وتقشعر لها جلود المغول القساة.

رغم هذا وذاك منعت الإمام وتمنعه تقواه من يردّ الصاع صاعين وهو يسير عليه، وأن يقابل الظلم بالظلم وهو عليه قدير، وأن يخرب بلاد المخربين بإشارة بنان، وان يكثّف على الجاني ليالي البلاء، وأن يفجِّر من تحت قدميه حمم المصائب، وأن يصب على رأسه مزن الفجائع، وأن يرميه بكل داهية نكراء، ويأتيه بكل ملمة فقماء، وأن يغرقه في بحر لجي متلاطم عباب لا ساحل له من المحن والويلات، يذوق

فيه الموت أنفاساً، ويتجرعه على مهل مرير، لو أنه أباحت له نفسه أن يقابل المثل بالمثل أو فوقه كيفما كان، وأن يرد العدوان أنى اتفق، وأن يظفر بالنصر أنى كانت السبل إليه، لكنها تقواه تصرفه صرفاً عن ذلك، وتزعه عنه، وتحول بينه وبينه، وأنه ليقول مقالة جده أمير المؤمنين(ع):

«قد يرى الحوّلُ[1] القُلَّب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر الله ونهيه؛ فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين»[2].

وتدقق على الإمام تقواه فيأمر لها جنوده أن يكونوا صادقين كل الصدق في رواية أخبار الحرب وذكر أنبائها، وتقديم الإحصاءات عن خسائرها في الطرفين، وذلك أمر قل من فعله من قبله، وقليل من يفعله بعده.

ثم انظر التقوى مع الإمام في مواهبها وعطاياها مما يحبو الله به عباده الأتقياء (والعاقبة للمتقين) من موفور الفضل، ومزيد النعمة، وفائق الكرامة، وعصي المنال من العطاء، تجد أن الله قد اجتباه لتقواه، واصطفاه لأمر حجز عنه سواه، وأعطاه من عظيم المنِّ ما شخصت إليه الأبصار، ووهبه من سامق المنزلة ما حارت به فطن المطْرين، واختصه بكريم الشأن ما عجزت عن نيله مواكب الأبرار.

وهبه الله أمة أحبته وقدسته وأطاعته لأنها ألفت امرأً تقياً يحب ربه ويقدسه ويطيعه، وزعيماً مجاهداً زاهداً، وفياً أبياً، ثائراً صابراً، مدبراً قديراً، قد حوى أرفع خصال الريادة، وأروع خلال السياسة والقيادة.

وهبه الله وفاء بوعده ﴿وَمَنْ يتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ حماية منه، وحياطة وصيانة يقتحم بها بحر الأهوال فلا يغرق، ويلج بها نار الخطوب فلا يحترق، ويلمُّ به معها الأعداء من كل صوب فلا يصيبه منهم أذىً، ولا يمسه منهم مكروه، ويحل بثورته وجهاده ثرى الاستكبار وأسياد خصمه فيعصمه الله من شرهم، ويصرف عنه مكائدهم، ويحجز عنه أذاهم.

لا بل يكتب له شطراً كبيراً من النصر، ويؤازره بين ظهرانيهم، وعلى مرأىً ومسمع منهم، وهم يعضدون عدوَّه فلا يغنون، ويمدونه فلا يجْدون، ويسعفونه فلا يشفون، ومبرِّحهم، ومؤرق ليلهم، وصارف طائر الكرى عن أعينهم؛ بين أيديهم لا يجدون شيئاً أسهل عليهم من أن يقتلوه أو يثبتوه أو يطردوه فيؤخروا أوان النصر، ويحولوا بين القائد الظافر وبين أن يبلغ حيث أراد وادعاً سالماً، حتى حين

[1] البصير بتحويل الأمور وتقليبها.

[2] نهج البلاغة (الخطبة ٤١) تحقيق د. صبحي الصالح.

طارت طائرة العودة وما أسهل على (رصاصة) ولا نقول (قذيفة) من أن تهوي بهذه الطائرة إلى الأرض لتذرها حريقاً هائلاً أو أشلاء مقطعة.

ثم في حلوله طهران وكيد الباطل مستحكم، وبلاءه متفاقم، وشره مستطير، ونار غيه لها سنان ثاقب، طوع أمره جيشه «الخالد» ورهن إشارته السلاح الرهيب يدمر ما رام حيث رام، يصرف الله عنه وهو على ثرى البركان أن يتفجر به فيبيره، ويمنع بواتر الظالمين وهي تحيط به من كل صوب أن تنقضَّ عليه فتصير أفلاذاً، ويعطيه الله النصر الأغر المؤزر الذي كانت تحلم به الأنبياء، وكان ينشده الأولياء، فحالت بينهم وبينه شروط موضوعية له لم تواتهم، وأسباب بين يديه لم يظفروا بها، وظروف وممهدات لم يصيبوا حظاً منها.

وكان قدراً مقدوراً أن يكون الخميني هو الفاتح العظيم الذي أثلج الصدور الحرَّى على مر العصور، وأنعش القلوب الموجعة المتحرقة على طول الزمان، وغمر النفوس الناصبة اللاغبة مر الدهور بالأنس والارتياح، وصنع معجزة خرَّ لإعجازها العالمون سُجَّداً، وهم بين مبهور بها قد أخذته الحيرة والذهول، وعاشٍ عن النظر في وجهها للتصديق بحقيقتها قد أبصرها على حين غِرة بعد ليل حالك طويل فصعق بفرط نورها، ومتهاوٍ مهدود الأركان من فزعه وخوفه، وموجع ثكلان محزون يحس أنه قد دنا من حتفه.

لقد وهبه الله لتقواه ما وعد به أهل التقوى من هبة (الفرقان) ﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً**﴾[1]، النور الذي يبصرون به طريق الحقيقة في معتكرات الأوهام وغمرات الأباطيل، ويرون فيه الصواب في ظلمات الجهالات والشبهات، وتنفذ به نواظر بصائرهم إلى حقائق الأمور كالمغيبات، وتدرك به سرائرها المكنونة كأنها قد وهبت (علم الغيب) ولقد أبصرنا هذا النور عند إمامنا من واقعه الوضاء، وبصيرته المنيرة، وهديه المشرق الوهاج، وسياسته القويمة الماضية على سبيل الحق والاستقامة، وقيادته الرشيدة التي حالفت الصواب لا تجهله فتشط عنه، وقارنت الرشد لا تعمى عنه فتحيد عن دربه.

وكان ذلك كله صنع التقوى ولولاها ما كان معشاره، وكانت تلك أرفع آثارها وبدونه لا تكون، وكان ذلك أعلى آية الوفاء بوعد صادق غير كاذب ﴿والعاقبة للمتقين﴾ لتجعل من حليفها صاحباً ملازماً، وسميراً، وخليلاً قد اتخذها شعاراً ودثاراً، وهادياً ومناراً، لم ينأ عنها في الدياجي الحالكات، ولم في

---

[1] الأنفال: ٢٩.

المحن الطاغيات، ولم يهجرها بعد إقبال آثارها والمنى، ولم ينسَها عندما رقى الدرجات العلى، حين ذلت له الرقاب، وتسببت له الأسباب، وثنيت له وسادة الاقتدار، وأنتضت يمينه الصارم البتار، وتم له الأمر المشهود، وفتحت له أبواب المجد والخلود.

خذ إليك صفات المتقين، أو هلمَّ نعرِّج عليها يصدح بها ثغر التقوى مجسدة في إمام الأتقياء، لننظر في صدقها على إمامنا، وانطباقها عليها انطباقاً متسقاً متناغماً ليس فيه فتور ولا فطور، ولا يمازجه شوب ولا عيب.

فالمتقون هم أهل الفضائل، وإمامنا أهلها، طلبها بحق فلبت طائعة، وأقبلت مذعنة، تزين حياته الحسناء، وتزيد إشراقها إشراقاً، ووضاءتها وضاءةً، منطقه الصواب، لم يقل شططاً ولا باطلاً، قد تعفف لسانه عن حديث اللغو واللهو، وفطم عن كلام لا يلده العقل ويسوسه، فهو لا ينطق إلا حكماً أو حكمةً أو موعظة شافية، أو دلالة وسداداً ورشداً، وملبسه الاقتصاد، لا بل إن ملبس إمامنا الزهد... مشاركةً للمحرومين في أمته ومواساة لهم، وهو عهد أخذه الله عليه لأنه القائد الرائد، وسجية جبله عليها إيمانه لا يبارحها ولا يضيعها، قد غض بصره عما حرم الله عليه، ووقف سمعه على العلم النافع له، فعينه وأذنه رهن الإيمان يريان فيه ويسمعان، قد نزلت نفسه منه في البلاء كالتي نزلت منه في الرخاء، إذا دهمه البلاء كان بثقته بتأييد الله لتوكله عليه، وأمله بلطفه ورعايته؛ كمن كان في رخاء مستمر لم يغيره حلول النكباء، وإذا حل به الرخاء كان مع خوفه من عقاب ربه وخشيته له كأنه في بلاء دائم لم يذق فيه طعماً للراحة، عظم الخالق في نفسه، واستحوذ سلطان مهابته فيها على كل سلطان، فصغر ما سواه فيها... صغرت الدنيا ومطالبها ... صغرت الأهواء والشهوات ... صغر الباطل وقدراته، وهان الشر وسطواته، فهو لا يخشى سوى الله، ولا يهاب غير قدرته، ولا يرهب غير بأسه، ولو كان لهذه القوى المستكبرة المتجبرة التي راحت ترعد وتوعد ولكن في أذنه وقراً من عدم الخوف عن سماع وعيدها، وبينه وبين ذلك الوعيد ستر من اللامبالاة عن ترتيب الآثار عليه أو الاعتناء به.

قلبه محزون خوفاً من الله ورهبة منه، قلبه محزون مما يمر بأمة الإسلام من العبودية للكافرين، والتبعية للمستعمرين، ومن تضييع أحكام القرآن، واستبدالها بقوانين الباطل، ومن الظلم والحيف اللذين يقعان على رؤوس الصفوة المجاهدة من هذه الأمة.

قلبه ذو شجون لما يمر به المستضعفون في أمة القرآن ـ بل حتى في غيرها ـ من النصب والعناء، محرومين أشقياء منبوذين، بينما الأسياد وأذنابهم في القصور الفارهات يتنعمون، وفي لذاتهم الواسعات يغرقون.

شره مأمون لا تخشى غائلته على أحد، ولا يخاف منه أحد ضراً، ولا يتوقع منه أحد سوءاً لا في أمته في إيران، وقد راح يذوب لها قلبه ذوباً ورحمة وإشفاقا وحناناً، ولا في أمة الإسلام من حوله، وقد بدا كمن هو باخع نفسه حسرة وأسفاً ومرارة على ما يحل بها النكبات، وما تعانيه من الويلات.

وشرن مامون فلا أحد في العالم هذا الفسيح الواسع من حوله يرى منه الشر والأذى أو يتوجَّسه منه، كيف وهو صاحب رسالة لحمتها الرحمة، وسدادها الإحسان، تريد أن تعم لتُريَ الناس محاسن الإسلام وفضائله وبركاته.

أرادته الدنيا فلن يردها، وأسرته ففدى نفسه منها، ليس لها في قلبه نصيب من هوىً أو رغبة، ولا لها في نفسه مكان من إقبال أو توجه، إنما هي عنده تفاهات زائلة، وزخارف خادعة ذاهبة، غرور حائل، وضلال باطل إلا بمقدار ما يكون للحق فيها من وجود، ولأهله منها من عمل به، وسعي لنشره وتحكيمه، ودأب في اكتناز المحاسن وإذاعتها، والإعداد ليوم الإياب الأكبر من الحسنات بالأعمال الصالحات، وهذا هو دأبه الواصب في الدنيا، وعمله المشهود فيها، وسعيه الحثيث في أحنائها،فكل دنياه مجاهَدة، وكل زمانه عمل بالحق ودعوة إليه، وكل أيامه سعي في مرضاة الله وجهدٌ لإنقاذ عباده من مخالب الشرور، وبراثم الذل والشقاء، وأتون الحرمان والاستضعاف.

لا يرضى من عمله القليل، فشأنه أن ينصب في رضا ربه، وطلب قربه، والدنو منه بالفعال الزاكيات، فإن قل عمله رأى ذلك ذنباً وتقصيراً على نهج القول الكريم (حسنات الأبرار سيئات المقربين) يسيئه قليل الخير منه، ويستقل الكثير الذي يعمله، فهو نزر يسير في عالم الطاعة الممتد الواسع، فهو لنفسه متهم بالتقصير على كل حال، وهو من أعماله الصالحة مشفق ألا يكون لله قد ارتضاها، لذلك تراه كثير الحسرة، غزير العبرة، شديد المخافة والإشفاق، وهو في الذروة الشمّاء من طاعة الرحمن، وفي المنزلة الخصيصة من القرب منه والتعلق به.

إذا زُكِّي خاف مما يقال خشية ألا يكون عند الله أهلاً لما وصفه به المحبون من حميد النعوت، وئكره الموالون من عظيم المقام ورفيع الدرجة، ولا يزكي الأنفس إلا الله، ولا يعلم بحقائقها إلا هو، فيتوجس

إذا هو رضي تلك التزكية أن يكون مزكياً لنفسه، راضياً عنها، معجباً بها، وإن لسانه الناطق أو لسان حاله ليقول ما قاله أمير المؤمنين حين مدحه بعض الناس:

«اللهم إنك أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلنا خيراً مما يظنّون واغفر لنا ما لا يعلمون»[١].

ثم أنظره رحمه الله في مهم صفات المتقين وسامي صفات المقربين، القوة في الدين هي أولى صفاتهم، وهي أولى صفات إمامنا، فهو قوى في دينه، متدين في قوته، شكيمته في دينه وارية، وعزيمته فيه ضارية غير ضعيف الدين، ولا مهزولة، ولا هيابة، ولا وانية، إذا ملك القوة فهو يعقلها بعقال الدين، ويخطمها بخطامه، ويقودها بزمامه، لا تنفلت من يده فتدمر، ولا تضعف حيث تراد فتقصر، إنه دين قوي مقتدر، وإنها مقتدرة متدينة.

وإنك لتراه في صفات المتقين الأخرى حازماً حيث يفرض الحزم نفسه، ليناً حيث يكون اللين فرضاً، مؤمناً على يقين راسخ في معتقداته، تشهد له عليه الحقائق اللائحة من واقعه وجهاده، حريصاً على العلم، مقتصداً حال الغنى، خاشعاً في العبادة، صابراً في الشدة، نشيطاً في الهدى والقربات، متحرجاً عن الطمع في عرض من أعراض الدنيا، يمسي شاكراً لله على أداء الطاعة، ويصبح وهمه ذكر الله وتعظيمه ومزيد القرب منه، إذا مانعته نفسه عن طاعة من الطاعات لم يمكِّنها ـ عقوبة لها ـ من رغباتها، قرة عينه في الباقيات الصالحات والطاعات المرضيات، وزهده فيما يزول من العرض الفاني والمتاع الذاهب، لا يقول حتى يعمل، منزور الزلل، خاشع القلب، قانع النفس بما قسم الله لها، سهل الأمر، غير متكلف في شؤونه، حريز الدين لا يستفل من إيمانه، ميت الشهوة، كاظم الغيظ، لا يغضب لنفسه، يؤمَّل الخير منه ويرجى، ويؤمن الشر منه ولا يخشى، يعفو عن ظالميه ولو كانوا قد ظلموه أفدح الظلم، وحطوا من قدره أفظع الحط، يعطي من حرموه ولو كانوا قد اقترفوا في ذلك أكبر الجرم، بل يصل من قطعوه ولو من راموا من قطعه ألا تقوم له قائمة، بعيد منه بذائة القول وقبيحة، لا يساء منه أحد بمنكر يأتيه، خيره على الناس كتهتان السحاب، وشره أمام جحافل تقواه ناكص على الأعقاب، في حوازب الأمور وفوادحها وقور ثابت، راسخ الخطى لا يحور ولا يتراجع، وفي المكاره والملمات صبور لا يجزع ولا يسخط ولا يتبرَّم ولو كانت مثل واقعة خرداد والجمعة السوداء، لا يحيف على من يبغض فيخرجه البغض عن حدود

---

[١] نهج البلاغة (الحكمة ١٠٠، تحقيق د. صبحي الصالح/ ص٤٨٥.

الإيمان حتى مع طاغية الزمان وعصبة الشيطان، ولا يأثم فيمن يحب فيغالي في الحب حتى يتعدى حدود الشريعة، وإن أحباءه لا يأمنون زواجر وعظه وتحذيره إن هم شطَّت بهم الزلات عن سواء السبيل.

لا يضيِّع ما استحفظ، فالأمانة عنده محفوظة، صغرت فكانت أمانة درهم أو دينار، أم كبرت فكانت أمانة أمة وقيادة، لا يضار بجيرانه، فلم يعهد له جار أحس منه المكروه يوم كان فرداً في الأمة، ولم يعهد بلد مجاور لبلاده رأى منه المساءة وقصْد العدوان بعد أن أصبح زعيماً رائداً، لا يشمت بالمصيبة ولو حلت بأعدى أعدائه، منصرف عن الباطل بأجمعه، غير خارج من الحق ولو جزء منه، صامت يؤنسه الصمت في محله، متكلم بالبليغ النافع حيث موضع الحاجة إليه، يصبر إذا بغي عليه حتى ينتقم الله له، ولقد فعل ـ سبحانه ـ فدمدم على من آذوه وأوقع بهم، فمنهم من أذاقه فضيحة الدارين، ومنهم من فضحه في دنياه متربصاً فضيحة الآخرة.

ليس لنفسه راحة بل هي ـ من زجره لها وتشديده عليها ـ في عناء متصل، وهي من زجه لها في ملحمة قيامه الفريدة تصنع عجائب الأمور في دنيا الجهاد في المحل العصيّ القصيّ عن الراحة، وفي المنأى البعيد البعيد عن قرار العيش الدنيوي وطيبه ورفاهه، ولا غرو أن تحوزه عن دنياه أخراه التي صرف عينه إليها، وسعيه لله الذي وزع نفسه أوصالاً على عدد همومه ومشاغله لدينه ورسالته، وقطَّع قلبه أفلاذاً تعانق من أمته تلك القلوب التي مسها الأذى لله ثائرة على سبيله.

لا ترى منه الأمة إلا الخير تسح به سحب الجود والعطاء، قد سلمها زمام الأمر وسخر لها كل شيء، لا يتباعد عن أحد إلا زاهداً في دنياه، ونزاهة من مساوئه، لا متكبراً ولا متعاظماً ولا متعالياً، ولا يدنو من أحد إلا بلين مشهود، ورحمة ظاهرة، لا يريد مكراً به، ولا خديعة له، ولا طمعاً فيه.

الزهد

الزهد في حياة الإمام معْلم بارز من معالمها العالية، وسمة وضّاءة من سماتها الرفيعة، قد تحلى به فاحلولى، وتزين به فصار زينة الرائين، قد أحب الزهد لأنه من محاسن الصفات، واستواه لأنه مظنَّة الرضوان، والتزمه لأنه فرض يفرضه عليه شأنه ومقامه، لم يفتأ دهره زاهداً، عازفاً عن زخارف الدنيا وخوادعها، ذاهب الفكر والنظر عن بهارجها وزينتها، له من شؤونه العظام صارف عن الميل إلى الحطام، قد اكتفى من دنياه بأقل القليل، ولم يرضَ لأخراه بأكثر الكثير.

لقد وعى عقله الكبير حقيقة الدنيا، وأنها غرور حائل، ووعى حقيقة شأنه، وأنه إمام يتأسى به الناس ويقتفون أثره، وهو مقصد قلوبهم، ومرمى أبصارهم، يتبيغ بهم الفقر إن رأوه قد استعلى في دنياه على دنياهم، ويشرهون إلى المتاع الذاهب إن هم رأوا إمامهم يشره إليه ويطلبه.

وإنه لترن في أذنيه كلمات الزاهد الأعظم (علي بن أبي طالب) يصدح بالمواعظ الشافية، داعياً إلى الزهد سواد الناس وعامتهم فضلاً عن خاصتهم، بل لهؤلاء وصية به روحها الإلزام، وحقيقتها الفرض والعزيمة، إنه يوصي عامة الناس قائلاً لهم:

«انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها، الصادفين عنها، فإنها والله عما قليل تزيل الثاوي الساكن، وتفجع المترف الآمن، لا يرجع ما تولى منها فأدبر، ولا يدري ما هو آت منها فينتظر، سرورها مشوب بالحزن، وجلد الرجال فيها إلى الضعف والوهن، فلا يغرنكم كثرة ما يعجبكم فيها، لقلة ما يصحبكم منها»[1].

وإنه يوصي خاصة الناس قائلاً لهم:

«إنَّ الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بِضَعَفَةِ الناس، كي لا يتبيَّغ بالفقير فقره»[2].

---

[1] نهج البلاغة (الخطبة ١٠٣) تحقيق د. صبحي الصالح/ ص١٤٨ـ١٤٩.

[2] نهج البلاغة (الخطبة ٢٠٣) تحقيق د. صبحي الصالح/ ص٣٢٥.

وحين كانت هذه الوصية وسواها ملء وعي الإمام وشعوره، تجسمت واقعاً في سلوكه، فهو الزاهد الذي يرى الإقبال على الدنيا لنفسه ولو محللة؛ ذنباً يعاقب عليه، ويراه شيناً يعيبه به عقله الكبير، وإنك لتراه في زهده؛ فترى رجلاً عجباً، قد ملك عقله بعقال الصبر حتى عن مطالبها الحلال، ووزَعَها بوازع التعفف حتى عن مطامحها المشروعة، وصدَّها ـ متهماً ـ متهماً إياها، مروضاً لها ـ حتى عن أحب رغباتها المباحة، فلم تظفر منه الدنيا بشيء وقد أوعرت المسالك على سواها، ولم تصب منها حظاً وقد أقحمت غيرها في ورطات الذل لها، والانقياد لداعيها.

إنه يقول عن هذه الدنيا:

«إن الدنيا وما فيها من البهارج والزخارف لا تعدل مقدار جلب شعيرة».

«إن الدنيا ليست شيئاً ذا بال.

إن هذه الدنيا بجميع مظاهرها الخادعة أحقر من أن يحترمها إنسان ويحبها».

وهو يقول عن عاقبة محبتها وإتِّباع دواعيها:

«إذا ابتلي الإنسان بحب الدنيا، وتمكنت الدنيا من قلبه... قد تكون عاقبته أن يخرج من هذه الدنيا وهو عدو لله سبحانه».

وإذا رأيت الإمام في عالم الزهد، رأيت ثَمَّ رجلاً صح فيه وانطبق عليه قول من وصفه جده أمير المؤمنين:

«قد حقّر الدنيا وصغّرها، وأهون بها وهونها، وعلم أن الله زواها عنه اختياراً،وبسطها لغيره احتقاراً، فأعرض عنها بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحب أن تغيب زينتها عن نفسه لكي لا يتخذ منه رياشاً، أو يرجو فيها مقاماً».

انظر الإمام في شؤون الدنيا التي لا بد أن ينال منها، ماذا نالت منه؟ بيته النِضْو المهزول في قم هو بيت الثائر الميمون، ومستثار الزحف الهادر للثورة العظمى، ومستقره الضاوي القديم في النجف هو مأوى الرائد لمعجزة الزمان، ومدبر ملحمة العظمة في إيران، وباسل الصولة الكبرى على هدى الله وسبيله، وناشر النور في الديجور بعد مغيبه وأفوله.

ولقد كان من فضل الله عليّ أن دخلت بيتيه المكرَّمين، فرأيت ملكاً قد استوى عرشه في النفوس والأفئدة، لكنه افترش بساطاً حقيراً يفترشه أضعف أبناء أمته دنيا، ورأيت أسداً هصوراً قد أخذت مهابته

بمجامع القلوب، لكنه في عرين لا تقوم به للعين ساق مهابة، رأيت عظيم هذا الزمان في أحقر بيت، وعجيبة هذا العصر في منزل لا يستهوي البصر، كبيت فقير مدقع الفقر، خاوي الوفاض عن عرض الدنيا، قد تكلَّف تكلفاً شديداً حتى فرش أرضه بفراش تزدريه العين، ووضع للجالسين على جوانبه مقاعد كأن حشوها الليف، ومتكئات خشناء، لا تريح تلك من يفترشها فيظل عليها قلق الوضين، ولا هذه من يتّكئ عليها فكأنه اتكأ على الحجر.

أما مطعمه وملبسه، فذانك أمران لم يزوَ حالهما عن الناظرين، ولم يحجب خبرهما الصادق عن السامعين، دأب في الزهد فيهما فيهما على ما نهجه صادق أهل البيت (ع) لخلفائهم:

«لا يكون الرجل فقيهاً حتى لا يبالي أيَّ ثوبيه ابتذل، وبما سد فورة الجوع»

فأضحى فيهما مثالاً مقارباً لوصف أمير الزاهدين نفسه:

«ألا وأن إمامكم قد اكتفى من دنياه بِطِمْرَيْه، ومن طُعْمِهِ بِقُرْصَيْه»[1].

وقد ألفينا في النجف أن نرى (المشتي)[2] يدخل السوق لشراء حاجات منزل الإمام، وحيث كنا نشتري ـ نحن أفقر الطلبة ـ (الكيلو) الواحد أو الاثنين من صنوف الفاكهة، نرى إلى جانبنا خادم البيت الكريم يشتري مثل ما نشتريه، أو اقل منه، ليذرنا مع العجب والحيرة من هذه الظاهرة الفريدة التي لم نألفها، ولم نحط بمثلها من قبل خبراً، ولم نعهد لها نظيراً؛ ظاهر الزهد في متاع الدنيا، والعزوف عن أطايبها ولذاتها.

ومائدة القائد الهمام، إنها مأثرة من مآثره الجسام، ينظرها الناظر فيرى مائدة مألوفة طالما أبصرها أو أبصر خيراً منها في بيوت أهل القرى وسكنة الأكواخ، وألفها عند أهل الإدقاع والحرمان في بلاد هذا الإمام الثائر، أمرٌ عزَّ مثيله، وأعيى على المشابهة والمحاكاة فلم يبلغا حيث أرادا، أمرٌ ذرفت له الدمع عيناً ذلك المراسل الأجنبي من خشوع لجلال المشهد، وإعجاب صار هياماً أفاضا ماء الشؤون هوىً وصبابة، وحين يسأله الناس ما خطبك؟ وفيم بكائك؟ ومم تحيرك؟ يجيبهم: لقد كنت الساعة عند قائد الثورة التي أقامت الدنيا وأقعدتها وأرجتها وأمادتها، وقد نصبت له مائدة طعامه التي لم تحتوِ غير الخبز والماء وشيء من البيض وشيء من التمر، وقد أخذت عيناي تغرورقان بالدموع، وراح أوار شديد من الحيرة يعبث بي، وانتفض في داخلي بركان الذهول ينشر حممه في أنحائي ورحت أطوي صفحات التاريخ،

---

[1] نهج البلاغة: الرسالة(٤٥) تحقيق د. صبحي الصالح/ ص٤١٧.

[2] القائم بمشتريات بيت الإمام الخميني (رض).

وأقطع مسافاته البعيدة لأطل على عالم الأنبياء الذي وصفته لنا كتب سيرهم، إنه عالم الزهد والتقشف والإعراض عن زهرة الدنيا ولذتها. حين يؤوب الفاتح الظافر إلى بلاده بعد محنة الغربة وقد كلله غار العظمة، وأحاطت به هالة المجد، يتأبى إلا أن يعود إلى بيته القديم أو بيت مثله أو أدنى منه، لم يغير النصر المؤزر من شمائله بغرور أو استعلاء، ولم يؤثر الثر الكبير الذي أثره في دنياه من حوله في فضائله فيستدرجه إلى الارتقاء ولو على المرملين من أبناء أمته، لا الزعامة الفريدة الكبرى لوت زمامه صوب العلو في المظهر، ولا الدنيا التي فتحت بابها له على مصراعيه تقدر أن تجد لها إلى رحابه العالية سبيلاً، ولا هذه الشهرة التي نالها ولم يظفر بها أحد سواه تفتله عن خطه القويم، خط الفضيلة السامقة والمثل الرفيعة، إنه ثابت ثبات الحق، راسخ رسوخ الأوتاد الصلاب على حال واحدة، لا يتبدل كالشمس ليس لها شأن غير الإشراق.

وهذه جماران التي كانت مأواه في طهران، أين هي من أبهة الدور الباذخة، وفخامة القصور الشامخة، ذات الفانين والألوان، من مستحدث الفنون في العمران، قد سكنتها الأشباح عديمة الأرواح تدار من وراء الأستار بأنامل الاستعمار؟ إن البعد الجسدي بينهما كبعد المشرقين، وإن شقة الروح أقصى من ذلك، ولا غرْوَ فمثل تلك كالأصداف تكمن بها اللئالئ الحسان، ومثل هذه كالقبور المزينة المشيدة، همد تحت ترابها أموات لا يبدون ولا يعيدون، وإن الأسد المهيب ليسكن في عرين من قش، فلا ينقص ذلك من مهابته وشأنه شيئاً، وإن كلاب المنعمين لتفترش الحرير الوثير فلا يخرجها ذلك عن كلبيّتها، ولا يرتفع بها عن حدودها الدانية باعاً.

وغرفته في بيته، التي يستقبل فيها أحياناً من مسؤولي دولته المباركة، وأعز أضيافه من مجاهدي الإسلام في العالم وسواهم، أين منها قاعات الاستقبال وصالاته، وألوان التكلف فيها وحالاته؛ لطغاة الأرض وأذنابهم، والضالين المضلين وأزلامهم؟! غرفة لا تقع العين فيها على ما يسرها من مظاهر الطين غير أن القلب يرتع فيها في ربوع الحسن المبين، وجه للإمام أشرق يضيئها، وقلب عظيم له غمرها كما غمر قلوب المستضعفين كلها طيباً وأنساً وبهاء، على قدر ما غمر دنيا المستكبرين هولاً وشقاوةً وبلاءً. وبيته في طهران قبل جماران بعد بلوله من عارض الداء الذي ألم به فوجفت له القلوب، وذابت منه النفوس في نار القلق والخشية، كيف عضه فيه ناب الكراهية له والنفور منه لأنه بيت لا كما ألفه لسجية الزهد في سجاياه الكريمة مما يسكنه من البيوت، وإن كان من أوسط بيوت الناس، فلم يلبث في إلا

أياماً قضاها على ما يشبه اللظى يتمزز فيها صاب الأذى، ثم فارقه مفارقة أثلجت صدره، وكشفت عنه عناءه وعسره.

يزوره أحد محبيه، وترى زوج هذا المحب في طرف من البيت بعض ملابس الإمام قد طرحت جانباً تنتظر الغسل، وتجدها هذه المرأة سانح فرصة تتبرك وتثاب فيها بالقيام بذلك العمل، وتنالها مكرمة تتباهى بين أترابها، وحين تستأذن ربة البيت في ذلك؛ تجيبها: إنما تركنا ثياب الإمام دون غسل لأننا بعد لم نحصل على حصتنا من (مسحوق الغسيل) لنغسلها بها، وتقف هذه المرأة وقد أخذتها دهشة سرت في أنحائها تياراً صاعقاً، تتأمل هذا المشهد العلوي الغريب من مشاهد الزهد في حياة هذا الرجل العجيب.

حين ألمت بقلبه الكريم تلك النوبة النكراء في ذلك اليوم الأليم ـ فاضطربت الأرواح من هلع ومخافة، وأصميت الأفئدة برائش الذعر والخشية، وشخصت الأبصار إلى السماء، ومدت الأيدي إليها، ونحت النفوس شطر بارئها، دعاء وتوسلاً، وضراعةً ورجاء، أن يصون قلب الثورة العملاق، وأن يحفظ معين الدفء والرحمة، وأن يبقي منهل الهدى والرشاد ـ أصر الأطباء على أن ينقل الإمام بالطائرة من قم إلى طهران استعجالاً في وصوله إليها ليتم علاجه المطلوب فيها، لأن الأمر لا يحتمل الإبطاء، ولا يليق به الونى والتأخير، ولكن الإمام الزاهد يرفض ذلك ويأباه، ويصر على أن يركب السيارة كما يركبها أحد أبناء أمته عند شدته، حيث لا تتوفر الطائرة لفرد فيها في مثل هذه الأزمات، فلا ينبغي له أن يتميز عنها، أو يرى له لوناً من التفضيل في هذا الأمر عليها.

ولا يجد المسؤولون أزاء رفضه العنيد إلا أن ينقلوه في ذلك البرد الشديد، في (سيارة) قطعت قطعت به المسافة لسوء حال الطريق في خمس ساعات، هي خمس سنين في حساب المحبين، ويتأبى أن يؤتى له من أقطار الأرض بأطباء ذوي أفق عال في الفهم في مجال اختصاصهم، مصراً على أن يعالجه أطباء من أبناء أمته كما يعالج أي مريض سواه من أفرادها.

وهاتيك وهذه وصاياه كأنه يفرغ معانيها عن قلب أبيه المرتضى، يدعو رجال دولته الميامين، وأبناء امته العظيمة، وعلمائها الأبرار إلى رفض الدنيا رفضاً لا ينسيهم حظهم المشروع منها، وألا يتنافسوا في مطالبها الزائفة، وأن يتجنبوا التركاض طلباً لرغباتها الحائلة انخداعاً بزينتها وزخارفها، أو شغفاً ببهرجها وسفاسفها، فإنها ليست مطلب أصحاب الحلوم، ولا رغبة ذوي الأفهام الراجحة، ولا مهوى قلوب

المدركين لحقيقة الدنيا والمآل المحتوم، إنه يوصي علماء الأمة بالزهد لأنهم قادتها، وروادها، ومالكو أزمة قلوبها، والممسكون بأعنة نفوسها، تقتفي أثرهم، وتتأسى بهم، وتراقبهم في الصغيرة والكبيرة اقتداءً وتأسياً، فإن رأتهم قد كبرت الدنيا في أعينهم صغروا في عينها، وإن أبصرتهم قد حليت شؤونها في قلوبهم، أمروا في قلبها.

«**إن الأمة تتوقع أن تكونوا أيها المعممون مؤدبين بآداب الإسلام، أن تكونوا حزب الله، لا تهتمون ببهارج الدنيا وزخارفها فإذا رأت منكم الأمة خلاف ذلك، وأن همكم هو الدنيا والمصالح الشخصية، فإن الأمة ستنحرف، وتسيء الظن بكم وأنتم المسؤولون حينئذ عن ذلك كله**».

«**إن العالِم الذي يعتبر نفسه مرتبطاً بالله سبحانه ... الذي يتربى في مدرسة الإسلام وينهل من علومه؛ من المستحيل أن يكون هدفه وتوجهه هو الدنيا ومستهويات النفس**».

إنه يوصي العلماء (وهم أمناء الأمة وساستها الرساليون) بالزهد لأنهم في تركه، وفي الشره إلى هذه الدنيا؛ سيسخطون المستضعف المحروم (وهو جل هذه الأمة) وسيخسرون إعزازهم في النفوس والتسليم لهم، وفي ذلك ضياع وجودهم، وذهاب قضيتهم.

وهو يوصي مسؤولي دولته وجنوده بالزهد لأنهم مدبرو الأمور في هذه الدولة الغراء، ومنفذو القانون، ومالكو زمام التنفيذ والتطبيق، وإن ميلهم إلى الدنيا وظفرهم بالنصيب الوافر منها مظنة الريب والشبهة، ومسخطة الفقراء والمحرومين، وسبب الإعراض عن ولائهم عن ولائهم، والداعي للخروج عن طاعتهم، وعدم الانقياد لأوامرهم.

إنه يوصيهم بالزهد لأنهم المؤتمنون على مصالح الأمة، فإن لم يزهدوا اتهموا بالخيانة، وظنت بهم أمتهم الظنون، وتوجس قلبها أن يكونوا قد خانوها، وأكلوا من منافعها من وراء ظهرها.

وإنه ليوصي الأمة قاطبة بالزهد، لأنه سلاحها المجدي في حربها على الاستكبار الذي راح يغريها بالبهارج وسفاسف الدنيا، ويهددها بقطعها عنها أو تذل له وتستسلم لعرامة شهواتها فتبيعه وجودها وكرامتها بدنياً نمَّقها وروَّقها وزينها بالزخارف الخادعة، كما هو شأنه في هذه الأرض الفسيحة، مع من أنشب فيهم مخالبه، يغويهم ويضلهم ويفتنهم بالدنيا الغرور عن كرامتهم واستقلالهم وسيادتهم، وهو يوصي أمته هذه بالزهد لأنها بتحولها التاريخي الكبير، ودورها الرسالي الرائد؛ قد وضعت نفسها موضع

لا يستقيم لها فيه شأنها ويدوم دورها إلا بزهد كبير في الدنيا، وتعلق شديد بالآخرة، وإيمان راسخ بعقبى الجهاد الدائب، مقروناً بالمصابرة والتحمل، والعزوف عن مطالب الحياة المنعمة حيناً من الدهر حتى يكتب الله لها نصره الموعود، ويعطيها رغباتها السامية المنشودة.

وإنه ليوصي بكل ذلك نفسه بالزهادة حتى لكأنه يقول لها: (أأقنع منك يا نفس أن يقال لي قائد المستضعفين والمحرومين ثم يكون بيني وبينهم من حجاب النعمة الغامرة والتلذذ بمتاع الدنيا ما ينسيني إياهم، ولا يحسسني بآلامهم ومتاعبهم ومعاناتهم، أو يخرج بي عن حد الإنصاف والعدل في الضمير والوجدان، أو يعزب بي عن دائرة الإلزام لأئمة الحق أن يواسوا أنفسهم بأضعف الناس وأقلهم في ذات اليد؟).

التوكّل على الله

لله ما أعجب أمر الإمام في فضائله، وما أعجب سجية التوكل على الله في خصاله وشمائله، لقد اقترن بها واقترنت به اقتراناً عجاباً حارت له العقول، وخشعت له القلوب، اقتراناً فهَّمنا قبل أن نفهم مما نعلم حقيقة التوكل على الله، وبصَّرنا بالواقع الحي الأرفع قبل أن نبصر فيما نقرأ أو نسمع شأن الثقة بالله، والاعتماد عليه، وتوجيه الوجه في كل الأمور إليه.

إنه يرينا ـ وهو الوتر فلا شفع له مُثُلاً وخلالاً ـ في خصلة التوكل على الله؛ أولئك المتوكلين الصادقين (عمالقة التوكل) الذين وصلوا أنفسهم بالمشيئة المقتدرة الغالبة على أمرها، وشدوها إليها برباط التسليم لها، والثقة بها، والاتكال عليها، وإنها لوجوه النبيين والصديقين، ولقد يستبين لمن ينظر في توكل الإمام متدبراً، ويمعن فيه عين الفكر متبصراً، معنى الاعتقاد بالرحمن على وجهه الصحيح وما أروعه! وحقيقة اليقين وما أعظمها! يرى رسوخ الإيمان، وعمق الاصرة بالله، وشأن البصيرة والعرفان.

يرى عقيدة ملؤها اليقين لا تشوبها معه شائبة الريب، والعلم البالغ النافذ في قضية الباري لا تحجبها عنه السواتر والحجب، ويرى انشداداً إلى الإله العظيم أيسر وصفه أنه انشداد عجيب، انشداداً تلده البصيرة العالية، وينجبه العرفان؛ عرفان الحقيقة السامية، وهذا العرفان وتلك البصيرة نوران قد شعت بهما النفس الخمينية، وأضاءت لناظرها اللماح، الطريق إلى الحق الصراح، الحق كما هو لا تعتروه الظنون، ولا تبليه السنون، ولا تضعفه الشبهات، ولا تغيره الحالات، ثم جاء اللطف الغامر فزاد المعرفة وأعلاها وروقها وصفاها، وجلَّى عين البصيرة بنور وهدى يقذفهما في السريرة، وأذهب عنها يسير العشوة والقصور، وقليل العجز والفتور، فعادت نافذة لا يمنعها عن رؤية الشؤون العظمى مانع، ولا يزعها عن بلوغ القضية العليا بحقائقها وازع، ومن يدرك شأن الخالق العظيم، كيف لا يعشقه ويهواه ويهيم فيه ثم يهيم؟ وكيف لا يعتمده ويصمد إليه في شؤونه، وكيف لا ينشد نيل العون والفضل منه وحده؟ وكيف لا يتكل عليه اتكال المربوب على ربه، والمخلوق على خالقه، والعاجز الضعيف على القوي المقتدر، والفقير العاني على من يملك كل شيء، وبيده خزائن كل شيء، وبيده خزائن السموات والأرض؟

ولقد كنا نرى توكله عليه تحيات الله وبركاته ورضوانه فنحار وندهش، ويأخذنا آنات كثيرة ذهول آسر وعجب قاهر، نظن معهما الظنون جهلاً أو قلة إيمان بهذا الإمام الكبير، ثم ينكشف الواقع الناصع، وتشرق شمس الحقيقة في أفقه السامي تجلو ليالي جهلنا وضباب الضعف في إيماننا، لتستبين لألاءة ظاهرة الارتباط الفرد بين الإمام وربه، وتتبدى وهاجة حقيقة التوكل عليه، والتعلق به، وتفويض الأمور إليه، تلك الحقيقة التي يكون نصيب العجب بها اكبر من نصيب العجب منها، لها غرابة عند من لم يألفها أو يسمع بها، إذ يحسبها ضعفاً أو استسلاماً أمام مكاره الحياة وصعابها، والعقبات التي تقف دون المنشود الصعب، وتستراً على ذلك العجز بالثقة بالغيب، وانتظاراً لليسر والخلاص منه، غافلاً عن أن الإمام الظافر ثائر متوكل، وساع مستعين، ومجاهد مستنصر، يطلب النصر بأسباب الأرض، مستمداً اللطف والعناية من السماء، يقتحم لهوات الخطوب الجائحة بالعزم والاقتدار، مادّاً نظر القلب إلى سبحات الباري يسأله عونه وتسبيبه.

وإذا كان لا بد للمرء في حياته من عون يظاهره على أمور حياته، ويخفف من أثقالها وأوزارها عن ظهره، ويغيثه وقت الشدة، ويحضره عند النكبة، ويُنجدُهُ عند النازلة، فليكن لكل امرئ ما يختار من الأعوان لذلك، أما الخميني فليس عنده معين إلا ربه، لا يقصد عداه، فلا بِدْعَ أن يعتمده، ويكل أمره إليه حتى كأنه عيال عليه، ولا نكرَ أن يثق به ويولي عين الآمال شطره، وأن يدير لما خلاه من قوى الأرض ظهره، فأين الزيف من الحقيقة؟! وأين الوهن الناكس من القوة الخارقة؟! وأين ضعف المخلوق من قدرة الخالق؟ وأين إمداد العاجزين من إمداد رب العالمين؟!

نقل الخطوة الأولى على طريقه الدامي إلى غايته العظمى واثقاً بالله، متوكلاً عليه، مفوضاً أمره إليه، ثم راح يخوض غمرات الأهوال والكروب، وفظاعات الآلام والخطوب، تموج به أمواجها، وتعصف به رياحها الهوج، وتدمدم به رعودها الصارخة، وتقصده من خلفه ومن بين يديه وعن يمينه وعن شماله أفانين المحن والرزايا، فواجه ذلك كله بقلب أصلد من الصخر الجامس، وجنان أثبت من الرواسي الشامخات، ونفس أمضى عزيمة وأقوى شكيمة من أبطال الأساطير صنعة الخيال النافذ، لهيف القلب إلى ربه الكريم، يستعينه وهو مستثار العون في حازبات بلاياه، ويستدرُّه النصرة والتأييد في منكرات شدائده وعراماتها، ولا ناصر سواه، ولا معين غيره، حتى إذا رأى الله رسوخ الإيمان لدى عبده، وصدق توكله واعتماده عليه، وثبات قلبه على الاستمساك بحبله وعدم الميل إلى سواه، وهبة النصر الأغر كطلعة

الفجر، وفتح له الفتح المبين ضاحك الثغر، وضّاح الجبين، وغمره بفيض العناية والرعاية، يبل منه أوامه وصداه، ومد له يد اللطف يرفعه بها إلى ذرى مجده وعلاه، وحقق له من الأمر ما حارت به العقول، وعبث منه بالحلقوم فرط الذهول.

لقد كان بالغ عزمه من بالغ توكله، لأنه قد لجأ إلى الركن الوثيقة، ولاذ بالمشيئة الغالبة. وكان جسيم قدرته، وعجيب صولته من فائق ثقته بالله، وراسخ اعتقاده بعاقبة من يتوكلون عليه، ويلجأون إليه يستمدونه العون والنصرة، ومن أعظم من الله عوناً لمن يستعينونه؟! ومن أصدق منه نصرة لمن يستنصرونه؟! وما العون والنصر الحقيقيان إلا منه وحده، وما التأييد والإمداد الصادقان إلا شأنه.

وتلك فيما خلا، وهذه اليوم وصاياه بالتوكل على الله تحكي صدق ما قلناه، وتكشف وجه الصواب فيما أسلفناه، فترى الإمام فيها سيد المتوكلين في هذا الزمان، أرفعهم اعتقاداً بالقدرة الأزلية، وأقواهم ارتباطاً بها، وانشداداً إليها، وأكثرهم اعتماداً عليها وثقة بها، وأشدهم إخلاصاً وصدقاً في اللهوف إليها والتعلق بأذيالها، لهوفاً وتعلقاً لا تشوبهما شائبة، ولا تعيبهما عائبة، ولا يمازجهما ريب، ولا يخالطهما ضعف، مهما تمادت بهما الأيام، أو أبطأ عليهما محبوبهما، أو رأيا المنكر من مكروههما، أو تدجَّت عليهما دياجير العناء، وأحاطت بهما أمواج البلاء، حيث تكون النفوس القويمة الباسلة على شفير التزلزل ولربما تزلزلت، وتكون المواقف الصلبة للثائرين بعناد؛ قاب قوسين أو أدنى من اللين أو الذوبان ولربما حل بها ذلك، ولكنها النفس الخمينية الجبارة الموصولة بالجبروت، أعيت على الخَوَرِ، ولكنها المواقف الخمينية العنيدة الراسخة المشدودة إلى ثبات السماء ورسوخها؛تأبى على طور الامتناع أن تذوب أو تلين.

* * *

الحِلم

عجيب أمر هذا الهاشمي الفذ، سليل من تمَّم مكارم الخلاق، وبث أنوارها في الأرض المدلهمة بظلمات الرذائل، في أخلاقه وخصاله، وما أعلى مقامه في عالم الفضيلة، وما أرفع شأنه في رحاب المكرمات، له خلالٌ لو تمثّلْنَّ جسداً حسياً لكُنَّ شموساً وهاجة، وله شمائل لو أنها تجسمت خلقاً مادياً لكانت أنواراً خلابة يخطف الأبصار ضوئها، ما أعجب أمر هذا الرجل من سلالة الطيبين وثمالة الماضين، والبقية الطاهرة للهداة الميامين، وهو يصنع الملاحم العجاب في النفس والواقع، خلائق النبيين وأفعال الصديقين، ما أعجبه وهو يطلع بهنَّ من أفق العظمة الشخصية في الدنيا المعتكرة الخابطة في دياجير الفساد الخلقي منيرات زاهيات بدور الفضائل وبدور العمل، ما أعجبه وهو يتلوهن على مسامع الدهر الضليل ليخشع لهن منقاداً مسحوراً، آيات بينات تنزلن من علياء الخليقة المطوية والبادية، الفعل الظاهر الجاهز.

خذ إليك من شمائله (الحلْم) خير سمات العظماء ذوي القلوب الكبيرة والحلوم العالية، فإنك ستجد الحلم في دنيا الإمام أمراً عميقاً معناه، بعيداً مداه، عزَّ على فطن النابهين بلوغ ذراه تجد الحلم في حياته الزكية شمساً مشرقة بهية تزيدها إشراقاً وسناء، وتغمرها حسناً وبهاء.

لقد قرن الإمام نفسه بالحلم مذ عرف أن الله يحبه ويرضاه ويرتضي أهله، وأنه سجية من سجايا النفوس الرفيعة، وأن سياسة الناس والقيام بأمورهم الثقال لا تستقيم بدونه، فما زال والحلم صاحبين لا يفترقان، وقرينين لا ينفصلان، قد ربطت بينهما آصرتان، آصرة النفس العلية التي لا ترضى غير الفضائل والمحامد والخلال العظيمة، وآصرة الحسن والسمو والخير في تلك الصفة المرضية؛ تحبِّبها إلى نفس الإمام وتُدنيها منها، بل تحُحِلها منها محل الشُّغاف من القلب، أو تضعها موضع القلب من البدن، إما أن يبقيا سواء، وإما أن يفترقا معاً، لا يغدر أحدها الآخر قالياً، بل ولا ساهياً، وكذلك هي الخِلال العالية إذا أضحت للنفس السامية عطراً تأرج به، وجلباباً ترتديه، ونهجاً تقتفي فيه أثر النفوس المطهرة المعصومة.

تلك هي عصبة الظلم والإرهاب (الساواك) التي رزح شعب إيران تحت كلاكلها الثقيلة أمداً من الدهر... رأى فيها فظاعات الأحوال، وفدائح المحن، وفواقر الخطوب، وغرائب شؤون التنكيل، ابتدعها فكر شيطان للأسياد الظالمين، وتحركت لها جوارح الأذناب الأذلاء طاعة ومخافة، فكم من فقيد احتبلته أشراكها، وغاب في أطوائها فلا أثر له! وكم من زكي طاهر امتدت إليه يدها الغليظة فسطعت به وغيبت وجهه المشرق عن وجه الدنيا! وكم من رهينة عذاب كانت تتجرع صابه الأليم ألواناً وأفانين، وحبيس أطواق يعاني فيها ما يعاني، وثكلان هارب حيران في البلدان يطلب النجاة ضالة وقد لا يلفيها! وكم من حرة كريمة أعلقتها حبالة البغي ففعلت بها ما فعلت! وكم من ثائر وطالب حق ـ علوي وغير علوي ـ قد ارتهنته عرامة الجور، وأدمت معصميه الأصفاد، فهم بين قتيل وسجين وشريد وطريد! كل تلك الأمور كانت جرائم (الساواك) وبغيهم وعدوانهم، فكيف كان فعل الخميني بهم بعد أن ظفر بهم؟ وكيف عاملهم على ما جنت أيديهم بعد أن أمكنه الله منهم؟ وهو لا ينسى ما فعلوا به نفسه، وما اجترحوه من الظلم الفادح، ولا يغيب عن باله أن منشوده العظيم قد حالت بينه وبين الواقع أمداً طويلاً تلك العصبة الجائرة ذات الفظائع والمنكرات، ولقد ختلته عن أمره، وحالت جهدها دونه.

لقد أخذ الإمام من نالته يده منهم من كبرائهم، ومن تلطخت يداه بدماء الأبرياء فاقتص منه وأقام حكم الله فيه، ثم قال للباقين قولة جده المصطفى على ثرى المسجد الحرام بعد الفتح المبين لمن ظلموه وحرموه وناوءوه، وفعلوا به وبأصحابه الأفاعيل «اذهبوا فانتم الطلقاء». فشمل (الساواك) حلم الإمام الواسع، وعمهم عفوه الكبير، وباتوا أسرى نعمة كبرى وفضل جسيم ممن لم ير منهم غير المكر والبلاء والعناء، ثم راح يوصي أمته المفجوعة ببأس (الساواك) وبغيهم أن لا يجرها الغضب والانفعال إلى الخروج عن حدود الله معهم كما فعلوا، وألا تقسوا عليهم كما قسوا عليها، وأن تحلم عنهم، وتستر عليهم، وتفيض عليهم من سحائب رأفتها ورحمتها شآبيب الفضل والإحسان.

وإني لأتمثله وقد وقف أزاء هذه الثلة الظالمة بعد النصر والظفر ليقول لها: « **أنسيت أيها العصابة النابية الخؤون إذ طلعتُ عليك بالهدى والرشاد أريد صلاح الأمة وهناءها، وعزَّ البلاد واستقلالها، وأريد لك الأوبة عن طريق الغي والبغي، والرجوع عن مسلك الفساد والإفساد، فإذا أنتِ على سجية أميركا ودأبها وطوع رأيها، ورهن إشارتها، هدرتِ كالبركان، وزعقتِ**

كالقاصف؛ واندفعت صوبي وصوب الأمة من حولي بكل بأس الغلظة والشراسة، وأنا لم أطرق بابك بسوء، ولم آتك بنية الشر والعدوان، بل جئتك رحمة وحناناً وإحساناً! أنسيت كيف قمتِ في وجهي زاجرة شامتة، فمحاصرة مجعجعة، فمعتقلة حابسة، فإذا أنا بين جهالك وضُلّالِك تتعاورني أيدي المساءة منهم، وتتقاذفني أمواج التبريح من سُبابهم وبذاءتهم، ليقوموا بعد ذلك بالجرم الأنكى فيفصلوا ـ بزعمهم ـ بيني وبين أمتي، ويحولوا ـ كما يأملون ـ دون إتمام رسالتي، فيبعدوني عن بلادي إلى ديار الغربة والوحدة حيث المحنة والشدة، ها أنا ذا اليوم مقبل عليكِ منتصراً بفضل ربي، ولكن هذه الصفحة التي أتلو على مسمعك من سطورها بعض ما كان منكِ ليس لها في قلبي إلا مكان الإشفاق والرأفة، لا الغيظ والنقمة، فأنت جاهلة غافلة مضلَّلة، جهلت الحق، وغفلت عن الصواب، وأضلكِ المجرمون، فلست الساعة بسيف الثأر قصدتكِ، ولا بمرهف التشفي أتيتكِ، إنما جئتكِ ببالغ اللين والرحمة، أريد أن أجزي الإساءة بالإحسان، وأرد الأذى بالإنعام، لتعلّمي أني لا يزيدني صرف العمى والبغي إلا رحمة وإحسانا، ولا يزيدني كرب الغي والجور (ينالان مني) إلا عزماً وعنفواناً».

وأولئك الذين خدموا الشاه، ودخلوا مؤسساته دخول الموالين المعاضدين قد ولهت عليه أنفسهم، أو الراضين المستبشرين، أو الساكنين غير الساخطين، ماذا فعل بهم قائد الثورة بعد أن دكت ثورته العاصفة حصون الضلال وقلاعه، وأورث الله الصالحين إيران، واستخلفهم عليها، ومكن لهم فيها؟ إنه لم يبطش ولم ينكل بهم، ولم ينتقم منهم ما فعلوه في سوالف أيامهم، فما سامهم خسفاً، ولا ساقهم عنفاً، ولا شفى من دمائهم بواتره، ولا ملأ بهم سجونه، لقد صفح عنهم حتى كأنه نسي سوءهم، وعفا عنهم عفواً أحس له الكثير منهم عظم العفو على منكر الذنب وفادح الخطأ، وودوا تمهلهم الأيام حتى يخدموا في شؤون هذه الجمهورية ليكفروا عما سلف، ويغسلوا عار الماضي بشرف السعي للإسلام، ويمحوا بضياء فعل الصالحات ظلماء القبائح والآثام التي أتوها، ويذهبوا بالحسنات تلكم السيئات.

وحين ارتفعت العقائر من هنا وهناك تدعو إلى طرد عمال الحكم الذاهب من مرافق هذا الحكم الميمون لأنهم أرجاس ظالمون، لم يكن لهم في هذه الثورة مكان، ولا في نصرتها سلطان، بل كانوا

لعدوها خادمين، وفي مكروهها ساعين، ارتفع صوت الإمام الحليم ألا يُطرد من عمله إلا من يده في الدماء، أو أعان الظالمين في ظلمهم، أما سواهم فيبقون حيث هم غير مضارين، ولا مقصرين، ولا متخذي سبيل الكيد، ولا ساعين في الخراب.

بل إن حلم الإمام ليتعدى أطواره هذه إلى طور عجيب، ملأ القلوب دهشة، وأبدى للدنيا وجهاً من الحلم كانت تقصه علينا أخبار التاريخ الغابر من شؤون النبيين والصديقين وأحوالهم، إنه الحلم عن ألد أعدائهم وأضرى الوحوش الكاسرة التي نهشت في لحومهم، وكرعت في دمائهم، حلم النبيصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ عن أبي سفيان ووجوه الشرك والطلقاء أجمعين، وحلم عليٍّعَلَيْهِالسَّلَامُ عن أكابر الناكثين وسواهم.

ولقد حلم الإمام وعفا لدواعي حلمه وسياسته وصالح بلاده ودينه؛ عن وكر الفساد وأيدي الشيطان، والعقل المدبر للظلم والطغيان في إيران، رهائن السفارة التي كانت كاهل البغي وسنامه، ودليله وإمامه، تشير به فتسمع، وتأمر به فتطاع، لقد دمدمت عليهم الأمة المظلومة فدخلت عليهم عقر دارهم ومستقرهم في أرضها، وهمت أن تسطو بهم بغيظ مائر وسخط ثائر، لكن إمامهم الحليم الحكيم قد اتسع صدره حتى كأنه أوسع من الدنيا، وتعاظم حلمه حتى كأنه لا يملك النقمة، وتعالى عفوه حتى كأنه لا يعرف العقاب. ويؤوب الظالمون إلى بلادهم لم يصابوا بأذى، ولم يتعرضوا لمكروه، بل إنهم لم يرو ا غير الإنعام والإحسان اللذين أسَرَا في الكثير منهم قلوبهم وضمائرهم فراحوا يلهجون بذكر الفضل عليهم، والإحسان إليهم، على عظيم جرمهم وكبير سوئهم، لينوِّهوا ـ وهم يشعرون أو لا يشعرون ـ بعظمة الإسلام، وعلوِّ أخلاقه وشمائله، وبجلال قدر الإمام في محامده وفضائله.

ومثل هذا وأكبر منه كان من إمام الحلم مع من شنوا عليه الغارة الرعناء، وصالوا عليه صولة الوحش الكاسر، وداسوا الكثير من مصالح بلاده وحرماتها دوس الحصيد، وانتهكوا الأعراض، وقتلوا الأبرياء، وخربوا العمران، وهدموا بيوت الله لا يريدون ـ أو يريد منهم أسيادهم ـ غير الإسلام أن يبيروه، وغير الحق أن يطمسوه، وغير نور القرآن المتشعشع أن يطفئوه، وغير حكم الإسلام أن يمحوه ويزيلوه، قد استخفتهم جاهلية العصر فهجموا على جمهورية الإسلام الفتية اليافعة، وجسدوا في ذلك تاريخاً كاملاً من الظلم والجور والعدوان، حتى إذا شدت عليهم أمة الحق شدة الهِزْبر على

الحمر فأبسل من أبسل شقياً، وفر من فر مخزياً، ووقع في الأسر من وقع رضياً، لم يكن جزاء هؤلاء من الإمام إلا أن يريهم حلم الإسلام ورحمته، ولم يقابلوا بغير الصفح والستر، يعرفهم كرم الإيمان ورأفته، بل تمادى ذلك الحلم في السعة حتى صار المحاربون المتجاوزون عند الإمام ضيوفاً وأحباباً، مترفعاً بهم حتى عن تسمية (الأسرى).

ثم هلم الخطب في المنافقين أصحاب القلوب الدوية والنفوس الغوية، أشرار الخلق وأوباشهم، ماذا صنعوا؟ وبأي وجه طلعوا؟ لقد أتو بهم بائقات ظاهرات، وحازبات فاقرات، شنّوها بين الأحناء حرباً ضروساً على الإسلام وهو قد شغل وتوزعت فكَره وقدرتَه الحروب الضاريات شُنت عليه من كل صوب؛ حرب السيف وحرب المقاطعة، وكانت قبل هذين وبعدهما سجالاً حرب الإعلام الظلوم، يحرف الكلم عن مواضعه، ويقبح المحامد الحسان، ويبهت أكبر البهتان.

في هذه المعمعة الثائرة قان المنافقون ليعلنوها حرباً أخرى ليس من نكر القول أن يقال فيها إنها الحرب الأضرى، والفتكة الأنكى، لو بلغت حيث تريد لأصابت المقتل، ووجدت ضالتها.

وحين تؤدي الأمة المجاهدة دورها ووضيفتها، وتصد هذه الحرب الغاشمة صدّاً مقتدراً بالوعي والصبر والمراقبة والحذر، حتى تقشعت سحبها الدكن، وتكشفت لياليها السود، ودارت دائرة السوء على الذين ظلموا، فهم بين هالك مثبور ومستسلم مأسور، وخانس مجحور، يطلع وجه الحلم الخميني ليهشَّ لهؤلاء المارقين، ويبسم في وجوههم بسمة العفو والصفح، يدعوهم إلى الاستقامة والرشاد، والنأي عن دروب الفساد والإفساد، والأوبة إلى أفياء الدين الفيح، وعودة الهاربين إلى ربوع بلادهم الزهر صادقين في أوبتهم، مخلصين في عودتهم، بعد أن أحسوا بأس المروق وغمه، وذاقوا مرارة الخروج على الإسلام والأمة.

في موضع النكال كان منه الغفر والستر، وفي موضع العقوبة كان منه المنُّ والإحسان، وفي موضع الأخذ بالعدل كان منه المعاملة بالفضل، وكان أكبر امتنانه أن صيَّر لهم السجن والقيد مدرسة للحرية، وفجر لهم ينبوعاً من الوعي يَردُون عليه مغفلين مضللين ليصدروا منه واعين مدركين، وقد عرفوا الحقيقة وهم إليها ظماء، وأبصروا نور الواقع الذي غاب عن عيون بصائرهم وراء ظلمات التجهيل والتضليل، وكثافات الشبهات والافتراءات.

ثم إليك هذا الذي من بني (صدر) وفتنته الشوهاء، وظلمته العمياء، التي عشا بعضٌ عن البصر فيها، فضل سواء السبيل بادي النظر وأول الأمر.

لقد كانت المحنة بذاك الشقي الغوي محنة تنوء بحملها الجبال، وكانت فتنته الخرقاء أشد على القلوب من وقع النصال، حيث مقامه في الدولة، ونفوذه بين رجالها، وتقلده لزمام خطير فيها، وما عنده من طاقة الكذب والبهتان، وما في وسعه من قدرة التحايل والخداع، فلا وازع عن التقوى يزعه من الآثام، ولا رادع من الورع يردعه عن اقتراف المنكرات، ولا حاجز من حب الدين أو الوطن يحجزه عن أن يقصدهما بالبوائق، وكانت شؤون وشؤون تمنع من فضحه بادئ ذي بدء، وتلزم السكوت على أمره وهو الذي خان البلاد، فمكن منها أعدائها، وأعان على اغتصابها وبقاء الغاصبين على ترابها، وخان الأمة، فراح يكيد لها ليعيدها المقيتة التي اشترت الخلاص منها بنهر من الدماء من مهج أبنائها الأزكياء، وولَّى جاهداً يبث الفتن، وينشر الأحابيل، ويؤلب الأغرار، ويحرك الأشرار، ولا ينفكُّ هو في كل محفل ينفث سمَّ الزعاف، فيخلق الحوادث النكر، ويأتي بالبلاء يتبعه البلاء، هذا والخطب متلاطمة أواذيه، عاصفة رياحه، والمحنة الكبرى محنة الحرب صخّاب موجها، هدّار تيَّارها، ولمَّا تزل بعد في فورتها وحدَّتها، الأرض محتلة مهتضمة، ونار العادين المغرورين بالنصر الزائف تصب على أطراف البلاد الغربية والجنوبية، وقذائفهم وصواريخهم تخرب البيوت على أصحابها.

ولقد كانت فرصة ألفاها (بني صدر) سانحة لئن فاتته فقد فاته مرامه الذي ينشده، ومحبوبه الذي يبتغيه.

وكان الإمام على كل حال هذه الأحوال مع ذلك الشقي الأثيم يفيض حلماً وسماحة، فلم يفضحه بل ستر عليه وأمر بذلك، وصفح عنه وأوصى بالحسنى معه، عساه يعود إلى الصواب ويرجع عن غيه، فما زال الطريق إلى ذلك مشرعة، والباب مفتوحة حتى إذا طفح الكيل، وبلغ السيل الزبى، نفَّذ الإمام الحازم وعده بقطع الأيدي التي تمتد بالسوء إلى حريم الإسلام تريد النيل منه أي نيل، ولم يعد في الصدر الخميني متسع لعبث العابث وكيد الكائد وغدر الخائن.

ولا يذهبن عنك حلمه المشوب بالحكمة في قضية (فلان) مع قطب زاده وشركائه في المكر لغيز في نفسه قديم، وحسد فيقلبه جسيم، يؤزَّانه أزَّاً إلى الكيد بالإمام، ويحضَّانه حضَّاً على الإيقاع بالسيد

المطاع، لكنه وقع في البئر التي احتفر، وحاق به مكر السيئ، فافتضح على رؤوس الأشهاد، فنقم عليه الأقرب، وكره الأبعد، ونفر منه السواد الأعظم، ولكن ماذا فعل الإمام به جزاءً، وكيف عامله على ما بدر منه؟

لقد كان له ـ على شانه ـ سعة صدر كالفضاء العريض تصبح فيها الجرائم العظام هفوات صغيرة تُغتَفَر، وتكون عندها الخطايا الكبيرة هنات يسيرة تنسى وتستر، ويأمر الإمام أمته أن لا تسفه فلاناً بعد ذلك اليوم، ولا تشهر به.

هذا وغيره كثير من شؤون الحلم عند الإمام ذكرناه شاهداً لا استقصاءً، وآيةً لا إحصاء، كشأننا في كل مُثُلِهِ التي تعرضنا ونتعرض لها، فأخلاقه وسجاياه بحر واسع جمة لئالئه لا تحصى، كثيرة بركاته ومنافعه لا يحاط بها، ثم هو بعدُ بعيدُ الغور لا يدرك، واسع المدى لا يرى له ساحل، خِضمٌّ متلاطم لا يسهل الخوض فيه.

الشجاعة والإقدام

ماذا عسى أن اليراع الضاوي الكليل أن يبديَ أو أن يقول في بضعة المصطفى وحفيد المرتضى في مزية الشجاعة والإقدام التي ورثها ـ وهو أحق بها ـ كاملة غير منقوصة، فعاد بها الهمام المقدام، والبطل الضرغام، صاحب القلب الصليب، والعزم العجيب، لا يجارى في بطولته ورجولته، ولا يبارى في جرأته وحماسته، ولا تُحافل آثار بسالته المعهودة، ولا يُساجَل خضمٌ شجاعته المشهودة، قد طلع على دنيا اليوم فحيرها، رجلاً لم تبصر له مثيلاً فيما ترى أو تسمع فيما بين يديها ومن حولها، قد لبس الشجاعة ثوباً زيّنه وزيّنه، واكتسى البسالة بُرداً أخذ سحرُه مأخذه من نفوس الناس وعقولهم، وانتضى الحماسة سيفاً مرهفاً كحدِّ الموت يخلع القلوب الشداد، فأتى بها ألواناً قد استعصت على الخيال قبل اليوم من فنون الجرأة والإقدام، وكحَّل ناظِرَي المجد والعلاء بمرود العزيمة والمضاء أمثال هذا الأمر الفريد قد تربوا على الحصر والتحديد، وشواهده الغر الحسان تفوق التعداد والتبيان، وإذا كان لبعضها قدرة الدلالة على حقيقة الكثير الوفير منه، فليكن لهذا الذي نذكره هنا تلك القدرة تغنينا عن العناء في العد والإحصاء، والنصب في الاستغراق والاستقصاء، فذلك أمرٌ عياء عسير، لا تقوم به العصبة ألو القوة والتدبير في عالم الفكر الرصين، والنظر المتين.

ذاك هو الإمام الهمام في الفتنة المرجفة، وظلماتها المغدقة، والبلاء المستطير وفظاعات الشرور أيام كانت أميركا كالوحش الكاسر تنهش اللحم، وتهلس العظم، وتتخذ من إيران مباءة تفعل فيها ما تشاء، ومرتعاً تأكل فيه حيث تريد، لا يناصبها العداء إلا من لا يبتغي سلامته، ولا يناوئها إلا من يعرّض للسيف هامته، في محنة فقماء عمياء، سكت فيها قوم طلباً للراحة والسلامة، وسكن إليها ضُلّالاً قوم آخرون فزاغوا بعد الاستقامة، وخمدت فيها الأنفاس ما خلا أنفاس الأكياس، احتراساً وخوفاً، أو وهناً وضعفاً.

ودوَّى في هذا الصمت والسكوت صوت جاهر مبين، هو صوت الخميني كالرعد القاصف، وثار فيها بأسه كالريح العاصف، وطلع على الباطل المكين، بوجه أغلظ من وجه المنون، يحرك الهمم الوانية، ويستثير العزائم الدانية، بل يبعث روح الحياة في أسارى الخوف كالأموات، ويستنهض أمة

الإسلام إلى الوثبة والقيام، يناشدها ملتاع الفؤاد صون الأمانة العظمى، والجهاد لحفظها وذلك هو الجهاد الأسمى.

فمن كان أقدر من الخميني على إطلاق تلك الصرخة؟ ومن كان غيره أجدر بأن يهدر بذلك النداء الأقدس؟ ومن سواه قام ممتشقاً حسام البأس يريد درء الضَّلال ورد الباطل وصد العدوان، ليستبدل ذلك بالهدى والحق والعدل، وينشر على أمته المُهانةِ المضامة لواء العزة والكرامة، ويبثَّ في أحنائها حلاوة العيش الرغيد، في رحاب الإسلام ذلك النهج الفريد؟

مَن كان عداه يهتف بسقوط التيجان المتجبرة، وتهاوي العروش الطاغية، وانهدام الصروح المزيفة على أهلها؟ ومَن كان غيره يصدح بالنداء الحق حيث استشرى الباطل، قد عبا سلاحه المهول، وأحمى مياسم العلاج المخوف، قد فتح أبواب السجون تضم بين أحنائها رجال الحق، تقتل من تقتل، وتستحيي من تستحيي، وأطلق عنان النار تفعل في الأمة فعلها في الهشيم، وبثَّ الرعب في الأجواء، نشر الهول في الأرجاء؟

لقد كان هو، ولم يكن غيره، وإنه لروح الله، بأس من الله يهد حصون الشر وأركانه، وحول يدك صروح البغي وأوثانه، لا يساوره خوف يرده عن مطلوبه، ولا يخامره وجل يصده عن مرغوبه، ولا تغْلقُ قلبه الصلد الجسور حبالة الخشية فيضعف أو يخور، ولا تحتبل عزمه أوهاق الرهبة فينحني، وليس في وسعها إذا همت به أن تلويه فينثني، ولقد كانت الشجاعة أحد موروثاته من آبائه العظامو وإحدى عطاياهم له عبر الأصلاب والأرحام، فله منهم سجية ألا يخاف طاغوتاً، بل يخافه الطاغوت، وله منهم خصلة ألا يعبأ لأجل الحق بالأهوال، ولا يلين له عزم مهما ساءت به الحال، وثبته الصارمة لا تتوقف، وعزمته الدافقة لا تنضب، وصرخته الهادرة لا تخفت.

ذاك هو في (باريس) بعد أن حارت به الدروب، ورفض طغاة بغداد، معاضدةً للشاه وإسناداً له ـ أن يبقى الإمام في مهجره (النجف) يقود ثورته ويؤدي رسالته، ثم جاء رفض الكويت على خطى رفض حكام العراق ولغايته، وحين لم يجد غير باريس لم تقف به الخشية دون ورودها ومواصلة الجهاد من على ثراها وهي أخت الأم التي أنجبت الشاه، وملكته سياسة وجبروتاً واستعماراً، لا يميزها عن أميركا شيء في الأمر إلا أن هذه ذات اليد الطولى في إيران وتلك في غيرها، قد اتحدا مسيراً ونهجاً، وتماثلا غاية ومقصداً، فكيف يأمن الثائر الذي عيَّتْ أميركا بالمداواة من دائه العضال

الذي استغلق قلبها، وأمكن له فريسة هينة ـ أن يدخل ديار الغرب يقود الثورة ضده ليسقط تاجه الذي نصبه في بلاده، ويحطم عرشه الذي صنعه له، ويهزم أذنابه وعملاءه الذين مكنهم من زمام الأمور فيها ـ كيف لا يخاف وهو يثوي على أرض فرنسا من كيد أختها أميركا، وليس قتله أو إخفاءه إلا أيسر شيء تكيد به مثله من أعدائها، وتنجو به من بلاء مثله من خصمائها، ويأبى الباسل المقدام أن يخضع للهاجس المريب، أو يستجيب لنداء المخاوف، أو يسمع لداعي الحيرة والتردد، بل مضى هماماً جلداً فوطأ هام الغرب بقدمه كما وطأها قبل ذلك بثورته، وقاد النصر عليه من على ثراه، غير هياب، ولا خائف، ولا مستعطف، ولا متملق.

ويكفيك من أمر الشجاعة والإقدام عند الإمام ذلك الأمر الذي كلّت عن أن تلم به كثير من العقول، وسجدت له في محراب الإجلال والإكبار خاشعة قلوب الملايين من كل صوب والهة ضارعة، بل لقد عشناه حقيقة هي أدنى إلى الخيال والأوهام، ولمسناها لمساً متجسدة في الواقع قضية هي اقرب إلى شؤون الأحلام، تلك القضية العجاب، آسرة الألباب، قضية الطائرة تنقل الثائر العلوي على متون الأهوال والمخاطر كسفينة تمخر عباب اللُّج الهادر، تنتابها الأعاصير فتتقاذفها الأمواج، هكذا هي كما ينبغي لها في الفكر والشعور عند من يركبها ليغزو ـ أعزل ـ عقر دار العدو الأشر المتربص العاض على ناجذه تغيظاً وتأهباً، عبر طريق في الفضاء طويل طويل، تقوم من تحته بلدان يحكمها مغيظون حانقون لما حلَّ بالمأمور ورفيق الدرب (الشاه) وأخرى خائفة فزعة لما يتفجر في إيران من ثورة الإيمان، وليس شيء أسهل عليها من قذيفة تطلقها لتنتهي مأساة الغرب التي لم يلف لها نظيراً طيلة عمره، وتغرب محنة الاستعمار التي ما عرف مثلها سحابة دهره.

ويركب الإمام تلك الطائرة من باريس مولِّياً صوب إيران الثائرة، لم تعرف الخشية إلى قلبه سبيلاً، ولا أخذ من نفسه الخوف مأخذاً يهد قواه، أو يَحني عزيمته، لقد كان صلداً لا يستفل كأنه قد قُدَّ من جبل، راسخ العزم كأنه الطود الأشم، ويمضي وقته في الطائرة كأي وقت يقضيه في حال من أحواله المألوفة عنده، متحدثاً باسماً وادعاً على هدوء كامل، وسكينة شاملة، وأعجب ما في أمره ثمة إخلاده إلى النوم مع ما يحتاجه مَنْ يطلب الرقاد أو يطلبه الرقَّاد من فراغ البال من الهواجس والهموم، وخلاص القلب مما يغيِّر صفوه من المكدرات.

وتروح صفحات الليل تنطوي، وأشلاؤه يمزِّعها تقضِّي أوانها فتهوى تباعاً، والمسلمون في كل مكان والمؤمنون الثائرون في إيران، على مثل هذه المراجل، يسعِّرها حال المشهد (قائد الثورة) في الطائرة إلى بلاده؛ تحفها المكاره، وتحيط بها المخاطر، ويؤجج نار الخوف في أحشائهم ما يأتي به الغد إذا حل الإمام أرضه، واحتضنه شعبه، والباطل ما فتئ ملقياً جرانه، مسعِّراً نيرانه، فتروح بواطنهم نهباً لسلطان الرهبة والترقب لما يرون من الأمر الجسيم، فلا يقرون على دعة، ولا يفيئون إلى قرار، وإن عندهم لَفورةً ثاقبة ليس لها خمود، وإن فيهم لعاصفاً شديداً ليس له همود، لا يسكن معهما أحد منهم إلى نوم، وإن فعل فَلِماماًمفزعاً مُنصِباً.

وينزل الإمام من طائرة العودة في طهران ثابت القدم، عالي الهام، مطمئن القلب، رابط الجأش، على شجاعته التي حالفته قريناً لا تفارقه حتى في عظائم الأمور، ورفيقاً لا تفصل بينها وبينه كبائر الشؤون أو اختلاف الأحوال.

قال بعض رفقائه في النجف: حينما صرنا نضن بسلامة الإمام، ونحرص عليها، ونحوطه حراسة له في مجيئه ورواحه، ونشدد في ذلك حينما يذهب لزيارة أمير المؤمنين، ذلك بعد أن أتتنا الأنباء بأن الشاه قد بعث من أجرائه من يجهد في قتله، وحين أبصر منا هو ذلك عنَّفنا آبياً إلا أن يسير وحده ليعبر بذلك عن معان ثلاثة:

أولها: الشجاعة والبسالة تجعلانه يستصغر الظالم وكيده.

وثانيها: أنه على بينةٍ من أمره وبصيرة من ربه يصيِّرانه على ثقة بالسلامة، ويقين بالحفظ والتسديد حتى يُتمَّ الله له أمره.

وثالثهما: أنه لا يريد أن يفصَلَ عن أمته حتى بحاجز الحماية، أو أن يفرِّق بينه وبينها بأطواق الحفظ والحراسة في غير ما داعٍ معقول إليهما، وكان يقول لمن يجهدون في إبعاد الناس المحتشدين عليه شوقاً ولهفة حرصاً منهم على سلامته، «لا تؤذوا الناس، دعوهم وشأنهم، كي لا يحدث لا سمح الله ما يسيء إليهم».

وليكن ختام هذا الفصل تلك الكلمة الرائعة لآية الله الطالقاني(رحمه الله) يعبر فيها ـ أصدق التعبير، وأوجزه لفظاً، وأوسعه معنىً ـ عن حقيقة هذا الجانب في صفات الإمام ومحامده، إنه يقول:

«كلما أحسست بالضعف وفتور العزيمة ذهبت إلى قم لأستلهم البأس والقدرة من قائد الثورة».

الرفض والإباء

لعل أروع ما ورثه الإمام من جده السبط صريع كربلاء، سجية الرفض والإباء، سجية قد سرت مع دمه في عروقه فنهلت منه أنحاؤه، ونمت عليها أعضاءه، ونبت عليها لحمه، فه وذلك الأبيُّ الذي لا يعنو للذل، ولا يرضى بالضيم، حسيني النداء (هيهات منا الذلة)، وهو ذلك الرافض لكل أنواع الظلم والباطل، المنادي بأعلى صوته: «تباً للطواغيت وجاهلياتهم، وتعساً للجبابرة وضلالاتهم، وبؤساً لمن رضى بالمذلة والهوان، وركن إلى الطاغوت أو استكان».

لقد تجسدت حياة الإمام رفضاً وإباء، وما عتمت أبية رافضة، أبى التسليم والخنوع، وترفض كل تبعية وخضوع، تأبى تسلط الكافرين على مقدرات المسلمين، وتأبى أن تكون بلادهم مباءة لشهوات الظالمين، تأبى أن يتنعم بخيرات بلاد الإسلام أعداؤه، وترفض أن يعيش جياعاً محرومين أبناؤه، تأبى أن يتفرق المسلمون أيادي سبأ ممزقين متناحرين، وترفض أن يكون زمام ملايينهم بأيدي نَفَر جناة معدودين، تأبى أن تذلَّ (إسرائيل) أمة القرآن فتقهرها، وتجني فيها أبشع الجنايات، وترفض أن يسكت المسلمون عن عدوهم المشين بالركون إلى حكام العمالات، تأبى أن تظل (القدس) مسرى الرسول تستصرخ الهامدين: هل من سبيل للخلاص من دنس الأرجاس الطغاة؟ وترفض أن تئن جريحة أولى القبلتين تحت سياط اليهود الجفاة، تأبى أن تعيش أمة الإسلام في إيران ذلَّ الاستعباد والاستضعاف، وترفض أن يبلغ الأمر في امتهانها حد الاستخفاف، تأبى أن يكون للناهبين الأميركان حصانة تقيهم عقوبة جناياتهم، وترفض أن يكون أهل البلاد مطايا ذُلُلاً لهم يقضون عليها رغباتهم، تأبى أن يقبع الطواغيت في الصروح والقصور، حيث ينام المظلومون في كل مأوى حقير، وترفض أن يعبث بالمال لصوص الحكم العابثون كما يشتهون، بينما تحن للقرص بطون الغرثى والجائعين، تأبى أن تحكم في إيران شريعة الشيطان، وطمس معالم الهدى والإيمان، وترفض ألا يسترخص المؤمنون نفوسهم جهاداً لله، وألا يبذلوا كل غال ونفيس دفاعاً عن حريمه وحماه، تأبى غير حكومة العدل تخفق أعلامها في البلاد، تنعش بعد عذاب الحرمان قلوب العباد، وترفض غير ثورة الإسلام تدك قلاع الباطل والغواية، وتمحو دياجي الضلال وأسداف العماية.

إنهـا النفس الخمينيـة الأبية قد استعلت بإبائها عن كل معاني الذلة ومواطنها، وترفعت بعزتها عن كل

ألوان الهوان ومواضعه، وأنِفت لحمية الإسلام أن تسكن حيناً من دهرها على ضعة، أو تسكت يوماً من عمرها على باطل، أو تقرَّ للظالمين إقراراً وإذعاناً، أو ترضى لهم فوقها سلطاناً، فضلاً عن أن تكون لهم في عنقها بيعة فيكون على عاتقها أوزار منها تنقض ظهرها.

إنه الأبيُّ الذي أبى ذلك كله لنفسه، وأباه لأمته في إيران، ولأمة الإسلام في مكان، وها هو يسعى بها على الطريق إلى تمام مصداق الإباء رويداً رويداً، ويحررها ـ بالرفض الثائر ـ من ربق العبوديات، ويخلصها به من شر التبعيات.

لقد أبلغ رفضه وإباءه يوم أعطى عبد أميركا (الشاه) أتباعها في إيران حصانة لا تطالهم معها قوانين البلاد إذا هم أجرموا في حق الأمة التي استعبدوها، وهم في سعة من تلكم القوانين حتى تفصل في أمورهم محاكم بلادهم، أما إذا أساء إليهم أحد من أبناء هذه البلاد التي رتعوا فيها رتوع البهائم في الربوع المعشبة، فإنه يجازى جزاءً يكون نكالاً لما بين يديه، وعظة وعبرة للمعتبرين.

يصور الإمام هذه الحصانة بقوله: «**لو أن أحداً دهس كلباً أميركياً بسيارته فإنه يكون عرضة للتحقيق والملاحقة القضائية حتى لو كان ذلك الشخص هو (الشاه) نفسه، أما لو دهس طباخ أميركي (شاه إيران) نفسه فلا يمكن ملاحقته قضائياً**».

لقد مكث الإمام بعد سماع نبأ (الحصانة) على تارات هي كتارات شخوص الموت وأهاويل حلوله، لا يستريح من فورة عنائها إلا إلى فترة خلت من أُنسه بحال مرضية مما يحل بأمته من فجائع الأمور وعظائمها، ولا يسكن في هيج موجها إلى زافر عاصم أو حصن دافع، ولا يقوم في عاصفها بجناح قوية أو يد ليست الساعة جذّاء.

لقد تكثفت عليه الآلام، وتكنَّفته الغموم، وتكشفت بقتام ما يرى وظلام ما يسمع بقية الصحو وثمالة الضياء، فالظلمات الخانقة مطبِقة، والعناء الموبق مغدِف، وسحائب الإيلام مغدقة، ووابلها في سحٍّ واصب، وهذه سنابك الأذى تدوسه بالفظاعة، وهذه سورة التبريح تخضم فيه خضماً، ونيران الشجن المستفحل تطوف بالأرزاء في أنحائه، كل ذلك من مرآى أمته مهانة، مضامة، مستباحةَ الحِمى، قد سُلِبت كرامتها، ودِيست حرماتها

اسمعه يقول في هذه القضية:

«إنا لله وإنا إليه راجعون، أنا لا أستطيع أن أظهر كل ما في قلبي من آلام. لقد عليَّ الهم والسهاد، ويا ليتني مت قبل هذا، فلم أشاهد هذا العار، ليس لإيران بعد اليوم من عيد، لقد صيروا العيد مأتماً.

إنهم باعونا، وباعوا استقلالنا، في وقت أوقدوا فيه المشاعل، وأقاموا حفلات الرقص العامة، لقد داسوا على كرامتنا، وأذهبوا عزتنا، لقد صادقوا على قانون الحصانة الذي ألحقنا بمعاهدة [فينّا]».

ثم راحت تترى متنزلة من وحي عليائه وإبائه آيات الرفض والإباء تخشع لها قلوب الأحرار الأباة فيستجيبون ثائرين، هادرين، يلعنون الطغاة، ويعصفون بهم، ويسلكون سبيل الحرية لا يلوون ولا يحورون، ويبذلون سعياً إلى الغاية في نهايتها ما هو أهلها من البذل، ويعطونها ما هي أحق به ممن رامها من العطاء والفداء، لا يبخلون ولا ينكلون، فكانت بذلك ثورة الإباء على نهج أمها ومقتداها ثورة الحسين في كربلاء، وكانت كأصلها يتيمة الدهر، عجيبة هذا العصر، لم تعتم مذ قامت مستثاراً للدهشة ومنبعاً للحيرة، تهتن سحائب نعمتها على محبيها ومريديها بالعطاء، ويسحُّ عارض خيراتها عليهم بالبركات، على قدر ما تتفجر براكينها من تحت أقدام خصومها بحمم العذاب، وتنهلُّ على رؤوسهم بصواعق البلاء، وتمضي منتصرة، لا تعبأ ولا تتهيَّب ولا تتراجع.

هذه هي خطب الإمام وكلماته ومواعظه، قلّب طرفك فيها تجدها قد عظم فيها نصيب التأكيد على أن يتحلى المسلمون بسجية الإباء، فهم أتباع أباة الضيم، فلا يخضعون لغير ربهم بل يأنفون من الانقياد لإرادة الظالمين ومشيئة المستعمرين، يستذلونهم، ويمتصون دمائهم، ويسلبونهم خيراتهم.

«يا مسلمي العالم الغيارى استيقظوا من سبات الغفلة وحرروا الإسلام والبلدان الإسلامية من مخالب المستعمرين وعملائهم».

وتجدها كذلك قد فاق فيها ما عداه أمر التشديد على تخلق أتباع القرآن بخليقة الرفض يكسرون بها كل الأصنام التي يقال لهم تعالوا اعبدوها من دون الله، وينبذون بها نبذ النواة كل الشرائع التافهة التي تلقى إليهم ويقال لهم استبدلوا بها قديماً طوال الزمان، وشريعة قد عفاها الدهر، وأخلقها بقرونه المتمادية.

«يا رجال الإسلام! أنقذوا إسلامكم».

«يا علماء النجف هبوا لكرامة دينكم».

يا علماء قم انهضوا فإن الإسلام في خطر».

«لو أن الدول الإسلامية بدل اعتمادها على الشرق والغرب اعتمدت الإسلام... ووضعت تعاليم القرآن النيِّرة التحرُّرِيِّة نصب أعينها، وعملت بها؛ لما أصبحت اليوم أسيرة الصهاينة المعتدين، مرعوبة بالفانتوم الأميركية، ولعبة بيد السياسة السوفيتية الشيطانية».

«قوموا من أماكنكم، واحملوا القرآن الكريم بأيديكم، واخضعوا لأمر الله تعالى لكي تعيدوا مجد الإسلام العزيز وعظمته، قوموا جميعاً لله قياماً فردياً لمواجهة جنود الشيطان في باطنكم، وقياماً جماعياً أمام القوى الشيطانية، فإذا كان القيام إلهياً، وكانت النهضة لله فإنها منتصرة».

ولسوف تراه فيها يستحث أبناء الإسلام أن يكونوا أباة ضيم ذاقوا ويلاته وما زالوا يذوقون، وطعموا من مرارته وما زالوا يطعمون؛ واكتوَوْا بنار غمومه وما زالوا يكتوون، إنه ليعنِّفهم ويستثير حميَّتهم في أمر وقوفهم أزاء إسرائيل بنفرها المعدودين ضعافاً مخزيِّين، لا يردُّون لها ـ وهم ألف مليون ـ عدواناً، ولا يدفعون لها بأساً، ولا يستنقذون مغصوباً، وقد ولى أمرائهم وكبرائهم تعلو وجوههم غبرة الذل والهوان يتقاطرون تباعاً على أحضانها إسراراً وإعلاناً، ويبدون ـ بالعمل حيناً وبالقول حيناً آخر، أو بهما معاً ـ مظاهر الرضا بها والتأييد لها.

«لماذا تحملت الحكومات العربية الصفعات من الصهاينة طيلة السنين الماضية؟

يجب على الدول الإسلامية وشعوبها الأبية ـ على اختلاف قومياتها ولغاتها ـ أن تتوحد، وتبذل كل جهودها وإمكانياتها من أجل اقتلاع هذا الكيان الغاصب وأن تكف عن مساعدة إسرائيل وعملائها والسائرين في ركابها ومناصريها».

لقد نصح لهم إمام المسلمين لو كانوا من أهل الإسلام، أو كانوا يحبون الناصحين، ولقد محضهم بالإرشاد حرصاً منه على كراماتهم المهدورة، وغربة ورغبة في أوبتهم إلى عزِّ الله وعزِّ دينهم، ولقد صدق لهم الوعظ، وأخلص لهم لهم فيه مبتغياً ـ على لهف ـ صلاحهم وهداهم ورشدهم في ظلال الترفع والإباء، وتحت أفياء العزة والكبرياء.

يقول الإمام (رض):

«إني أمدُّ يدي بحرارة إلى جميع المسلمين الذين ينتهجون سبيل التحرر من نير الاستعمار، ويعملون في سبيل اقتلاع جذوره، وفي سبيل الاستقلال الإسلامي الصحيح، كسر سلاسل الأسر الأجنبي».

يا مسلمي العالم! ماذا دهاكم؟! لقد استطعتم في عصر صدر الإسلام بعددكم القليل أن تحطموا القوى الكبرى، وتشيدوا صرح الأمة الإسلامية العظيمة، والان وعددكم يقرب من مليار إنسان، وتمتلكون الثروات التي بمقدورها أن تشكل أمضى حرية في مواجهة العدو، أصبحتم أذلاء ضعفاء».

الصبر والمصابرة

الصبر في معاني الإنسان أسماها وأرفعها، وهو في خلاله أعلاها وأروعها، ليس له من بينها نظير يباريه، وما له فيها شبيه يجاريه، فكأنما هو صفة من صفات أهل السماء فأباح الله لأهل الأرض إن هم شاءوا أن يتسموا بها فيرتفعوا إلى المقام الشامخ ترمقهم أبصار الملائكة المقربين. ولعمري لقد ارى الإنسان الصابر المحتسب فاحسبه ـ حيناً ـ خلقاً سماوياً قد تنزه عن أبناء الطين وسجاياهم، أتمثله حيناً عظمة شاخصة قد تطهرت من رجس الهبوط والخسران لحقيقة (الإنسانية) ذات المجد، مجد الخصال العالية والفضائل الزاكية، وهذا هو مرمى الوصية القرآنية المتكررة: ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾[١] ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ**﴾[٢] ﴿ **وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ**﴾[٣] ﴿**اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ**﴾[٤].

ولقد أتمثله في اقتداره وباسه بعزمة الصبر فأرى قدرة لا تطاول ولا تحاول، وأتمثله في صلابته ورسوخه بطاقة الاحتساب فأرى طوداً شامخاً لا تهده الريح العاتية، ولا تزلزله الهزاهز القاهرة، ولا يعتوره لون من الضعف ومن وقع الخطوب الفادحة.

ولقد كنت أقرا وأسمع عن رجال الصبر وأبطاله، فكنت أرسم لهم في نفسي تلك الصور التي ارى أنه ينبغي أن أتمثلهم بها، ولكني بعد أن رأيت إمام المسلمين رأيت أمراً عجباً، أراني وهن ما تخيلته، وحقيقة أولئك الصابرين الذين استحقوا من الله بشارة الفوز والظفر في دنياهم، وعاقبة المقربين في أخراهم.

لقد جسد الإمام الصبر تجسيداً قل مثيله، بل عز نظيره في رواد القضية بعد الأئمة، وكان صبره ـ عليه تحيات الله وبركاته ـ على ألوانه وفنونه، صبر الطاعة، وصبر المعصية و وصبر القيادة ، وفي المحل الأعلى من مراتب الصبر ودرجاته.

---

[١] العصر، الآية: ٣.

[٢] البلد، الآية: ١٧.

[٣] البقرة، الآية: ١٥٣.

[٤] آل عمران، الآية:٢٠٠.

لقد كف نفسه بالصبر عن غيها، واجتالها عن هواها، وكبح جماح فجورها، وأحيا روح تقواها، فها عما يسخط الله نائية، وعما لا يحبه ولا يهواه متجافية، وذلك الصبر على المعصية.

وهو قد أوقفها بالصبر عند حد التقى، وألزمها سلوك طريق الهدى، وعقلها بعقال الورع، فلا ترغب عن فرض الله ولا نفله، ولا تعزب عن حق التعظيم لمثله، وذلك الصبر على الطاعة، ثم إنه بعد ذلك لصبور عند الهزاهز، وقور في الملمات، راسخ عند الكروب، ثابت في النكبات، لا يجزع فيخرجه الجزع عن حدود الله، ولا يتبرم أو يتسخط فيبوء بغضب ربه، ولقد مرت عليه من المحن الخانقة والبلايا الموبقة ما ينوء بمثله الكثير ممن سواه من ذوي القلوب الواسعة الكبيرة، والحلوم النافذة البصيرة، مما يراه من الفجائع في أمته، أو النازلات في أهل بيته ولحمته، وكان فيها جميعاً جميع القلب صليبه، رابط الجأش، عصيَّ الدمعة، منزور العبرة والزفرة، فتراه فيها فتظنه قاسياً غليظاً وما به من قسوة ولا غلظة، وإن حياته وسيرته لَتشهدان أنه أرق الناس للناس، وأرأفهم بهم، وأنه رقيق القلب حتى كأنه ذائبه، وتراه سمحاً سهلاً ليناً لكأنه نقيض ذلك العنيد الشديد الذي وقفت الدنيا بمكرها كله أزاءه عاجزة حائرة ذاهلة.

يموت ولده (مصطفى) فلا يكون للأمر في نفسه ولسانه وجوارحه أكثر من الاحتساب والاسترجاع، وخطوات قليلة وراء نعش الفقيد، وحضور في حفل تأبينه، يعلِّم الناس كيف يكون الصبر في حوازب الخطوب، ويجسم لهم حقيقة الصابرين من آبائه الأكرمين.

أما صبره في جهاده فذلك أمر حار به الفكر فعيَّ البيان واللسان، فلقد كان له في طريق جهاده رزايا لا يلم بحقيقتها الوصف، قد زجاهن كالسحب الثقال كيد الباطل وعدوانه، فتكثفن عليه من جهاته، وكان له فيه بلايا كتهتان المطر سحاً واصباً قد أحدقن به من كل صوب، لا ينظر دربه إلا ليرى دماء غزيرة تسيل، وأجساماً كثيرة تقطع، وأفواج أتباعه تساق سوقاً إلى مقاصل الموت أو مطامير البلاء، ولا يغض بصره ويغمضه لهول الفاجعة إلا لينظر بباصرة قلبه حقيقة الخطب الفادح، وشأن الرزية الجامحة، نارها في توقد، وكلَبها في استعار، وشدائدها في ازدياد واشتداد، لها في كل يوم فظاعات جديدة، وتارات بلاء طارفة، وفنون كيد تزول منه الجبال، وهو في كل ذلك الصبور الذي يعنو لصبره حتى المستحيل، ويذل لسطوة جلده شموخ الأطواد واستعلاء الأعاصير، وتنكفئ ناكصة على الأعقاب من عزته واستمساكه وثبات قلبه كل آثار المحن والبلايا، فكأن الأيام يمررن على قلبه

الطهور الصبور واحدة، وكأنها تنقضي أمامه على حد سواء، وتعتقب عليه سيّان، وهي مثقلة بأهـوالها؛ مـعتكرة بدياجي لأوائـها وعنائها، لا يبسم له فيها ثغر الراحة، ولا يهش له فيها وجه الدعة، ولا يداعب جفنيه طائر الكرى إلا لماماً.

زاده فيها الصبر الجميل، وعُدته الاحتساب والتوكل، وأسوته جده المصطفى وآله، وعزاءه مرارات المقربين، ورجاءه صدق الوعد بفلاح الصابرين.

لقد كانت حياته الزاكية تاريخ مظالم وفجائع ورزايا أريد لسهامها الرائشة أن تنفذ عبر جوانحه إلى خافقة، وأن ينضج وهج حرِّها عزمه، وأن تصمي طعناتها ثباته، وأن تذهب منها نفسه في الفضاء شعاعاً.

ولكن خافقة الملفَّع بالصبر، وجأشه المحصن بالتجلد، ونفسه المحاطة بسور الاحتساب ابت أن تركع أو تستكين، أو تنيل راغب المكر والبلاء بعض مرغوبه، أو تري محب التسليم أو الضعف بعض محبوبه، وارتد المكر السيئ إلى أهله فحاق بهم بعد أن جرعهم أنفاساً كؤوساً مصَبَّرة من الهموم الثقيلة والغموم المبرِّحة، وراح ركب الإسلام يحدوه حادي الهدى بالمصابرة والاحتمال إلى مطلع الشمس حيث مشرق الظفر الأغر يغمر البطاح بنور الهناء الزاهر الظلمات النكد لأطوار الشقاء.

وذلك هو صبر الجهاد، صبر وتر الوجود لم يشفع بثانٍ، كصبر آبائه المطهرين، وتر الفيض والعطاء لا ند له فيهما.

ثم صبره في قيادته بعد أن أضحى إماماً مطاعاً تهفو إليه القلوب أضنتها صبابتها، وتخشع له في معابد الولهِ والإجلال نفوس المحبين المجدِّين، وتذوب ذوباً أفئدة العارفين بحقيقته، المطلعين على سرائر محامده ومحاسنه، يطويها لأنه لم يرد بها سوى ربه وتكميل نفسه، ويكتمها لأن الأسرار خير من الإظهار، ولأنه شأن العارف العاشق أن يضن على غير محبوبه حتى أن يرى منه مظاهر العشق، والارتباط المحكم، والعلقة الوثيقة، صدقاً في المحبة، وإخلاصاً فيها، وإن القيادة الإسلامية على ما لها من أثقالها الباهظة التي لا قبل لسواها بالامتياز بمثلها، وفي أمر فريد ليس له في شرق الأرض ولا غربها مشابه يماثله هو دولة قرآنية طوت قرون الماضي عجلى حافدة باقتدار مكين كيوم ولدتها أمها ثورة النبي، في بحر طام من النفرة والعداء من شتى الأنحاء.

إن قيادة في مثل هذه الحال تريد أن تحفظ ثورتها حتى تضيء محاسنها في العقول، وتمتلئ بمحبتها الصدور، وتنيل الناس من ثمارها، وتقلع بها أوتاد الضلال والحرمان التي بنيت عليها حياة أجيال متعاقبة في إيران، وأن تصدرها بالحكمة والحسنى، ودعوة الناس إليها بتبيان مزاياها بالواقع المنظور

والفكر المنشور، هذه القيادة تواجه من العناء الفاقر ما يواجه الزورق المهيض في اللُّجج الهادر، تتقاذفه أمواجها، وتعتقب عليه سورات التيار وجماحاته حتى تمزقه أوصالاً، وتقطعه أشلاء، وتذهب بها إلى هذا الشاطئ وذاك.

أما قيادة الإمام، فهي قيادة شعارها التوكل والأمة السامعة، ودثارها الصبر والحكمة، فهي فوق الأوصاب والأتعاب، وفوق العقابيل والعراقيل، وفوق الخشية والرهبة، وفوق الانكسار والاندحار، وذلك هو صبر القيادة، قيادة المؤمن الجسور، والحازم الصبور، قد عمق الإيمان الصادق عزمه وصبره، فهما يدان تتظاهران وقوتان تتعاضدان، وطاقتان تتناهضان، إن فترت هذه أنشطتها الأخرى فحركتها، وإن عيت تلك شحذتها هذه فأحدتها، أستغفر الله لا فتور ولا إعياء، بل هما قدرتان حيتان، وبأسان دائبان، يتأسى الصبر بالعزم فيتصلد، وينافس العزم الصبر فيشتد، فإذا هما فرسا رهان في المضمار يتباريان، لا يسبق أحدهما الآخر، فالسبقة لهما، والجائزة بينهما.

وهلم العجب العجاب في صبر هذا الرجل النبوي دماً وعقيدة أولى أيام ثورته الكبرى، حيث صوته الراعد يصخ أسماع الطغاة، تردده وتمشي على هديه أمة الإيمان في إيران، ودأبه الفائق يؤرق ليلهم، تتمثله وتتأسى به الملايين الوالهة المطيعة، يشرع صدره الطود وكأني به يقول للمحن والنائبات «مادام الإيمان هو زاد روحي قد ملأت به ما بين جوانحي، وما دام الصبر المر هو شهد هذا الصدر، فكيدي وأن كيدك إلى تباب، وتعرضي لي بسهام المساءة على أرقى فنونها وإنها لخائبة، ولن تنالي مني إلا حسرة أراها بعين الله فتستبدل بموج السرور أغمر به أرجاء نفسي، ولن تصيبي مني إلا كلْماً أراه في رضا الله فأجد لآلامه لذة لا تعدلها لذة، ولن تظفري إلا بجموع من الأتباع والأشياع قتلى ومصفدين ومشردين فأرفع طرفي إلى ربي أسأله أن يتقبل القرابين فإنها له وحده، وأن يفك عن معاصم الأبرار قيود الأشرار، وأن يعيد النادِّين إلى ديارهم ظافرين».

وناهيك عن صبر الإمام في محنة الهجرة وحازبتها، وفي طخياء التباعد وظلمائه، ينفى غريباً، ويطرد وحيداً، تفريقاً بين الأمة وإمامها، وفصلاً بين الثائرين وقائدهم، على ما يستدعيه ذلك من عناء النفس، وعناء في السعي، مواصلة للمسيرة حتى لا تفتر فتخمد، وإدامة للدأب حتى لا تتقطع عراه فينهد، عماد هذين العناءين وسنادهما صبر لم تسعه الدنيا ولكن صدر الإمام قد اتسع له، وتجلد لم تقم لاحتماله الجبال وإنها لَيستفل منها، ولكنه قام لاحتماله لأنه روح الله.

وصبر السنين الطوال في الغربة، وصبر الليالي المؤرّقات على سعير البعاد، واحتمال أثقال الآلام فيما يحل بالأمة والإمام، طفحت بكل مرارات الأيام، والمصابرة في الجد والاجتهاد وكل مقتضيات الجهاد، مساورة للهول الجائح، ومنابذة للباس المستشري، ومباسلة للخضم المزبد، وتفرُّغاً بعد ذلك لشؤون الحياة الرسالية من هنا وهناك، وبذلاً في رحاب البذل أفضل البذل، وعطاء فيها خير العطاء، وحياطة للغرباء من أمثاله، وصيانة لهم، بل رعاية لكل أبناء العلم، واهتماماً بهم، ومتابعة لشؤونهم صغرت أو كبرت، كل أولئك كان آية بينة على عظم الصبر والصابر، وشاهداً لا يرتاب فيه على جلال قدر الاحتمال والمحتمل، وبرهاناً ساطعاً على هذا الإنسان العجيب الذي فاق الورى في دهره في كل الفضائل وبزهم في كل الخصال.

خذ إليك قضية الحرب الظالمة، حرب الباطل كله على الحق كله، تجد فيها مصاديق كل ما ذكرناه من ألوان الصبر في محاسن الإمام ومحامده؛ تجد فيها الصبر في جهاد النفس: الصبر عن المعصية فلا يغلبه والرغبة في الانتقام إلى رد الاعتداء بمثله، بقتل الأبرياء، وتشريد الآمنين وترويعهم، والصبر على الطاعة بالوقوف عند حدود الله، والعمل بأحكامه في كل أيام الحرب على تلون ظروفها، وتقلب أحوالها، وتفاقم صعابها ومتاعبها، والصبر في الجهاد المقدس الذي رفع لواءه في هذه الحرب مكتوباً عليه، عبر جمهورية إسلامية في العراق تمر جحافل الإيمان لتدمدم على إسرائيل فترحض من دنسها صفحة الوجود، لتظل مكانها (فلسطين) حرة كريمة، قلبها النابض أولي القبلتين، قد لبست أثواب الحبور والكرامة بعد موتات الأسر المشين بين مخالب الغاصبين وما أعظم هذا من جهادلو كان حجم العظمة يتسع لمعناه، وما أرفعه من عمل رسالي لو كانت تنال وجوده السامق يد الرفعة.

وصبره في قيادته لهذه الحرب على ما فيها من مضاعفات الآلام، ويحموم التهمام، قد أظلته بها كقطع الليل المظلم شؤون في هذه الملحمة الكبرى، وشؤون حرب غير متكافئة في وسائلها الترابية يملك منها خصمه كل طارف مدمر، وهو لا يملك إلا اليسير المألوف، قد وقف فيها الاستكبار جميعاً ظهيراً لعدوه يؤازره ويمده، وهو قد باء بأوزار باهضة من حصار العالم ومقاطعته، عدوه الفاجر فيها لا يحجزه شيء من الدِّين عن أكبر شيء في الإثم، وهو تزعُّه التقوى عن الإثم صغيرة وكبيرة، ويصده ورعه عن مخالفة المطلوب والمحبوب، ويصونه اعتصام نفسه بحبل الحق من أن يقع في الباطل أو يخوض في الحرام، كل ذلك له غم في النفس موجع مرمض، وله آلام فيها ممضة مسهدة، لا يقوم فيها على قدم الاستقامة إلا صبور شكور، غير جازع ولا كفور، ولا يثبت الوطأة فيها إلا قائد حكيم له من سجايا قيادته أرفع سجية وأعلاها، تلك هي الصبر على شؤون الإدارة والتدبير لملحمة ليس لها نظير، والصبر على مصائبها وفجائعها صبراً لا يخرجه عن الصراط السوي، ولا يدخله في الباطل والبغي.

وكانت عاقبة الإمام الصبور، ومآل تجلده في حوازب الأمور صبراً على طريق الله وهداه، وذوباً وانمياثاً في هواه، عين ما أتى عن عاقبة الصابرين على لسان جده أمير المؤمنين:

«حتى إذا رأى الله جد الصبر منهم على الأذى في محبته، والاحتمال للمكروه من خوفه، جعل لهم من مضائق البلاء فرجاً، فأبدلهم العز مكان الذل، والأمن مكان الخوف، فصاروا ملوكاً حكاماً، وأئمة أعلاماً، وقد بلغت الكرامة من الله لهم ما لم تذهب الآمال إليه بهم»[١].

لله أنت يا مجمع الفضائل ويا قدوة الزمان، يقتدي على آثارها الصالحون، ويا أسوة العصر يتأسى بها من أرادوا الله واليوم الآخر، ولله خلالك الساميات لا تساميهن خلال من سواك من ورثة النبيين! ولله خصالك الرافعات لا تحاكيهن خصال من عداك من حملة الرسالة بعد الهداة الميامين!

---

[١] نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢.

الثبات والمقاومة

الثبات عند الإمام حقيقة للواقع تقابل الزحف المؤزر، لكنها أدل منه على البأس والقدرة والظفر، وأوفر منه شمولاً لمعاني الجرأة والبطولة، وقوة الجنان والرجولة، فإذا كان في الإقدام أن تقطع الطريق الدامية بكل آلامها إلى غايتك تبلغها أو لا تبلغها حيث يكون عدوك عِدلاً لك في القوة أو أضعف منك روحاً أو سلاحاً أو جمعاً، فالثبات يعني أن تتقدم بخطى العمالقة على طريق (اللا تراجع) حيث يكون عدوك أقوى منك، وأقدر بفنون مناضلته لك على ردك وصدك وإلحاق الهزيمة بك.

والثبات عند الإمام حقيقة للقلب تعني رباطة الجأش، ورسوخ العزيمة، وقوة الأمل، وسمو الغاية، يتلف عبها صاحبها جلباب المجد والعظمة، ويحمل لها على صدره وسام الفخر والعلاء. والثبات عنده حقيقة للإيمان تعني صدقه فليس هو بالكذوب، ورسوخه فما هو بالمتزلزل، وثباته فما هو بالذي تغيره الأحداث أو تبدله الشؤون، وتعني عمقه وسعة المعرفة به، فليس للشبهات والظنون في أقسى الحالات أن توهنه أو تبدله.

والثبات كذلك حقيقة للنفس العارفة العاشقة، يعني تحمل العناء على سبيل الهوى وذكر الحبيب الأسمى، واعتناق طيفه طول المدى، وعلى كل لون من شؤون الحياة وأنوائها، حتى في حدابير آلامها وأرزائها.

وللثبات هنا ينابيع في القمة ينحدر عنها، وله مستثارات علوية تنجبه فيفيض منها، صدق النية أولها وأعلاها شأواً في إيجاده واستمراره، وخلوص الدفاع للجهاد على كل ضروبه من كل شوب، وتنزهه من كل عيب، وسلامته مما يفسده من الآفات، وتعلقه الدائب والواصب بالمشيئة السرمدية، لا يخور في ذلك ولا يحور.

لقد صدق هذا الرجل الإلهي نيته لله، ونزهها، وشذبها، وصفاها، حتى أضحت تتألق نزاهة، وتتوهج إشراقاً ووضاءة، وتفيض روعة وبهاء، وتأسر الألباب علو وشموخاً وصفاء.

ثم يأتي التوكل على الله يؤازره صدق النية، ويناصره ويدعمه في خلق الثبات خلقاً سوياً، ويعطيه أصدق معانيه، ويحقق له أحسن آثاره.

ثم الالتزام، وقوة الإيمان، وجليل معرفة في العقل وفي الجنان، والوعي بالعقيدة وعياً يعرّفه حقيقتها كما بينت، ويدله عليها على واقعها كما أنزلت، والتبصر بالرسالة وفهمها مثار للثبات أي مثار، ومنهل ثر يتدفق به صدور الأباة الأحرار.

والثقة بالنصر والاطمئنان به، بل اليقين بصدق الوعد بالهداية إلى سبل الفلاح لمن جاهدوا في الله، سبيل قاصد إلى حقيقة الثبات في أجلى صوره وأروع مظاهره، ثم قوة القلب وجلده وصلابته وامتلاءه بروح الاستبسال تصيَّر منه جبلاً راسياً لا يثاور، ونسراً قاهراً يطوي بجناحيه بأس الريح الزعزع.

هذه كل منابع الثبات أو جلها، قد استلهم منها الإمام حماسة صلابته وثباته، فكانت مفخرة قل أن يحمل لها التاريخ في أحشائه مثيلاً، وكانت مكرمة للإمام تخلده ما كرت الدهور، واعتقبت العصور، وكانت محمدة من محامد هذا الدين القيم اشرأبت إليها عنق الإعجاب، وذهلت لفرط جلالها حلوم لم تع من حقائق هذا الدين الحق، أو وعت غير الصواب جاهلة أو مضللة، وارتعدت لهول طلعتها نفوس الحاقدين الأولى ما انفكوا يدأبون في طمس معالم هذه الرسالة، وإخفاء محاسنها، والتعتيم عليها بالظلم والافتراء والتزوير، ليُحجَبَ نور حقيقتها الزاهر عن الأبصار فلا تبصر منها فتبصر بها، ويغيب جمال شروقها الباهر عن القلوب لتتأملها فتهفو إليها، وتستر عن العقول عجائب أفكارها، وشوارد حِكَمها، ونوادر أحكامها، فلا تحقق فيها فتعتقدها وتؤمن بها.

لقد كان الإمام مدرسة فريدة في الثبات، ومناراً هادياً على طريقه الصعب المستصعب، يدل طلّابه مواضع الأقدام فيه فلا تزل، ويهديهم مواطن الرشد فيه فلا يضلون، ويعرفهم حقائقه وأصوله فلا تشط بهم المسارب عن سوائه.

ولقد كانت لثباته وصلابته مرحلتان: قبل انتصار ثورته العظمى وبعده؛ قبله حيث واجه أموراً كان يمكن لمثلها أن تصد مثله عن غايته لولا ثباته فينفض يده من ثورته، أو أم توهن همته وتضعف عزيمته فيطول المسار به إلى منشوده، وتبعد الشقة بينه وبينه، لكنه كان الصامد الصلد كالصخر الأصم لم يلن ولم يتفتت، ولم يعط شراساتها مقود الضعف والانكسار لترمي به في حضيض

الهزيمة والاندحار، بل قابله بما عنده من زاد الإيمان وزاد التقوى، وما ذكرناه من منابع ثباته فاستحال على تلكم الأمور بمثقال ذرة، لقد كانت تلك الأمور، الترغيب والإغراء، واللوم والتعنيف، والوعيد والتهديد، لقد رغبوه وأغروه وخادعوه، فما حرَّكت فيه الرغبات المنمقة المعروضة داعيَ الشهوة، فداعيها في نفسه كبلته صرامة التقوى، واقتدار الزهد، وهيبة التعالي عن سفاسف الدنيا وبهارجها، ولا أصابت منه جهود الإغراء والمخادعة حيث تريد من إيقاف مسيرته الإلهية أو إضعافها؛فبين القائد وذلك حاجز من الحكمة البالغة، والبصيرة النافذة، والتعلق بالقضية، وبينه وبين ذلك مانع من حب الله ومخافته.

ولقد لاموه على ثورته وعنفوه، وعابوه وسفهوه، وأخذوا بخناقه من كل صوب، تارة بلسان الناصحين الواعظين، المحذرين من سفك الدماء بلا طائل، وأخرى بلسان العارفين بسوء العاقبة والخسران بعد البلاء الشامل، وقليلاً ما كان ذلك من الأحبة والأودّاء والأصحاب والأخلاء، وكان الإمام قبالة ذلك كله طوداً صلداً لا يتزعزع، واجهه بفطنته، وبصيرته، ويقينه، واستقامته، وثباته، ومعرفته بحقيقة أمره، وعاقبة سيره، فما أجدى ملام اللائمين، ولا أفاد تسفيه الجاهلين، ولا أثَّر نصح الواعظين على غير بينة من ربهم، ولا معرفة بدينهم.

لقد جَبَهته جمحات الطاغوت بالعنف والغلظة والجبروت، وتعرض له بقرقعة التهديد، ولوَّح له ببواتر الوعيد، فكانت بعض مصاديق هذا الأمر مأساة خرداد، حيث جرى نهر الدم القاني من ألوف المهج الزاكية، وكانت المقاصل والسجون، وكانت المذابح البادية والمستورة، وكانت الفجائع في ضاحية النهار، وفي عشوات الليل الداجي، وكان الحكم العسكري حيث فوهة الرشاش والمدفع تحصد الناس حصد السنبل، وتحرقهم نارها حرق الهشيم، وكان قبل ذلك نفيه من إيران على حال يعجز عن وصفها البيان، وكان قتل ولده وفلذة كبده، ومحاصرته في النجف الأشرف، وتضييق الخناق عليه، ثم إبعاده عن مهجره، وحيرة الدروب به، والجعجعة به إلى باريس.

حين طلعت عليه مأساة خرداد بوجهها الكالح قال لها، لن تنالي من عزيمتي وصلابتي، فمن أخذتِهِ من يدي من أعضادي فإلى راحة دائمة لهم في الدرجات الرفيعة والنعيم المقيم، وإلى عقبى منعشة لي على طريقي إلى غايتي، فدماؤهم ستكون المشعل، والوهج، والبركان، والفتكة التي تصيب من الطاغوت مقتلاً.

وحين عصفت ريح الحكم العسكري انتفضت في وجهها قدرة الإمام بحكمته وعزيمته واقتدار أمته ليطوي بأسها طي السجل للكتاب فإذا ضرْبتها قد أشوت، وإذا سعيها قد خاب، وإذا مكرها يحيق بها.

أما موقفه في هجرته فهو موقف جده المصطفى صاحب الهجرة الكبرى، الأمل الكبير بالنصر، والثقة البالغة بالله، والعزم الأكيد على مواصلة المسيرة حتى بلوغ الغاية.

أما حين غاب عنه وجه ولده منطلقاً إلى أخراه، بعد أن أصابه سهم العدو فأرداه، فإنه كان في تلك الحازبة صلباً كأنه لم يصبه منها شيء، وكان سور صبره وثباته دونها حريزاً فلم ينفذ إليه عبره من بلوائها شيء من الضعف أو الحزن البادي، ومكث فيها على شأنه، لم يتغير وجهه، ولا أخلاقه، ولا عمله، ولا شأن من شؤونه، وكان رده على جناية الطغاة واقع الصبر والصلابة، ولسان الشكر لله والثناء عليه.

وفي الظروف العسيرة لأيامه الأخيرة في النجف، كان موقفه التحدي والعناد، وإباء الخضوع أدنى خضوع، وفي محنة الإبعاد عن المهجر وحيرة السبل به كان موقفه قولته المشهورة:

«**سأظل أنتقل من مطار إلى مطار حتى أبلّغ رسالتي، وأبلغ غايتي**».

وبعد انتصار الثورة حيث عاد الطريد المستضعف إلى بلاده ليصبح بعد حين من صبر مكين وقد نال ما تمنى والصروف والمذهلات ومن سعّرتها راغمان، ويبيت إمام أمة وقائد دولة يفري بمرآه كبد الظالمين برائش الأسى و العذاب، فأين سعيهم المرمض للقضاء عليه؟ وأين شدَّتهم لينالوا منه؟ لقد مشت الحقيقة تدوس جموح الزيف غير حافلة، وراح الزبد الهائج المستعلي يتكشف، والحق يرسخ رسوخ الجبل العظيم، حيث عظم الإيمان في النفوس المؤمنة للأمة الرائدة وهي تبصر دنيا الخميني الكريم، دنيا حق وصدق، لا يشوب ضياء السداد فيها ظلام الزلل واللعب، ولا يدهم صفاء صدقها قتام الخداع والكذب، ولا ترى فيها وهي الحق والصواب أثرا للباطل والعمى، ولا تبصر فيها وهي الحكمة والاستقامة شيئاً من الجهل والالتواء،وقد استبشرت بهذا الفتح يفيض فيها اليقين من أمرها، وتسعى له فيها روح البذل والتضحية والفداء، وعزيمة الصلابة والشموخ والإباء.

بعد النصر والظفر كانت غرائب ألوام الكيد، وعجائب أفانين المكر، وكان أزاءها يذرها هباءً ثبات الرجل الإلهي وتصميمه وحكمته وتدبيره، وكانت منها معمعة الرهائن، وكان الضجيج والعجيج،

وكان الوعيد والتهديد، وكان السعي الماكر الغادر، وكانت طبس المعجزة بعض مصداقه، وكان الحصار الاقتصادي المرير مصداقه الكبير، وكان الهجوم من كل صوب على هذه الثورة العظمى مسارعة في الإجهاز عليها، وصد لها عن غايتها، ومنعاً من سريانها وانتشارها، ففي ذلك ذهاب دولة المستكبرين والمستعمرين، وقيام دولة المستضعفين والمحرومين، وكانت في ذروة ذاك الهجوم حرب العفالقة وجناياتها الفظيعة التي جمعت تاريخ الجناية في سنيِّها القليلة، والوساطات الماكرة يحركها أسياد المعتدي دعماً له في البداية، وإنقاذا له من الهلكة على شرف النهاية، وكانت حرب النفاق تفوق تلك الحرب ضراوة وعنفاً، للمنافقين فيها صولات أكلت من خضراء الثورة ما أكلت، ومكائد جلبت لها من البلاء ما جلبت، وضربات أخذت من أبنائها الأزكياء من أخذت.

ولكن ماذا كان موقف الإمام الصامد في هذه المحن النكر والخطوب الرعن؟ وماذا كانت ثمار ثباته، وعطايا صلابته، ومواهب جلَدِهِ؟ لقد هبت ريح أزمة الرهائن عاصفة مزجرة ولكنها مرَّت على جبل راسخ أشم لم يحفل بها وقد حسبت أنها ستفعل به ما تفعل، ومافتئ الإمام فيها بإغرائها ووعيدها على حال من الصلابة والثبات ارتجف منها قلب الدنيا، ودهش لها فكرها، وارتعدت فرائصها، فلم تعهد رجلاً من ذي قبل قد أوقف نفسه موقف المناصبة والمعاداة لما يسمونه (القوى العظمى) يتحداها ويذلها، ويقهرها، تحدياً لم تشهد له مثيلاً، وإذلالاً ما وسمت بميسمٍ مثله، وقهراً ما كان في بالها أنها ستذوقه يوماً ما. ووقفت أمة الإمام موقفه... موقف التحدي والعناد، يعاضدها في ذلك ويعينها عليه إمداد ذو ثلاثة شعب؛ فيض من لطف الله وعونه، وأسوة حسنة بالرائد العظيم، واستمداد من روح الصبر والفداء عند هذه الأمة الثابتة المضحية.

وانتهت هذه القضية يوجه سفينتها في الموج المزبد؛ ربانها المصمم الحكيم بالغلبة للأمة المظلومة، وبالذلة والهوان للطغاة الظالمين، على كل ما أرعدوا وأبرقوا، وأنذروا بالشؤم ونعقوا، وأبدو من مظاهر الغضب والنقمة، وجاءوا بها من شؤون الرد المتجبر، حيث دخول أرض إيران باعتداء فاضح زعماً منهم أنهم يريدون تخليص رهائنهم، وحيث الحصار المنكر يعيد إلى بال اللبيب حصار المشركين للنبي وأهله في شِعب أبي طالب، وحيث نعيق الإعلام ونقيقه، وحيث لوم اللائمين وعتب العاتبين، بل تسفيه المسفهين حتى في صفوف القائمين على أمر هذه الدولة المباركة وقتئذ، ولقد ذهب كل ذلك بالطعنات النجل للثبات والإباء أفلاذاً في الفضاء، وتبددت كل عـرامات الطغيان في

هذه الواقعة العوان تسقيه كأس المذلة والهوان.

وكان موقفه في التصدي الحاقد الكبير لثورته العصماء، وقيام طاغوت الأرض في وجهها ذعراً منها، وتضييقاً عليها، فقتلاً لها في مهدها، أن يستعيد من تاريخ الإسلام صدره الأول ليتمثل الخندق المحفور تحيط به جحافل البغي والشرور، وقد قبعت في وسطه ثلة قليلة من عباد الله لا يرون حاجزاً بينهم وبين أن يلتهمهم فوه هذا الموت الزُّؤام الفاغر إلا فضل من ربهم، وردء من خندقهم، واقتدار من صلابتهم وجلَدهم، فيبين الإمام لأمته أن التاريخ يعيد نفسه، وأن الإسلام كله يخندق اليوم أزاء هجوم الكفر كله بخندق العزم والصبر والثبات، وإنه لمنتصر لا محالة، وتلك سنة الله ولا تبديل لها، وتلك مشيئته ولا تغيير فيها، وأنى لقدر الأرض أن يستعلي على قدر السماء، وأنى لإرادة الطغاة أن تغلب إرادة الله؟

وانتصر الحق، وخرج الإمام وأمته من خندق هذا الزمان ظافرين قاهرين، وذلت الجبابرة، وعنت وجوهها لعظمة الإيمان وكبريائه.

وفي الحرب الظالمة المفروضة، يد الاستعمار الممتدة تجسد الوعيد والنذر، وسلاحه المصوب المدوي يحكي فورة الغيظ المستعر، وقبل هذا هي كيده الماثل عملاً آية الخوف الجسيم من الكرب العظيم، كانت بصيرة الإيمان النافذة، وحكمته البالغة تريان حقيقة العاقبة لهذه الحرب الغاشمة، وأنها نصر للإسلام وخذلان لأعدائه.

وكانت شجاعته وكان تدبيره يديران دفة المواجهة والدفاع عن حريم الوطن المضام، وكان ثباته وإباؤه يتحديان عواصف الحرب ونكباها وشرورها الفادحة التي أريد منها أن تعطي إيران الإسلام بيدها، وأن تذل لشروط العادين، وكانت (هيهات منا الذلة) شعاراً ومنهجاً، وكان الصمود الحسيني أسوة الحفيد الرشيد وكانت عاشوراء الصامدة الظافرة أيام إيران في حربها، وكانت كربلاء المضمخة بدماء الأباة هي أرض إيران تلتحم عليها صفوة الحق وجحافل الباطل.

ثم كان صمود الإمام وأمته أبهى مظهراً وأروع معنى في تلك الوساطات التي سيرها الجناة لإيقاف الحرب ليأمن الباغي عاقبة البغي، ويظل المظلوم رهين ظلامته مكلوماً يأسو جراحه، ثكلان يندب أبنائه وأحباءه، محروباً لا يجد سبيلاً إلى استرداد ما سلب منه، وما دمر له، وما فوت عليه.

وليس يعزب عن البال ثباته في داهمة النفاق وجائحته، قد عاثت في البلاد فساداً فأهلكت كثيراً من

الحرث، وغربت بظلام مكرها شموس كانت ساطعة، وأَفَلَتْ بشؤون غدرها بدور كانت منيرة، ولم يلن للإمام الصامد قلب للمنكر وأهله، ولم يضعف جانبه أزاء الخارجين على إرادة الله والأمة، وبقيت كلمته واحدة لم تتلون لأنها كلمة الإسلام، وبقي موقفه واحداً لأنه موقف الحق، وظل رفضه قاطعاً كحد السيف، وظل ثباته شامخاً راسخاً شان الجبال البواذخ، وإن من الجبال لما يستفلّ منه، ولكن ذلك الثبات الخميني لم يستفلّ من حتى بمعاول الموت، وكانت كلمته المعروفة للمنافقين ومن على شاكلتهم، «أقتلونا فأن أمتنا ستكون أكبر وعياً ويقظة» وجهاً بهياً رائعاً لحقيقة الثبات عند الإمام يخطف الأبصار ضياء حسنه وبهائه، ويأخذ بالألباب فرط شموخه وعلائه، ويوقف الدنيا، ويوقف الدنيا ممتدة العنق إليه ذاهلة حيرى، قد ملك عنان قلبها العجب الشديد فهي بخمرته سكرى.

ولقد كانت آثار ذلك الثبات جمة كثيرة، وكانت عطاياه وافرة غزيرة، وكانت مواهبه الباهرات قد أعيت على الإحصاء، وفضائله الزاهرات فوق الثناء والإطراء، قال فيها القائلون فبذّ بعضهم بعضاً، ولكنها بذَّتهم جميعاً، فكانت فوق ما قالوا من مزوَّق القول ومنمقه، وكان ما قالوا من البديع الرفيع دون حقيقتها النابتة في كبد الجوزاء تباغمها السماء.

لقد كان الفتح والظفر والنصر المؤزر عطية الثبات الخميني، ولقد كان فتحاً معجزاً كمستشاره، وكان نصراً عجاباً كأصله، أحسن من قال فيه أنه حلم النبيين والهداة دهر الدهور، ورغبة الثائرين الأبرار لم تزل طي الصدور، ما أمكن نيلها والفوز بها، واستعصمت على طلابها، لم تزل مهوى قلوب المستضعفين، ومطمح أنظار المحرومين، تهفو إلى طيفها آلامهم تسامره ليلاً طويلاً، وتصبو إلى أحضانها الناعمات الدافئات أرواحهم لتغفو ساعة بعد ما ذاقته سهاداً ثقيلاً، وتزيح عن ساحتها النكداء أوزار الهموم، وتقشع عن ديارها المستباحة للأذى دياجير الغموم، ولم يزل طيفها كالمعلق في السماء ترتاده قرائح الشعراء فتصدر عنه بطاناً، وتحوم حولها وتنغمس في نوره فراشات الآمال فتموت ولهاً وتحناناً.

وجاء الثبات الخميني تعضده منه فضائل السياسة، ويؤزره من أمته رفيع ألوان الحماسة، فاستنزل السماوي ليحل في الأرض بهاء السماء، وأمكن ما أشبه المستحيل قد نعتوه بالأمر العياء، فإذا هي

دولة القرآن حقيقة ماثلة للعيان، ترفرف رايتها الغراء خفاقة على ثرى إيران، قد استفلتت أبصار الأرض أسيرة الذهول، وملأت بالدهشة أفناء القلوب والعقول.

وكانت الغلبة أيضاً حليف ذاك الثبات في كل الميادين، وقرينه الملازم في كل الشؤون، فإذا هي مسيرة روح الله الخلاقة القوية مسيرو نجاح وفلاح، وإذا هي حياته المبدعة الصلبة حياة الفوز والرباح، حالفها الثبات فبارحتها الهزيمة والهوان، وقارنها التجلد فاجتالها عن مواطن الفشل والخسران.

وكان إذلال الاستكبار وإسقاط هيبته، بعد دحر عنفوانه المتحكم في إيران، وخضد شوكته ـ هو العطاء الثاني لذلط الصمود القرآني، فبات منه الباطل المتجبر أسير مذلة وصغار، ورهين خزي فاضح قد أنهض ظهر بأفدح الأوزار، لا يدري كيف يداويه ويطببه، ولا يعرف كيف يكون منه مهربه، لقد سقط القناع عن وجه الأسد المكذوب، وانزاح الستر عن اقتدار زائف محجوب، فلم يعد يبين غير الانتفاش للزبد الذاهب، وليس غير مرأىً خادع للغثاء المنتفخ، حين مرت عليهما يد البأس والعناد لذلك المارد الإلهي ولَّى الزبد جفاء، وانقلب الغثاء هباء، وبقيت الحقيقة عارية على وجهين، تهويل وتطبيل ووعيد، لآلهة جوف لا تبدي ولا تعيد، وعبادة وخضوع في حالكات العمى لأصنام قدت من الطين عديمة القوى، ويطلع الصبح المنير ليبصر فيه المدلجون غاية المسير في المتاهات، ويرى على نوره رهائن الليل أنهم أسرى الحماقات، وها هم الآن مستصبحون قد وجهوا وجوههم صوب طلعة الإصباح، متنورون قد هرعوا عطاشى إلى مناهل الفجر الوضاح قد كفروا بمعبوداتهم دون الله، وتنكروا لطرائق الغي دون هداه.

وكان من هبات ذلك الثبات الخميني أن تجلت عظمة الإسلام الصامد الذي كرت عليه القرون تحت أثقال الأهوال المنكرة وكلاكل الرزايا الفادحة، حتى ظن الباطل أن الساحة قد خلت إلا منه، وأن ذلك الغريم القديم قد أضحى بين أطباق الثرى هالكاً يُنعى ودفيناً يُبكى، وفجأة ينتفض المارد المصفد ليكسر أغلاله، ويهب العاصف المكبل يفك كبوله، ليرى العالم وجه ثبات لم يألفه، واقتدار صلابة وتجلد لم يعرفه، ويرى أبناء الإسلام حقيقة دينهم التي حجبها عنهم رهج التضليل، وصرفهم عن رؤيتها ليل الأكاذيب والأباطيل، فيزداد المؤمنون إيماناً ويقيناً بأمرهم، ويفي الضائعون إلى صوابهم ورشدهم، ويمتاز الخبيثون من الطيبين، ويستخلص الشوب بالنور الهادي، ويبين العيب

بالنظر المبصر، ويُعرف الدخيل من الأصيل، والكاذب من الصادق، وأهل الأمر من أدعيائه، وأوليائه من أعدائه.

ولسنا ننسى وأنى لنا نسيان العطاء الرافع لذلك الثبات الرائع، خلق جيل ثابت لا يحفل بالهزاهز فهو فيه وقور أسوة لأجيال تليه، وإبداع أمة مقاومة لا تعبا بالزلازل فهي فيها صبور ولو اكتنفتها من كل أقطارها.

لقد فاضت الروح الخمينية الزكية أريجاً عابقاً من رياض فضائلها، وسلسبيلاً شبماً من معين شمائلها، ونوراً مرشداً من فجر محاسنها، فتنسم المختنقون في كثافات الدخان، واغترف الصادون بعد لوعة نكراء في مفاوز الجدب والمحل، على نور الحياة الجديدة الرشيدة بعد الخبط في ديماس العمايات، والخوض في أوحال الظلمات، وكان نسيم الثبات أعبق تلكم النسمات، وكانت غرفاته المروية أعذب تلكم الغرفات، وكانت قبسته الساطعة أنور ما في تلكم الحياة الطارفة من القبسات، وعاد هذا الجزء من أمة الإسلام في إيران مثلاً فيه يحتذى، وقدوة تقتدى، ومنهجاً يسار عليه، ودليلاً يستدل به، وباتت أمة الإسلام قاطبة تنقل الخطو ويداً تحمل أثقالها الباهظة من ليل الجاهلية وأصنامها، وتداوي جراحها النازفة من سياط البغي والجور، على طريق الثبات، فها هي تقاوم، وترفض، وتنكر، وتتأبى، وتعطي لذلك أغلى العطاء، وتبذل له أكبر البذل، وتسخى من أجله أعظم السخاء؛ فلذات من كبدها تُقطَّع، وأوصالاً من جسدها تُمزَّع.

أما ثمرة ذلك الثبات لشخصه فهي بعد كل ما ألفته ثورته الظافرة مما كان ينشد لها، وما نالته في الدنيا من الإكبار والإعظام، والتأسي بها، والاقتداء على آثارها ـ تعاظم شأنه في العيون يسد عليها الأفق الرحيب، بين من ترقبه ناقمة حاسدة، ومن تنظره خاشعة دامعة، واستحواذه على النفوس والقلوب بين من صرفت همها فيه خوفاً وفزعاً وكيداً، ومن اعتنقته صبابة وولهاً وتقديساً، ولقد غطى ما يسمونه (الظاهرة الخمينية) ـ على دخَلٍ في هذه التسمية وسوء نية فيها ـ دنيا اليوم، وأخذت عليها أقطار الأرض وحتى آفاق السماء، فهي شغلها الشاغل، فكرها معصوب بها، وقلبها مملوء منها، وعينها مشدودة إليها.

التواضع

لقد أعز الله إمامنا ببسطة الأخلاق العالية قبل أن يعزه ببسطة في أمر آخر يرضاه، وحباه في كرامة الفضائل العظيمة قبل أن يحبوه بكرامة ما عداها من حبيب مواهبه ورغيب عطاياه، بل إن خصاله النبوية وسجاياه القرآنية هي السر وراء كل ما ناله الإمام من أمجاده، وما حضي به من الفوز والفلاح، وما ظفر به من الإعظام والإعجاب في صدور المؤمنين وحتى سواهم ممن يكبرون أهل الفضائل السامية بما هو حقهم من الإكبار، ويعظمون أصحابها بما هم أهله من التعظيم.

ولقد كان أولها أثراً في ذلك واستجلاباً له؛ سجية التواضع تلك التي عرف بها الإمام كما لم يعرف غيره بها، وشهر بها أكثر مما شهر بسواها، أو هما في ذلك على حد سواء، ولقد رفعه الله بها إلى حيث لم يرفع بها أحداً سواه من أوليائه في دهرنا هذا، وأبلغه بها منزلة لم يبلغ بها إنسان غيره من عباده المقربين في زماننا ليكون فيه وفي إعزاز الله بتواضعه مصداق (من تواضع لله رفعه) وقد رفعه كما لم يرفع أحداً غيره من ورثة الأنبياء، وحفظ الرسالة وحماة القرآن.

ولئن أبصرت سجية التواضع بناظرة القلب على نور القلب لرأيتها رائعة بهية رافعة، لها جلال ولها شموخ ولها سمو، فليس يتحلى بها إلا ذوو النفوس العالية، والقلوب الكبيرة، والعقول الراسخة في معرفة الحقيقة على أجلى وجوهها، النافذة نظرتها في حقائق الأمور ومحاسنها، والأرواح الزاكية التي تحلت برفيع الخلال وحميد الخصال، فشفت وصفت فباتت ملائكية الوجود لكنها تحس في العالم المشهود، ولئن أبصرت هذه السجية على علو شأنها بين الفضائل في حياة إمامنا وقائد أمتنا، لأبصرت مثل المشكاة والزجاجة، وحقيقة النور على النور، تضيء هذه الفضيلة في حياته فتشرق فيها، وتسطع حياته العظيمة في تلك الفضيلة فتزيدها إشراقاً ورونقاً وبهاء.

لقد كان متواضعاً لربه على قدر معرفته بعظمته وجلاله، تواضعاً جسدت حقيقته البالغة هبات الله وعطاياه له، وأيسرها أن رفع الله ذكره، وأعز مقامه، وأعلى شأنه، وصيره مثلاً وقدوة، ومناراً

ومستثاراً، حتى بات ملء هذه الدنيا البشرية القائمة، قد سكن النفوس، وأخذ بمجامع القلوب، واستحوذ على العقول، فأنت تراه حيث تذهب في هذه الدنيا العريضة، وأنت تبصره حيث تدير طرفك فيها، وأنت تلقاه أنى وليت وجهك في أرجائها، قد شُغِلَ العالم به شغفاً وكرهاً، وبات رهن قضيه إعجاباً ورعباً.

فالخميني رحمة مهداة، وعذاب واقع، والظاهرة الخمينية فتح مبين يثلج صدور المحرومين، وخطب فادح يقض مضاجع الطواغيت والظالمين، ولد كان متواضعاً لأمته على قدر معرفته بإيمانها، وإخلاصها، ووفائها، وفدائها، وبديع صنعها للإسلام في عصر الجاهلية الكبرى، وتحملها لأعباء لا تنهض بها الجبال دفاعاً عن دينها، ونصرة له، وإعلاء لكلمته، وتحكيماً لقانونه، فبات لذلك يكن لها ويبدي ذروة الحب وفرط الهيام، ويضمر لها ويظهر الإعجاب والإكرام، فهي حبيبته بعد ربه ودينه، وهي موضع إعظامه بعدهما، يراها أمة ندر مثالها في التاريخ كله، فحيث قاست الأنبياء من أممها، وذاقت من مرارات إعراضها ونفورها، تكون هذه الأمة ألين للحق من الماء، وأطوع منه لشاربه، وأسرع إلى مشيته من لمح البصر، يأمرها الخميني باسم الأنبياء فتطيع، ويدعوا إلى هداهم فتهتدي، ويستعطيها البذل والفداء على طريقهم فتبذل وتعطي، وهي لم ترَ نبياً بل هي في عصر انقطعت فيه النبوة والأنباء وأبرز مظاهره الكفر بالأنبياء وتسفيه حلوم أتباعهم بغياً وضلالة وعناداً، يرجِّيها ظهور غائب موعود قد آمنت به إيماناً أرسخ من إيمانها بالشمس المتوهجة في رائعة النهار، لتجسد بذلك ابرز حقائق الإيمان وهو (الإيمان بالغيب) والإيمان بان العاقبة لهذا الدين وأهله.

لقد بلغ الإمام في تواضعه لأمته شأناً لم يبلغه سواه، وقصرت عنه ما عداه، ولنسمعه يقول لها صادقاً غير كاذب، جاداً غير هازل:

«سميني خادماً لك ولا تسميني قائداً).

ولنسمعه يقول لها مخاطباً قطاعاً منها وهم تلاميذه وعلماء البلاد وهداتها:

«أنا طالب علم وأنتم العلماء، إنني اقبل أيدي طلاب العلوم الدينية، وأيدي العمال الشرفاء».

ويقول لهم وللمثقفين من طلاب المدارس العليا في اجتماع لهم:

«لقد جئت إلى هذا المكان لعرض خدمتي عليكم، فانا خادمكم جميعاً ما دمت حيا».

ولنسمعه يقول لها في حديثه مع جنودها وأبطالها وحماة ثورتها، الذين هتفوا باسمه رائد النهضة، وقائد الثورة، والمحرر الأكبر، والفاتح الأعظم:

«أنتم خير مني، لأنكم أبرزتم بجهادكم وتضحياتكم ما يثبت به لكم عند ربكم علو قدركم وعظم مقامكم، أما أنا فليس لي من ذلك شيء».

ويقول لهم حيناً آخر:

«أنني أقبل أيديكم وسواعدكم، وأفتخر بتقبيلها».

فيبكون ويخشعون، وقد امتلأت صدورهم بحقائق العجب والإجلال والتقديس لإمام ثائر، لا يعدله اليوم أحداً فضلاً وكرامة عند ربه وعند الناس، يتواضع لأبنائه المجاهدين مثل هذا الوضع، ويخفض جناحه لهم مثل هذا الخفض.

وإن أمته لترى منه عجباً من أمر تواضعه، حيرها حين تواضع وهو الإمام القائل لصبي في الثالثة عشر من عمره فسماه قائداً وزعيماً ورائداً، لأن ذلك الصبي قد صنع ملحمة في البطولة والفداء، دفاعاً عن دينه وبلاده، ولا غروَ بعد ذلك ولا نكر أن تتواضع أمته له تواضعاً ليس كمثله شيء من ألوان التواضع ودرجاته، وأن تحبه حباً هو الوله والصبابة، وان تنقاد له انقياداً هو الخضوع والتسليم.

العبادة والعرفان

ماذا تراني قائلاًـ واليراع كليل، والبيان نضو مهزول ـ في إمام عارف عابد عرف الله حق معرفته، فعبده حق عبادته. طلباً حثيثاً في فكره وبصيرته وشعوره، فوجده خير الوجدان وأعلاه وأنقاه، أبصره في فكره رباً ليس كمثله شيء، ولا يشبَّه بشيء، مبرأ من كل نقائص الظنون الباطلة، منزهاً عن خطرات الأوهام، ممتازاً بكل كمالاته العليا وصفاته الحسنى، فوحده توحيداً خالصاً كما هو حقه وأهله، وخضع له بحكم العقل قبل حكم الدين، وبإلزام الفطرة قبل إلزام الوحي، وعبده لأنه ِبهَدي الفكر النافذ المبصر حقيق بالعبادة، جدير بها حتى لو لم يأمر بها ولم يطلبها، أليس هو القائل في موعظته:

«أعبدوا الله لأنه أهل العبادة، لتستطيعوا اختراق حجب النور والوصول إلى معدن العظمة».

ورآه في بصيرته على حقيقته التي يعرفها بها أولياءه المقربون بعظمته وكبريائه، وعلى شانه من الجلال والجبروت، وعلى هيمنته ومهابته، وعلى قدرته واستطاعته، وعلى بالغ مشيته، ونافذ إرادته، وعلى كل حقوقه المترتبة على ذلك؛ وهي فرض البصيرة والوجدان على ذوي البصائر، فأطاعه حق طاعته، وخافه كمال مخافته، وأدى إليه حقوقه أتم الأداء.

إننا لنسمعه يقول:

«إن الإنسان الذي يعتقد أنه على مرأىً من الله ـ سبحانه ـ ومسمع منه، وأنه حاضر بين يديه تعالى؛ سوف يخاف أن يقوم بما لا يرضاه».

«إذا تيقن الإنسان أن كل العوالم الظاهرة والباطنة هي في محضر الله، يستحيل صدور أي ذنب منه وحصول أي معصية».

وألفاه في شعوره إله الرحمة والإحسان، واللطف والإنعام، والعفو والصفح، والحلم والستر، فرقَّ له وخضع وتذلل وخشع، حامداً شاكراً، عابداً ذاكراً، يرى كثير عمله في طاعة ربه العظيم أقل شيء وأنزره، ويرى صغير معصيته في جنبه أفدح جرم وأكبره، بل إنه يرى ترك محبوبه ما دون الوجوب

من بعض العيوب، ينقص الحظ من الإيمان الصادق، ويرى فعل مبغوضه ما دون المنع من بعض الهنات والهفوات يخلُّ بكمال العبودية وتمامها.

إنه يقول:

«الإنسان الذي يكون الله وليه ليس مستعداً لارتكاب أدنى ظلم ولو كان مقابل ذلك كل الدنيا».

«لا تستصغروا الذنوب الصغيرة فإن عاقبتها وخيمة».

ولقد تمثلت الخميني العارف فرأيته صورة مصغرة لسيد العارفين وأمير المؤمنين، أرى منها حقيقة العرفان عند جده العظيم، وأبصر فيها روح المعرفة بالله لذلك الإمام ملهم المعرفة الإلهية، ولقد قرأت له ما كتبه في شباب عرفانه فرأيته شيخ العارفين الذي لا يطاول في فنه، ولا يجارى في عمق معرفته، ولا يساجل بحر عرفانه.

وعبادة الإمام في حياته سر عظمته ومجده، وباب فلجه ونجحه، ومغزى تأييده وتسديده، حين رأى الله بها عبداً عبده كما أراد، وأطاعه كما أحب، وأخلص له خلوص العارفين الوالهين، فاصطفاه واختاره لبالغ كرامته، ومحمود منزلته، ورفيع درجته، وحباه وأعطاه كما لم يحْب أحداً ولم يعطه، ووفقه لما لم يوفِّق إليه غيره تكرمةً وتجلَّة واعزازاً.

وعبادة الإمام قد أخذت عليه كلَّ وجوده حين نبعت من كل أحنائه كما ينبغي، فهي عبادة القلب العارف البصير، كلها خشوع وضراعة ومحبة وهيام، وهي عبادة العقل (المعرفة السليمة) لا تشط عن الصواب في حقيقة الذات الأزلية، ولا تزيغ عن سواء الصراط في السير إلى الله نشداناً وطلباً، وهي عبادة السلوك، أداء الوظيفة والواجب، جهاد النفس، جهاد الباطل، والبذل والتضحية.

العبادة الخمينية هي على حقيقة معنى العبادة كما أرادها الله، لا تغادر شيئاً من حياته لا تحيط به ولا تحوزه، ولا تترك شيئاً منها لا تدخله في رحابها السنية البهية، قد استغرقتها كلها، واستحوذت عليها فلم تذر منها يسير شؤونها ولا كبيرها مغفلاً لم تنتظره بعين، ولم تمد إليه أصبع الإشارة بأنه موضع رغبة ملزمة أو غير ملزمة، وأنه محل كراهة آمرة بالترك أو غير آمرة، فدنيا الإمام كلها عبادة وتدين، وأفعاله كلها رهين القربة وطلب الرضوان، الفريضة الواجبة وأفضل منها كلمة الرفض، الركعة لله وخير منها مقاومة الطاغوت وإباء الباطل، الخشوع والدموع في محراب الشوق إلى الله والتذلل بين يديه وأحسن من ذلك مظهر العنفوان والتعالي والكبرياء في وجه فرعون، السعي الدائب

في ذكر الله والانقطاع إليه، وأسمى منه التركاض في شؤون المحرومين، والدفاع عن المستضعفين، وإنقاذهم من براثن المستكبرين بإقامة حكومة الحق، وإعلاء كلمة الله دولة ونظاماً.

لقد كانت آهات الإمام الثقال، وحسراته الطوال، لحوازب الخطوب التي أناخت كلاكلها على صدر شعبه المكروب خير عبادته، وكانت لهفاته الضارمة التي تقيمه ولا تقعده، وتضنيه ولا تريحه، يحدوه حاديها المغذ الملحُّ في السير إلى الغاية الأسمى إزاحة الطاغوت المستبد الجائر، وإقامة الحق العادل المترفق، كانت أفضل طاعاته، وخير قرباته.

لقد كان له في الليل سهر طويل، وقيام ثقيل، ضراعة بين يدي الله وتذللاً، وفكرة في حالة الأمة وسبيل نجاتها، وذلك مهمّ عبادته، وكان له في النهار سبح طويل في شؤون الإسلام والمسلمين وذلك سنام تدينه، كان له بين ذلك فترات من السكون تغمرها نار الآهات والشجون، ويطفئها تهتان الشؤون، حسرة على رهائن الكربات، وتفجعاً لأسارى النكبات في الأتون الضارم للظَلَمَة، أذلاّء مستعبدين مقهورين، يقتاتون الذلة والحرمان، ويعيشون على فتات الموائد المتخمة، ويشربون الردغ الآسن عفو ذلك العذب الزلال الذي اختص به الجناة أنفسهم، وأسىً والتياعاً إذ لا يرى للحق معلَماً إلا منكوساً، ولا حكماً إلا معكوساً، حيث أمرَّ الباطل واستعلى، واستطار الضلال واستشرى، فأبعد شيء وأبغضهُ حكم الرحمن، وأقربه وأحبه حماقات الشيطان.

لقد كانت عبادة الإمام عبادة الرسول (العبادة التغييرية الثائرة) وعبادة الأئمة الهداة (العبادة الهادية) وعبادة الأحرار الأباة (العبادة الرافضة) وكانت بعد ذلك عبادة الدمعة الخاشعة والانكسار في محراب الضراعة والبكاء الطويل خوفاً من الله وخشية، فالخميني بأسمى معشوق على عظيم معرفته بمن أعلقه حبه الجسيم، وكبير إلمام بصفات جماله وكماله ليكون له في حبه وهيامه أمور يقل نظيرها اليوم، أو لا يكون لها نظير، وشؤون يندر مثيلها، أو لا يكون لها مثيل، لقد عرف ربه المعرفة الأسمى فأحبه الحب الأعلى، وأبصر من محاسنه ما لم يبصره سواه فاستهواه وذاب في هواه، فهو حاضر في قلبه الشغوف شمساً طالعة تضيء أرجاءه بنور التقوى واليقين، وهو عتيد على شفتيه الذابلتين ذكراً وتسبيحاً، وهو في حركاته وسكناته يطلب فيها مرضاته، ويبتغي حسناته.

وهو واصب الوجود في ثورته، غاية ومقصوداً، ودليلاً ومستضاء، فحاكماً وسلطاناً، كلمته نافذة وحكمه ماض، وإرادته غالبة. ولقد كانت صلاة الليل والنوافل الرغيبة بعد الصلاة المكتوبة مَعْلماً

واضحاً في رحاب العبادة الخمينية، فهي ربيع العاشقين، ومحط رحال المشتاقين، ومهوى قلوب الوالهين، إليها يولون وجوه القلوب الصادية إلى الزلال العذب للقاء بالمحبوب الأعظم، وإليها تمتطى زوامل الأفئدة الظمأى إلى نمير الوصال بالذات الأقدس.

لقد ألف الإمام العاشق تلك النافلة واعتادها كالفرض الواجب فلم يتركها حتى ليلة أوبته من باريس إلى طهران، بل ليلة رحيله إلى ربه في المستشفى، والتزمها وحرص عليها دأبه مع الفرائض اللازمة، فترى العاشق المستهام لا يعتم في نجوى الحبيب ولقائه إذا هدأت الحركات، وغفت العيون، وغلب الكرى على الناس من حوله، وذلك آية صدق الحب، ومن صَدَقَه فأقل ما يفعله أن يصرف طائر الرقاد عن عينيه، وأن يكحلهما بمرود السهر، ليقوم المحب المدلَّه ساعة يبل فيها غلة القلب الظامئ وينقع صدى الروح الضاحية، يشد نفسه شداً وثيقاً بأسباب الأزلي الأرفع، ويعمر آصرة الارتباط بين العبد ومعبوده، ويستدره ألطافه الخفية، ونعمه الظاهرة التي يصلح بها حال الأمة فتنجلي عن ديارها غواشي الليل البهيم لجاهلية العصر، ودعارات البلاء الأليم لصروف الجور والطغيان، ليشرق الفجر ضاحكاً يبسم للنفوس والأبصار، ولتمتدَّ من علٍ يد اللطف والإحسان تأسو به الأرض المجدبة، وتحيا به البلاد الممحلة الخاوية.

وكان الدعاء في عبادة الإمام على ذلك المنوال وتلك السجية نشداناً لتلك الغاية، وكانت قراءة القرآن حديث المتوادين من وراء الحجب حيث عز حديث المباشرة، ونجوى الحبيبين من خلف الأستار، حيث استحال لقاء الحس ونجواه، يسمع فيه المحب حبيبه يحدثه بفنون القول، يعضه ويهديه، ويعلمه ويزكيه، ويرسم له طريق الكمال الشخصي والاجتماعي، ويدلُّه سبيل الارتقاء في النفس والواقع، وينير له هادياً مسلك السعادة في الدارين، ويعطيه من زاد الثورة ما يعطيه، ويضرب له الأمثال من الجبابرة والثائرين، وينثر له العبر من دروس الحياة المجاهدة للأنبياء والمرسلين، ويعده النصر والتمكين، والفوز بعاقبة المتقين.

الوالد والمولود

لقد وشجت بين الإمام الحفيد وجده السبط الشهيد، وشائج ثلاث:

الدم والدين وروح الثورة؛ الدم يعطيه عبر الأصلاب الزاكية والأرحام المطهرة مزايا العظمة موروثة من أهلها، وسجايا المجد، متحدرة من ذويه، والدين يهبه وهو غذيُّه ورضيع لبانه الطهور فضائل السماء، كما صنعتها على عين فكرتها الصائبة وبصيرتها الثاقبة، ويزوده ـ وهو ينهل منه ولا ينفك ـ محاسنه الإنسانية من بارئها، ومحامده الملائكية من مبدعها، ويجد ذلك إليه باباً مشرعة تفتحها على مصراعيها يد الخير وروحه العطشى إلى الفضيلة، فتكرع الروح في ذلك الفيض حتى ترتوي لتصدر عنه ناقعة الغليل تطفح رواء وينعاً، وتنقلب عنه باسمة أنيسةً مشرقة المحيا، قد أخذت من نوره وجماله ما تشرق به وتضيء، وتطلع طلوع الشمس الضحوك.

ثم تتعالى روح الثورة به إلى المحل الأرفع لتشده شداً وثيقاً بابيه الأكبر ثائر كربلاء، وقربان الرسالة ومشعل الإباء والشهادة.

لقد عشق الإمام جده الحسين عشق الرساليين لروادهم، وهام به هيام العظماء بمن أناروا لهم طريق العظمة بدمائهم، وصنعوا ملاحمها بحماساتهم، وكانوا إليها معْبراً صنعوه بأجسادهم، ومناراً يدل عليها علقت فيه قناديل مضيئة، وتلك قلوبهم.

لقد وله الإمام بأبيه السبط وَلَهاً جره إليه على الطريق الحمراء، طريق البذل والفداء، تُكْلَم قدماه وتدميان، وتتقاذفه لهوات النيران، وتتعاوره جَيَشات العدوان، فلا يلين كأنه الصخر الجامس، ولا يضعف كأنه قلة من جبل، ولا ينحني كأنه الطود الأشم، حسيني الروح والمنهج، حسيني القلب والإرادة، حسيني الجود والعطاء، نفسه على راحتيه يتربص ساعة تراد منه فداء فيهبها، ويترقب أوان تطلب منه فيعطيها، لا يرى لها اختيار الرفض كأنها قد جبلت على التسليم، ولا يجد عندها الصارف عن الإجابة كأنها قد ألهمت الانقياد.

لقد تمثلت روح الله على هامة العلياء ينادي أباه الحسين بآسر النداء، تفوه به الروح الشاعرة المتيمة لا اللسان المفحم أو المنقطع، لا يحير أزاء مشهد الخلود البهي عديم الندِّ في الدارين لذلك الوتر الموتور، وكأني به يقول:

إيه أبا عبد الله..

يا لحن المجد ... ونشيد العلياء... يا عزة الرض... وشموخ السماء...

من بين أهل الأرض نلتها فصرت بها رمزاً... ومن دونهم ظفرت بها فكنت ثورة دائمة.

دمك المسفوح يجري في عروق الأرض يبعث فيها عزمة الإباء... وشلوك الطاهر فم صدّاح ينشد أرفع الحان الفداء...

ورأسك فوق القناة وحي يتنزل بآي النجدة للحق المهتضم...

هذا ثرى كربلاء تطوف به ملائكة السماء تقدس لجلال وقفتك فيه...

وتذوب من عجب لعظيم مشهدك عليه،.. فأنت السبط بضعة المصطفى. تطوي عادية الطغيان بيمينك حين تقوم في وجهها كالعاصف الغضوب يجلجل صوتك:... عودوا أيها التائهون من متاهاتكم،... وهبوا أيها الخانعون من نومة الخنوع،... وقوموا أيها المحرومون، وانهضوا من قبور الحرمان،... كيما نزلزل صروح الطغاة،... وندك عروش الجبابرة،... ونسحق بأقدام الرفض عوادي الضيم والاستعباد،.. ونجلو بنور الحق ليالي الغواية والانحراف.

أنت لنا يا أبا عبد الله على الطريق الدامية الضارية دليل ومنار... وأنت فينا إلى ذرى المجد عزم واقتدار... خطانا تقفو ـ على سبيل الإباء ـ خطاك... وقلوبنا على الراحات ترقل في طريق علاك... نهجتْ وليس تحور خطك الميمون،.. وانطلقت شامخة على هامات المنون... دفاعاً عن الإسلام المجيد وذباً عن حماه... وصداً لعاديات الليل قد اعتكرت على ضحاه... وأوبة به بهياً علياً إلى ساحة إلى ساحة الوجود... يحيى الألى دفنوا في طوامير الخلود... ويعيد للدنيا الداجية من مشرق الخير شمساً طواها الغروب... تجلو حدابير الشقاوة عنها قد أذابتها بِحرِّ الخطوب.

ولقد رأيته يغذّ السير يقفو خطى أبيه الرائد، ويدأب وينصب سعي المريد الطالب الجاهد، نصب عينه وسمعه سيد الأحرار يردد هتاف الحرية، ويشير بالبنان إلى تلكم المواقف العلية، صنعها إباءه الفرد المبدع، وأوجدها شممه الوتر الذي لم يشفَع، همه أن يعيد للتاريخ مكرورة صورة أبيه السنية،

وأن يرى ناظرة الحياة من جديد تلك الطلعة البهية، قد تجسدا واقعاً من العمل العظيم، وحلتا جسداً مرئياً من الفعل الكريم.

لقد تخلق الابن بالأب تخلقاً صيره نسخة طارفة توافق في الأصول والفصول تلك النسخة التي قرأتها الدنيا على مسمع الدهر ضمها سجل الخلود بين دفتيه، ولقد انماث كيان النفس والقلب في مصهر التأسي والاقتداء فخرجا كأنما هما شنجتان من تلكما الروح العالية والقلب الزكي، يُريانك وقد حجبتْ عنك القرون المتطاولة حقيقة الأصل الماضي التليد لهذا الفرع الطارف الوليد، ويعرفانك عظمة تلك النفوس المقدسة، وجلالة تلك القلوب الرافعة.

لقد اشتُقَّت ثورة الإمام من ثورة أبيه، ولا أخاف الظلم والحيدان إن قلت إنها هي معادة، أو هي في يومنا الحاضر موصولة بها في يومها الغابر، ولقد سقيَت شجرتها الغضة الناظرة على ثرى إيران من ذلك الوريد الحسيني النازف على أرض الطفوف، أحسن سقيها به ولدٌ أجاد التأسي بأبيه، والإفادة من دمه، وإبقاء الشعلة الوهاجة التي حملتها يده الطاهرة تعانق السماء، تنير الطريق طريق الفداء، فيبصر على نورها أبناء هذه الأمة اليوم مسرب النصر، والظهور من جديد، قرآنية محمدية بعد تلك الغيبة الواصبة التي لم تنقطع وقد تقطعت منها نياط القلوب، ولم تزل وقد زالت لها ثمالة الراحة والرضا بالعيش من قرارات النفوس والأفئدة.

إنه روح الله، ابن الحسين دماً وديناً، عاطفةً وعقيدةً، روحاً ورسالةً، فما عليه بعد ذلك ألا يشابه أباه؟ وألا يسلك دربه مهما حفت به الصعاب والعقابيل! وما عليه ألا يعطي الرحم المجيدة حقها من دواعيها الكريمة؟ وألا ينيل آصرة الإيمان موشوجة بآصرة المحتد الخيِّر اللهيف إلى الخير ـ مطالبها من رسوخ الارتباط، وصدق المجاهدة، وعظيم التحمل؟

أليس هو سليل ذلك الثائر وربيب تلك الثورة؟ أليس هو ذلك الوليد تحدّر من الحسين بضعة من صلبه الزاكي، وربته عاشوراء في مهدها المضرج بالدماء، وحضنها المليء بالأشلاء؟ فأولى له ثم أولى أن يحفظ أباه جسداً وثورة، وأن يديم امتداده دماً ونهضة، وأن يعيده متجدداً بدناً ودوراً، وكذلك فعل وما أروع ما فعل! حفظ أباه خير ما يحفظ ابن أباً، وأدامه أفضل ما يديم خلف سلفاً، وجدده أحسن ما يجدد الأبناء التالون آباهم الغابرين.

أنظر ثورته حيث شئت من فصولها وأيامها، هل تجد غير ثورة كربلائية المعين، طفّية الحماسة، حسينية الخلق والإبداع، يصنعها الحسين على عينه، ويسويها بيده، وينفخ فيها من روحه، لتخرج من رحم الإيمان الفرد والبطولة الوتر لأمة الإسلام في إيران خلقاً سوياً في أحسن تقويم، تحار به الفكر، وله ضياء يخطف البصر، عشقت فيع عيون الذين لم يألفوا غير الليل الأيهم فسموه في المالوف من ظلماتهم، واستنارت به في الداجيات أنظار الذين ترقبوه ملياً على صبر وعناد وإصرار، فسموه ظفر النور بعد غلبة الدَّيجور، وأوبة المجد الأثيل بعد الأفول الطويل.

أدر طرفك في ثورته مذ صدح بندائها حتى يومك هذا، لن ترى غير الحسين صيحة وحساماً ولواء، صيحة فائقة تدوي «يا لثارات الإسلام المضيع» في الصمت المطبق، وحساماً مرفهاً لمع بريقه في ظلام الخوف والخنوع، ولواءً رفافاً خفاقاً مهيباً قد عانق السماء، ترفعه كف خضيبة بالدماء، حيث نجمت ألوية الشيطان تطلع على الناس من كل مكان.

ناظر القلب البصير يرى جلياً دور عاشوراء في مسيرة الإمام وثورته، فهما قاما بروحها، ونهجا سبيلها، وقصد غايتها، وصالا بسيفها، وثاورا ببأسها، ويرى كذلك أن نداءات الحسين وشعاراته قد عادت جديدة على لسانه تنبعث من جنانه مكتوبة على جبين نهضته بدماء أمته (أريد الإصلاح في أمة جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم) أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر) لا أريد طاعة اللئام، ولا متابعة الطغام) (هيهات منا الذلة) (إني لا أرى الموت إلا سعادة، الحياة مع الظالمين إلا برما).

وتلكم هي الأمة التي ثارت مع إمامها تتمثل نفسها وقد هدرت بركاناً كربلائياً مع حسين الزمان، إنها قد نهضت لنصرة الحسين الذي قام يدعو من جديد إلى الثورة على الباطل والطغيان، وإعلاء كلمة الحق والإيمان، فلا عجب أن تراها تردد أن جهادها حسيني، وأن يومها الدامي عاشوراء متجددة، وان أرضها التي تصنع عليها ملاحم الفداء هي كربلاء معادة، وأن قائدها رجْعُ ذلك الوتر الموتور، وإيابه باللطف والنور، وأنها سوف لن تخيس كما خاس أهل كوفان، ولن تُسلِمَ إمامها كما فعل أهل الغدر والمكر، ولن تنقض الغزل أنكاثاً كما فعل أشباه تلك المرأة الخرقاء، وهاهي تكرر الإجابة (لبيك يا خميني، لبيك يا خميني) بعد أن تعيد النداء الحسيني (أما من ناصر ينصرنا) تتمثله قد صدر اليوم من فم زعيمها وهاديها ورائدها، وهو أجدر به لأنه وارثه غير منازع فيه، ولا مقصر في

حقه ليكون لسان هذه الأمة الناطق بتلك الحقيقة شاهداً غير مكذوب ولا مردود، على نسبة الثورة والثائر، ومعين النهضة ورائدها، وأصل القيام وباسله الهمام.

ثم جاء القائد ليقول قولة الحق، إن ما عندنا هو من الحسين ومن كربلاء، وإن نصرنا هو عطاء هو عطاء السبط الصريع، وإن مكاسبنا التي ظفرنا بها هي نفحات تلك الوقفة الخالدة على ثرى الحماسة الفريدة، وإن الحسين هو أصل هذه النعمة الغامرة، وباب هذه العطايا الوافرة.

وها هو ذا يوصي علماء البلاد، ورواد المنابر، وأبناء الحوزة، أن يواصلوا تأجيج تلك الحماسة الحسينية في الصدور، وأن يديموا فورتها في الدماء، ليدوم عطاؤها عندما يتربى عليها الرجال الرساليون المتحمسون لقضيتهم، الباذلون لها كل نفيس، المسترخصون من أجلها كل غال حتى بعد أن انتصرت الثورة، وظفرت بمرامها، فإن أساس الثورة وسرَّ انتصارها هو كذلك أساس بقائها وسر دوامها، وإن الحسين الذي فجر هذه النهضة الكبرى على هدي نهضته الأولى هو الذي يبقيها حية راسخة شامخة كما أبقى نهضته لا تبليها الدهور، ولا تخلقها العصور، بل هي حية تتجدد كلما أعقب عليها الزمان، وكر عليها الحدثان، وإن تلك الروح الحسينية التي حلت في جسد هذه الأمة الثائرة بعد ارتباطها به ذلك الارتباط الثوري المبدع الخلاق يجب أن تبقى في هذا البدن الكريم أرسخ وجوداً فيه، وأقدر على العطاء والإبداع، بتعميق العلقة، وتوثيق الوشيجة، وأحكام الآصرة مع واهب تلك الروح الطاهرة، ومثال التضحية والفداء، شهيد كربلاء.

وإن تلك النفحة العلوية التي عبقت في إيران منسابة إليها من ربوع كربلاء الدامية، بقيام هذه الدولة المجيدة، نفحة يجب أن تصان ليدوم وجودها المبارك الميمون مصدر خير عميم، وفضل جسيم.

ولا تزال هذه الثورة موصولة بمعينها، مشدودةً إلى رائدها ومدبرها، لتبقى تنهل من المعين روح العظمة والشموخ، وتأخذ من الرائد المدبر علم صلاحها وبقائها واستمرارها، ولا تزال كأمها ثورة كربلاء في الأتون الفوار للعدوان والظلم لا تحترق، وفي لهوات الكيد والبغضاء والمكر فلا تذوب، لأنها حسينية المبدأ، حسينية البقاء.

وإن تكن تحتشد الأمثلة والمصاديق للقضية الكبيرة في حياة الإمام (حب الحسين وعمق الارتباط به) فلا أجد ما يلزم سردها جميعاً ليكون ذلك برهان الصدق في تلك القضية، ودليل الصواب فيها،

فهي أوضح الواضحات في شؤونه، وأبين ما في دنياه من محامدها، وأعلى ما في خصال الحياة الرسالية التي يحياها، ولأضرب لك مثلاً واحداً يغنيك عن الجم الكثير، ويشرع في وجهك الباب إلى اليقين الكبير، تبصر فيه تلك الحقيقة بجلاء الشمس في رابعة النهار، وبهاء حقيقة الحب في قلوب العارفين الأبرار.

ها هو (محتشمي) شاهَد القضية مأخوذاً بفرط جلالها، لا ينساها وقد استحوذت على عقله استحواذ الغالبين، ولا تعزب عن باله وقد نالت فيه مقامها المكين، إنه يقول:

«في التاسع من محرم بينما كنت في ساحة دار الإمام، أتاني صهر الإمام آية الله إشراقي، وأبلغني بأن الإمام يريد أن يخرج إلى ساحة الدار لإقامة مجلس العزاء قبل ظهر اليوم بساعة، منك أن تستعد لقراءة مراسم العزاء على الإمام الحسين، فتحيرت في أمري لأني لم أكن مستعداً لذلك في ظروف كهذه، ومحيط كهذا المحيط، فقلت له: أبلغ سماحة الإمام وقل له بأني لست مستعداً لقراءة مجلس عزاء حسيني في الوقت الحاضر، ولا استطيع أن ألقي محاضرة تأبينية تناسب هذه الظروف في باريس وبين طلاب الجامعات، وفي محضر الإمام، حيث إن المراسم التي اعرفها هي نفس تلك المراسم التقليدية التي تقرا في مراسم العزاء الاعتيادية في إيران، وفي ظروف إيران، ولكن الإمام أرسل يقول: (قولوا لفلان [عني] بأني أريد أن تقرأ هذه المراسم الاعتيادية المتداولة نفسها).

فأحسست بأن الإمام لمحبته الشديدة لأهل البيت، يريد أن تقام هذه المراسم في باريس في لب العالم الغربي كما تقام في إيران وبالأعراف والأساليب والسنن ـ نفسها ـ النابعة من صميم الإسلام، والتي لا زالت قائمة ومنذ أكثر من ألف عام، وفي ذلك اليوم كان التجمع في دار الإمام حاشداً جداً، والمراسلون يشاهَدون بكثرة، وما أن كانت الساعة الحادية عشر قبل الظهر حتى جاء الإمام والحزن العميق بادٍ على وجهه، فجلس وجلست إلى جانبه، فأشار إلي أن اقرأ، فبدأت بالقراءة، وكان موقف الإمام هذا، وهذا المشهد أمراً غريباً، وغير منتظر بالنسبة لأولئك الذين حضروا هذا المجلس من مختلف دول الغرب ليرو مَن هذا الإمام الذي يقود هذه الثورة العظيمة اليوم ضد الشاه، وضد أميركا والاستكبار بأسره، وإذا بهم يرونه في اليوم التاسع من شهر محرم يجمع الناس حوله، ويجلس للبكاء على مصيبة جده الحسين. كان الجمع غفيراً، والمراسلون يسجلون هذه المراسم من

أول لحظة شرورعها وبدقة، وما أن التفتُّ حتى رأيت الإمام غارقاً بالبكاء، والناس من حوله أيضاً يبكون».

وإن تكن تحتشد الكلمات التي فاه بها الحفيد بمجد أبيه، والوصاة بحفظ خطه، ودوام الشعائر المعهودة في ذكراه الدامية المتجددة فإني اكتفي منها بهذا القليل اليسير، ففيه القدرة على أروع التعبير عن ذلك الأمر الكبير.

لقد قال رضوان الله عليه: «إن قضية سيد الشهداء هي السر في حفظ الإسلام، والعلة الأساس لبقائه، ويجب تخليد تلك الثورة التي قام بها ذلك العظيم».

وقال (رض) ايضاً:

«إن حفظ المساجد وشعائر العزاء الحسيني هو سر بقاء الإسلام وانتصار الثورة» و «إن كل ما لدينا من عاشوراء ومحرم».

الفاتح الأكبر

لفاتح العصر، بل فاتح الزمان، حفيد الرسول، وربيب القرآن، بعد ذلك الفتح الخالد، فتح النبي الرائد، خصال هن عماد ريادته وزعامته، وسر فوزه ظفره، ومدعى توفيقه وتأييده، بهن اكتملت له سمات الإمامة الحقة، ولهن سمّاه أخيار البشر الفاتح الأكبر، ووسموه بسمات الصديقين، ونعتوه بألقاب المقربين، ولا غرو أن ينعتوا ويسموا، ولا عجب أن يصدقوا فقد رأوا العجائب من أمر الفضائل في حياة الإمام الكريم، وأبصروا الجم المذهل من شؤون الروح الفاضلة والقلب السليم، ولمسوا لمس اليد؛ الطارف المدهش الذي لم يبصروه، بل قرأوه في متون التاريخ عن حياة الأنبياء والهداة والأولياء من أمور الريادة الإلهية الصادقة والقيادة الربانية الرشيدة.

لقد كان لإمام الأمة روح قيادية عجيبة نبعت من كيان الإيمان، وانبثقت من وجوده العظيم، وكانت من صفاتها التي أشرقت بها وأضاءت (صفة العلم والفقاهة) فالإمام قائد عالم عنده من العلم بربه، بعظمته، وجلاله، ورحمته، واستطاعته، وقدرته، ما يشدُّه إليه أوثق الشد، ويعمق وشيجته به وخلوصه إليه ويزيد اتكاله عليه واستمداده منه.

وعنده من العلم بشريعته، والتفقه فيها، ما يزيده حرصاً وإصرارا عليها، ويحكم ربط العرى بينهما، ويملأ قلب المتدين بها، المجاهد من أجلها رغبة فيها وحباً وتقديساً لها، وعزماً على البذل والتضحية على سبيل سؤددها وعزها وانتصارها.

وعنده من المعرفة بشؤون أمته وزمانه والعالم من حوله ما يعرِّفه طريق الصواب في النضال المقدس، ويدله سواء الصراط في الكفاح القرآني، ويبصره مواضع القدمين في ريادته لأمته على سلوك الطريق الذي أمره الله بسلوكه، حيث تحتشد سبل الضلال وتتشعب، وتتداخل وتتفرق، بمظاهر منمقة خادعة، والبسة مزوقة مغرية.

خذ إليك من ولائد صفة العلم والفقاهة عند الإمام هذه القضية البهية، في غمرة الفتن الداجية من الضلالات، وفي لجة الشؤون الطارفة والمستحدثة، وفي الرهج الصاخب للإعلام الضليل، وفي الإلزام القاهر لمراعاة شأن الواقع القائم بالحسنى، وتنفيذ حكم الإسلام بالحكمة البالغة، والفطنة

السابغة، وإبداء هدى الله في كل واقعة في وضع هو كالبحر الخضمِّ من الوقائع، وفي كل حادثة في عصر اسمه عصر المستحدثات، وتدبير أمور دولة كبيرة في عالم غارق في المتاهات، لا يريد لها أن تقطع الأواصر التي تربطها بهذا العالم فلا تعطيه ولا تأخذ منه فيما يرضي الله ولا يسخطه، و، وفيما تقتضيه سياسة العباد ومصالح العباد.

فما الذي فيه تلك السياسة وذلك الصلاح؟ وما الذي به يستقيم شأن الإسلام والأمة؟ وما الذي لا يتعارض وغبطة الدين والديانين؟ وما الذي بعد ذلك تشخص الحكمة أنه لا يوقع في أشراك الشياطين وأحابيلهم، ولا يجر رويداً إلى أوهاق الظالمين وأضاليلهم؟ كيف يوائم قضية الإسلام ورسالة القرن السابع بين واقع القرن الصاعد وحكم دينه الذي لم يزل تحت دثار القرون ساجياً منعته الحماقات القائمة أن يقوم؟ بأي عقل نافذ، وبصيرة هادية، وعصمة مانعة يسرح فقيه الزمان في الفضاء الممتد لدينه العظيم يجني من روضة ورود الأحكام العاطرة ليعلقها على وقائع الزمان وشؤونه ومستحدثاته تعطرها بالحكم السديد، وتزينها بالرأي الرشيد؟ وبأي اقتدار فقاهتيٍّ مكين يحتفر في بطون الكتب والمصادر والمظان الصحيحة ليفجِّر النبع الصافي، يرتوي منه الواقع الظمآن إلى هدى الإيمان بكأس الرشاد والسداد، ينقع الغلة الحرِّي، ويطفئ نار الصدى.

وحين تعصف بالبلاد أزمة شديدة أسمها أزمة القانون حار في أمرها أعضاد الإمام الذين نصبهم هداة وأعلاماً وأدلاء منفذين في أهل الشورى وحماة الدستور والقائمين على التنفيذ والتطبيق، ويبقى معها كل هؤلاء حيناً من الدهر جامدين على حيرة واضطراب، ومعرة خلاف وشقاق، وتطلع عليهم في دجى هذه المحنة شمس الإمام بنور الحكمة والبصيرة تدلهم سبيل النجاة مما وقعوا فيه، سبيلاً مهْيعاً أبلج وضاحاً هو سبيل الإسلام العظيم في حلوله للمشاكل، فإذا هي جنة فيحاء من قانون الإسلام وهداه، فيها حكم كل واقعة، ورشاد كل متاهة، وضياء كل عتمة.

ولله ما هو أعجب ما صنع، مازج بين روح العصر والرسالة، وناغم بين أحكام الدين والمدنية، وواءم بين فروض الشريعة والقرن، في عمل فذ خرج به الإسلام إلى الدنيا يحمل في يمناه مشعل الهدى ووحي السماء، وفي يسراه ألقى التمدن وبهجة التطور، والمناغمة الفريدة بين علم الروح وعلم المادة، لترى أمراً عجباً توشك أن لا تصدِّق عينيها فيما تريانه من حقيقته الماثلة الطالعة عليها طلوع الصبح من أفق العظمة التي صنعها (الفقيه الثائر) في إيران، ولقد أعانته على ما فعله البديع

فقاهته المجدِّدة المقتدرة، وفهمه الرائع لروح الشريعة وذوقها، وبصيرته بشؤون الزمان الصاعد، وحنكته الفائقة التي بها استطاع المواءمة والممازجة الفريدة دون حيف على أصالة الدين، أو جفاء لروح العصر، وكون الإسلام هو داعية الصعود والارتقاء، والمسابقة في مضامير العلم للوصول بالواقع إلى كماله المنشود في ميادينه كلها.

وعلم الإمام القائد هو العلم الصحيح النافع لأنه علم العمل، أفاده ليعمل به لا ليناظر به الآخرين، أو يتبجح، ويتطاول عليهم، واستقاه من نبعه الأصيل ليعرف حقوق ربه فيؤدِّها، وحقوق رسالته فيقوم لها بأعبائها، ولقد رأى الله منه ذلك فوهبه علم ما لم يعلم، واصطفاه ـ لأمانته الكبرى ـ أمانة القيادة دون سواه، وحباه بالنصر الأكبر، واختاره له دون من خلاه.

وعنده من صفات قيادته صفة (المحبة والهيبة والوقار) فقد وهبه الله في القلوب مكان الحب والإجلال، وأنعم عليه بالمودة التي قدر أن يجعلها لأوليائه الأصفياء في نفوس عباده ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾[1] وتحنن عليه بمهابة الناس له لأنه قد هابه، وبتوقيرهم له لأنه وقر ربه وعظمه، وأعطاه أزمة النفوس ومقاودها لأنه قد انقاد لخالقه تمام الانقياد، وأسلس له زمان النفس والفؤاد.

يراه الناس فيبكون، ويقتربون منه فيرتجفون، ويسمعون صوته فيخشعون، ويهتف بهم نداؤه فيهبون، بل إن محبته ومهابته في النفوس وانجذابها إليه لتبلغ حداً يحدثنا عنه (محتشمي) فيقول: «من الأمور الأخر أننا انتبهنا إلى مجموعة من طلاب الجامعات الفرنسيين يحضرون مجلس الإمام، ويستمعون كلماته كلَّ ليلة، فسألهم أحد الإخوة: أنتم تأتون كل ليلة إلى هذا المكان، فهل تفهمون أو تدركون ما يقول الإمام؟ وهل تعرفون الفارسية؟ فقالوا إنهم لا يعرفون الفارسية، ولا يفهمون كلام الإمام مطلقاً. قيل لهم فلم إذن تأتون إلى هذا المجلس؟! فأجابوا: نحن حينما نأتي إلى هذا المجلس، ونستمع إلى الإمام وهو يتكلم نشعر من الناحية النفسية بروحانية خاصة.

ومن ملامح تلك القيادة الربانية (الحكمة والتدبر) في كل المواقف والخطوات، وفلا ينقل قدماً في ساحة جهاده إلا بحكمة رصينة وتدبير محكم، فخطاه موزونة متسقة، صائبة غير خائبة، ماضية منطلقة غير متلكئة ولا كابية، ولا يضع الأمور في نضاله القرآني إلا حيث يكون الصواب في

---

[1] مريم، الآية: ٩٦.

مواضعها التي هي أهلها، وكانت الحكمة أس النصر بعد التقوى والثقة بالله، وعموده بعد طاعة الله وخشيته والتوكل عليه.

وكان من تلك الملامح (الشجاعة والجرأة) فلم تقف أو تبطئ به قدم الخوف والرهبة في مجالدته وطعانه، بل نهضت به جناح الأقدام والبسالة يثاور العاصف المنكر، ويباسل الهزاهز والخطوب، ويخترق التيار المائر غير عابئ ولا متوجل، قد ملأ قلبه العزم والبطولة، وفاض من إهابة الإقدام والجرأة، لم يغادر موضعاً يحتاج منه إلى مصداق البسالة إلا أتحفه به ليعطي عطاءه المنشود، ويبلغ بالإمام الهمام حيث يريد من مواهب لا يحضى بها الضعاف الخائرون، وعطايا لا يظفر بها المتهيبون المترددون.

وكان من ملامح تلك الروح القيادية (الحسم والقاطعية) فهي تحسم الأمور حيث يكون الحسم دواءها، وتقطع فيها قطعاً هو علاجها الذي لا تبلُّ بغيره ولا تشفى بسواه، وبعض مصداق ذلك من الكثير الوفير الشاهد عليه، موقف الحسم من الطاغوت قبل انتصار الثورة، وموقفه القاطع بعد انتصارها من الاستكبار وأعدائها في الداخل والخارج، تتجلى صورته الرائعة في موقفه من الأشرار في كردستان حين عاثوا فيها فساداً، وموقفه من بني صدر حين تمادى في غيه وعناده، وخبط في حالكة طغيانه واستبداده، وموقفه من الحرب، ومن سلمان رشدي، ناهيك عن أميركا.

وسل قضية (المنتظري) عن قاطعية الإمام التي قطعت نياط القلوب بالعجب منها وبها، أنظرها بناظر البصيرة الحيرى من الذهول لفرط علوها وتفردها، أو المستمسكة المعتصمة من الدهشة بحبل ما رأت وعرفت من شؤون هذا الإمام سليل العظام. سلها تجدها ليست تعني غير قطع بعض القلب لمصلحة الإسلام، وليست تدل إلا على إلغاء حصيلة العمر كان صلاح عمر الثورة في إلغاءها، وليست تفيد إلاّ أن الإسلام فوق كل شيء وقبله ولو كان رغيب الفؤاد وحبيبه، وتعني بعد ذلك قضية العدل الصارم لا تأخذه في الله والإسلام لومة لائم، وقضية الحسم الرائع كأنه الحسام القاطع، تقطع به لله وصالح العباد أفلاذ القلوب والأكباد. أليست تعني ـ والشامتون الحاقدون في مرصد المساءة والخبال، يتربصون بالغريم القديم لحظة الوثبة بأقسى النصال ـ أن في بعض ما يكون من الحسم لله وفيه شماتة الشامتين هو آية اليقين المكين؟ وما يكون للإسلام العظيم وفيه طعن العدو اللئيم هو آية البذل الجسيم؟ وأن أعظم الجهاد الصبر الحنظلي على العذل والشماتة والأذى، وتمزُّز

صاب الشجى؟ وهل الجهاد في سبيل الله إلا جهد البدن يكلم أو يقطّع، وجهد الروح تحرق بالشجن أو تمزَّع، وجهد القلب يطير أفلاذاً برائش الغم العياء، أو الطعنة البارعة النجلاء.

وتلك هي شمائل القوامة بالصدق والولاية بالحق، وفضائل الزعامة الرائدة والقيادة الفاردة.

لله هو حيث يقول في هذه القضية: «**الواجب الشرعي اقتضى أن يتخذ القرار اللازم لحفظ النظام والإسلام، لهذا أعفيت ـ بقلب دام ـ حصيلة عمري...**».

وكان من ملامحها (المثابرة والجد) والنشاط على كبر في الجسم، ووهن في الأعضاء، غطت عليها همة النفس العالية، ونشاط القلب المتدفق بالتوثب والاقتدار، والانطلاق في ساحة المجاهدة انطلاق المارد الذي لا يعي ولا يكل ولا يضعف.

ومن ملامحها (الاستيعاب والمتابعة) والنظر بعين الرقيب المشفق الحريص إلى كل جهات القضية وانحائها، وملاحقة صغير أمورها وكبيرها، وعدم التفريط في شيء منها بالإهمال والتضييع، وغض الطرف، واللامبالاة والاستهانة. إن هذا الفصل من فصول القيادة الخمينية يستحق وقفة وافية مع شأن الاستيعاب ودوره في قيادة الإمام.

وكان من خصال تلك الروح القيادية عند إمامنا (الرحمة) وهي أبهاها وأزهرها وأوفاها روعة وشموخاً، وأنظرها عليه رونقاً وجمالاً، لقد اتسم بها اتساماً طغى على غيرها من أضدادها فكأنه كتلة مجسمة من الرحمة ليس فيها مكان لسواها، فطمع فيها حتى العتاة المجرمون، وظنوا أنهم ملاقو وجهها الباسم الوادع رغم ما اقترفت أيديهم، ومَن رآهم أو سمع منهم أدرك أنهم يلوذون برحمة الإمام يستمطرونها بعض شآبيبها، برهاناً على أنهم فهموا وأحسوا عمق الرحمة الخمينية ومداها الفسيح الشاسع، لكنهم لم يفهموا حقيقة تلك الرحمة ومجالها، وأنها رحمة قرآنية، تستقي من رحمة الله، فلا ينالها ذوو المنكرات الفادحة، ومن ناءوا بحمل الأوزار الثقيلة من جناياتهم، بل هي للذين يعملون السوء بجهالة مع هذه الثورة الكريمة ثم يتوبون، أو الذين يظلمون أنفسهم بمعاداتها مغررين مخدوعين، فيستصلحون بها، وتؤلف قلوبهم بألطافها، أما أولئك الذين يسفكون الدماء، ويهلكون الحرث والنسل، ويفسدون في الأرض، فإن لهم في النفس الخمينية حداً صارماً من السخط والغضب، ووجهاً مكفهراً من الكراهية والشنآن، فلا هوادة ولا لين ولا تفريط في حدود الله وأحكامه.

ومن ملامح تلك القيادة الرشيدة (النفس الطويل) الذي لا ملل فيه، ولا سأم، ولا انقطاع، ولا حصر، ترد عليه الأمور بكل أثقالها وزحماتها فيتدبرها ويقلبها ظهراً لبطن، ويوجهها وجوهها الصائبة، غير برم بها، ولا ذي ملل منها، ولا مستاء من طول وقفته معها ومكثه رهن الفكرة فيها.

وكذلك كل معالجته للأمور الأخرٍ التي لا يصلح لها الحل القاطع في لحظة واحدة لأنه خلاف حكمته، بل ينبغي لها المهل، وسعة الصدر والأناة، حتى تبلغ حداً يكون الحسم فيه وهي في نهايتها كالتريث والصبر وهي في بدايتها.

والمتدبر الناظر بباصرة القلب يرى الكثير من مواقف الإمام من أمور جهاده قد جرت على هذا المنوال، وسلكت سبيله، مفصحة عن حقيقة كبيرة في شأن القيادة الربانية التي قاد بها الإمام أمته، وفجر ثورته، وصنع دولته.

و(سعة الصدر) في تلك الروح القيادية معْلم بارز مثير، عجب له الكثير، بل حاروا فيه، فإن للخميني صدراً ضاقت عنه الدنيا ولم تسعه، فامتدَّ وانداح حتى وسعها هو وأحاط بها، فلا بدع بعد ذلك أن يتسع للهفوات والسقطات والتجاوزات؛ ظلماً له، وإجحافاً بحقه، وتعدياً عليه، أو على دولته وأمته حيث يكون الحلم أجدى، والصفح أولى لداعي الاستصلاح أو الحكمة، وكذلك هي سعة الصدر عنده في كل أمور ثورته وشؤونها، فهي توأم النفس الطويل، والمتابعة الوئيدة، والحرص الصابر المتأني، حتى في مكارهها الشداد حيث تتقطع نياط قلب الحليم ليندفع إلى تعجل المواقف أو ارتجالها، والإتيان بها في غير مواضعها، ليفسد أمره، وينقض غزله، ويهدم بناءه.

و(الحس السياسي) في قيادة الإمام فجر طالع بنور ساطع، لم تخف أنوار طلعته السنية على عينين مبصرتين، فلدى إمام المسلمين حس سياسي ثاقب ملم مدرك، قد يرى من خلف الستار، ويشم من وراء الحجب، وينظر بنور الله فيغدو كأنه علم الغيب يخبر بما كان، وينبئ عما سيكون حقاً وصدقاً، غير معقب بالبطلان ولا متبوع بالتكذيب.

وكذلك هي سياسة العالم العارف البصير، الواثق من أمره وربه، يغذيها العلم بزاد المعرفة والإلمام تسوس بهما، ويزودها العرفان بالبصيرة الثاقبة والنظر بالنور الإلهي فتبصر بهما طريقها والعالم من حولها، ويهديها الاتكال على الله والاعتماد عليه سبل الصواب والظفر فيما تفعل وما تقول. ولنضرب لك أمثلة على ذلك من حياة إمامنا الكريم ومواقفه.

حين أخبر بعزم الفجرة الكفرة في بغداد ـ يوم كان هو في النجف ـ على إعدام الكوكبة الأولى من شهداء الإسلام في العراق، وحيث استنكر ذلك وتأباه، وسعة جهده أن لا يكون فلا يخسر الإسلام بعض أبناءه الأوفياء، وحين لم تعطه زمرة البغي أذناً صاغية، قالها منبثقة من حسه السياسي الحديد النظر، إن لم نقل إنها نابعة من علو الله بتوفيقه ولطفه:

«**لأفعلنَّ فعلاً لا يعلمه إلا الله ورسوله**».

ولقد عجب لها منكرين بعض من سمعوها منه، وجاءت الأيام لترى الإمام الخميني يحمل سيف النقمة والغضب ليثأر لكل الدماء الزاكية التي أهريقت بحراب الجناة، وكأنه المارد الصائل قد شدّ على معاقل العفالقة اللئام يهدها هداً، يبير ويأسر ويشرد، فعلة الموتور يطلب ثأره وتراته.

وحسه السياسي في زوال الشاه وبواره وذهاب ملكه، وحسه الصائب في باريس بهروب الطاغية من إيران معقل الثائرين الأباة، وكان الأمر كما رأت بصيرة النافذة، وعين فهمه السياسي التي لا ترى غير الحقيقة مذ حباها الله ببعد النظر وحدته وصوابه.

وحسه في أمر أميركا ومكائدها للعودة إلى شانها في إيران مستعمرة هاضمة خاضمة، فلقد قالها الإمام قولة بارعة صادقة لم تكذبها الأيام، ولم تخطئها الحوادث، تلك هي:

«**إن أميركا لا تستطيع أن ترتكب أي حماقة أخرى مع إيران**»

وكأنها كانت كلمة موحاة فلم تخالف الصدق في الواقع المشهود، ولم تنأ عن مسير الصواب في زحمة الواقع والأحداث، وبقيت أميركا عاجزة ذليلة خاسئة لا تقدر على شيء مع شعب غيران المؤمن الثائر، وظلت إيران ظافرة شامخة.

ثم مع كارتر قبل حملة الانتخابات الرئاسية في أميركا، حيث أوحى للإمام حسه السياسي العجاب، وحياً يراه صادقاً كأنه وحي السماء بالكتاب، أن يقول:

«**على كارتر أن ييأس من الفوز بالرئاسة**»

ولعل كارتر قد يئس بعد سماعه لهذه الكلمة لما رآه من مثيلاتها السابقات اللواتي انطقن من فم الإمام ليكون الواقع على طبقهن غير مكذوبات ولا مردودات.

ومع صدام في الحرب حيث قالها من حسه العجيب:

«**إن صداماً خاسر**».

هذا والحرب كانت قائمة على ساقها، مستعرة على طول حدود البلد الإسلامي، وهي كما يرى الرائي بين كرّ وفرّ، وبادي الرأي أن صداماً في أوج قوته العسكرية، وأنه يملك من السلاح الحديث ما لا تستطيع إيران مواجهته ودحر جيوشه على قلة ما تملك من وسائل المواجهة، أما الحقيقة التي خفيت على الكثير ولم تخف على الإمام ذي البصر الإيماني المصيب كبد الحقيقة في رؤيته فهي: إن الكفر وإن كان في الظاهر منتصراً هو الخاسر، وإن الإسلام المغلوب بنظر الناظر، هو الذي سيفتح الفتح الباهر.

وكان في هذه الحرب كما رأى حس الإمام، عزٌّ إيران وعظمتها وشموخها، على أن المبتدئ وقت صدور القول المنبئ عن ذلك الحسِّ (عزة البلاد وشرفها في هذه الحرب) قد سلب الأرض، واحتل بعض المدن، وحاصر الأخرى، وقد وقعت في مدى اللؤم البعثي يصب عليها وابل الحقد والكراهية.

وإذا كان حق اليقين في فهم الأمور يقول أن حرب صدام هذه كانت بابه المشرع إلى غزو الكويت، وهذا ما كان يراه الإمام حين أوحى إليه حسه السياسي ذلك، فحذر دول الخليج من عاقبة دعمهم لصدام الذي سينقلب عليهم بعد حربه مع إيران، ويجازيهم بالسوءة ـ وإذا كان الأمر كذلك فإن صداماً أهلك نفسه في تلك الحرب، ما دام مستنقع غزوه الكويت الموصول بمستنقع حربه على إيران قد ابتلعته في تسلسل مذهل للأحداث، كان مآل الطاغية المغرور في نهايته ذلك الانهيار التاريخي، على مرأى الدنيا بأسرها، وعلى حال منكرة من الهزيمة لا يتسع لبشاعتها البيان، ويكل عن بلوغ حقها في تعريفها ذرب اللسان.

ثم مع المنافقين الذين بسطوا يد السوء لدولة الإسلام وكادوها أشد الكيد،ومكروا بها أشد المكر، وشهروا في وجهها سلاحهم وهي في أقسى ظروفها، وأخطر أيامها، حيث الحرب والحصار ومكائد الاستعمار، واستخرجها حس الإمام من معدن الصدق والسداد منبئاً بها أن هؤلاء المنافقين لن يستطيعوا أن ينالوا من الثورة، ولن يفلحوا في كيدهم، وأن دأبهم خسار، وأن مكرهم إلى بوار، وأن عاقبة السوء ستحيق بهم، وأن الثبور والتباب هو غاية أمرهم، هذا بعد أن كان قبل ذلك حيث هو بالنجف الأشرف قد أعرض عنهم ولم يأمنهم بالرغم مما ظهروا أو عرضوا من لباس الإسلام المجاهد، لأنه رآهم أو رأى عاقبتهم بعين حسه السياسي أشراراً وفجاراً غاوين، وأعداء ألدّاء للحق المبين.

وكانت نبوءته رضوان الله عليه عن مصير الماركسية في رسالته إلى غورباتشوف محيرة العقول، فهو فيها يخبر زعيم القطب ألاستكباري الثاني في الكوكب ـ أنه يسمع أضلاع المنهج الإلحادي تتكسر في الإتحاد السوفيتي ، لتنتقل الماركسية إلى متحف التاريخ، ويدعوه إلى إعادة النظر في الذات، والبحث عن البديل والمنجي، وهو ليس في الغرب الرأسمالي بل في النظام السماوي.

وكان اعتراف غورباتشوف بشموخ الرسالة، وصدق النبوءة التي كانت فيها، وبالخطأ في عدم التعاطي المنطقي معها في جدية وحماس، ـ مدعاة الإعجاب بالخميني المسدد، والإكبار لهذه الشخصية الإسلامية الرائعة حتى لدى غير أتباعها ومريديها، وهم ينظرون الواقع المذهل في معسكر الإلحاد المنهار ينحني بخضوع وإجلال لهذه النبوءة الفذة التي انطلقت من بصيرة الحق والرشاد، لتتسنم عرش الصدق والسداد.

يقول غورباتشوف عن الرسالة والمرسل والنبوءة بالحرف الواحد:

«لقد كان خطاب آية الله الخميني في نظري لكل العصور وعلى مر التاريخ، عندما قرأت الخطاب وجدته من شخص مفكر يحترق قلبه لمصير العالم، لقد استمعت للخطاب بدقة، وطالعته، واستنبطت منه أن صاحبه يعيش القلق لوضع العالم، ويريد مني أن أتعرف الثورة الإسلامية، وأدركها أوسع مما أعرفه عنها الآن.

وعندما طرحنا الخطاب أمام اللجنة المركزية للحزب الشيوعي أحس الأعضاء ـ وهم يملكون نصف العالم ـ أنه خطاب مفاجئ غير متوقع، وكانوا ينظرون إليه بالاحترام والتقدير، وقالوا أن زعماء إيران يدعون إلى حفظ القيم الإنسانية في العالم، ويؤسفني أنني لم أستطع حينها أن أسافر إلى إيران وألتقي الإمام عن قرب، وإنني اليوم أتذكر الإمام بكل إكبار واحترام، وأعتقد أن فكره كان فوق زمانه، ولا يمكن من ناحية البعد المكاني حصره في زاوية معينة، وأنا الآن حين أرى ما يحل بروسيا أتذكر قوله في رسالته «إنني سأرى الماركسية في متحف التاريخ قريباً» ولو أننا كنا جديين مع نبوءة آية الله الخميني حينها لم نكن لنرى ما يحصل الآن، ولم نكن لنسمح بأن يكون وضع بلادنا على ما هي عليه اليوم.

ومن سمات تلك الروح الريادية الفريدة (الاستقامة والصراحة) فلم تشط به الأهواء عن جادة الهدى، ولم تفسق به الرغبات عن طريق الصواب، ولم تحد به شهوات النفس عن سواء الصراط،

حيث كان الكثير من تلك الرغبات والأهواء سبيلاً للخلاص من مشاكل جمة تتكنَّف ثورته، والفوز برغائب وافرة تلهف إليها، لكنها الاستقامة على الحق كما أمر الله تأبى عليه فيتأبى كجده علي عليه السلام أن يعصي الله حتى في جلب شعيرة يسلبها من نملة، وكان صريحاً في قيادته، لم يداور أمته ولم يراوغها، ولم يكتم الحقيقة عنها، ولم يزو عن بالها ما ستعانيه من ثورتها الوتر بلا مثيل، وما تلقاه من عنت العالَم، وغلواء المعارضة، وشبوة الأضغان والمكر، ولم يعدها الوعود الكبيرة الكاذبة، ولم يمنِّها، أنها ستدخل جنة الأرض بعد ثورتها، بل قال لها: إن ثورتك أعظم ثورة في التاريخ المعاصر، وإنك لكي تبلغي بها غايتها ستبذلين النفوس والنفائس، وستعطين الكثير من الضحايا، وتسيلين لها المزيد من المهج، وتَرين وتَسمعين الكثير من الأذى من الكافرين، وأعداء الله، والمنافقين، والجهلة المغفلين، وإنك ستتعرضين لأنواع المحن والمصائب، وأفانين البلاء والعناء.

وحين شبت نار الحرب، واستعر أوارها، وحمى وطيسها، لم يكتم الإمام عن أمته الحقيقة فيها، فلم يعدها حرباً قصيرة، سهلة المؤونة، خفية التبعات، قليلة الخسائر، ليستدرَّ بذلك رغبتها في الدفاع والمقاومة، واستمرارها في النضال والمجاهدة، وعدم ضعفها وتشاؤمها في الصيال مع العدو الفاجر، بل صارحها فأخبرها أن الحرب طويلة، وأنها كبيرة المحن، كثيرة الآلام، عسيرة الدرب، فلا تخوضها وتصدق الخوض فيها إلا أمة مؤمنة، صابرة، محتسبة، مجاهدة، عقائدية، راسخة في إيمانها ومعرفتها بطريقها ووظيفتها في هذه الحياة، ودورها الجسيم فيها.

ولم يكذب أمته ما يريده من هذه الحرب، ولم يحجب عنها حقيقة ما يرومه لها من النهاية الطيبة، وهي إسقاط صدام وحزبه، وتمكين الشعب المسلم المستضعف في العراق من إقامة دولته، وتشييد صرح جمهوريته تحت ظلال القرآن وفي أفياء الإيمان، ويعني هذا ما يعنيه من حقيقة هذه الحرب، ولون المجاهدة وحكم التضحية فيها، حتى يحصحص الحق، ويكون قدر الله لهذه الأمة المباركة.

ثم جاء الأمر العجاب في صراحة أمته في موقفه الأخير من الحرب، فحين يجد أن دينه ـ بعد تشخيص المصلحة ـ يفرض عليه ترك الصيال الذي كان يراه ديناً يدين به ربه العظيم، وفرضاً يلزمه به بارئه الكريم، دفاعاً عن شعبه ووجود ثورته، ومطالبة بحقه وظلامته، ونصرة للمقهور المضطهد في سجن العراق الكبير، ونكالاً لما وما خلفها، وعبرة لأهل الشرور.

حين يجد ذلك لا يتأبى في تقوى وترٍ، وصراحة لا شفع لها؛ أن يقول الحقيقة ولو كانت كأساً من الصاب يتمززه أنفاساً، ولا يتكأَّده أن يفصح عما يقتضيه حكم الدين وصالحه ولو كان السم الزعاف يتجرعه ولا يكاد يسيغه، على ما في ذلك من مضاعفات العناء، وتارات البلاء وأطوار البرحاء، من مساءة الولي الحميم، وشماتة العدو اللئيم، وكبوة الهدف السليم، والمخالفة عن أمر كان إلى أيام خلت من أعلى الفروض وأسماها، والعدول عن رأي نابذته الدنيا كلها على العدول عنه فنابذها وعاداها، وما قبل ذلك وبعده من جمر الحسرات والدموع تكوي به القلوب والمآقي للثواكل والأرامل اللواتي فقدن ثمار القلوب وشركاء الأعمار في لهوات نار المعتدين، وسيل الدماء والأموال التي جرت وبذلت على الدرب الأقدس تقرباً وتسامياً إلى رب العالمين، تنشد نصر دينه المبين، واللوعات الزكية الطهور لعليل ناقص عضو بعد كمال خِلقه، وذي عاهة بعد تمام صنعه، أو غائب عن رشد بعد وفور عقل، أو أشل لا يقدر أو كله على شيء؛ أعطوا فريضة الحرب حقها في محراب العاشقين، كانوا حِلْسه لا يغادرونه شوقاً وولاء، وانقياداً وإباء، لا يملون، ولا يسأمون، ومن عشق الحقيقة فهام بها لا يمل هواها، وهو زاد روحه وقلبه، فكلما طال دربها زاد حبها، ولا يستكثرون البذل ـ وإن من العشق ما تبذله في طريقه كرائم النفوس، وتستَرخَص غاليات الأثمان ـ ولا يَلوون العنان نكوصاً واستسلاماً، ومن استباح الهوى العرمرم المقدام صدره فصيَّره حماه، ولم يدع فيه موطئ قدم لشيء سواه، لا يعرف غير السير الصبور المغذِّ إلى ذراه.

وكان من الإمام في ذلك حديث قلب عارف، ودود، ملهم، شفيق، أضرم نار الشجون، وأجرى ماء الشؤون[1] وحرك كوامن اللوعة في أحشاء الجلاميد، وهيج الأحاسيس في الصخر الأصم، ولم يعدم ـ وفؤاده الزكي المضام يقرأ كلماته على سمع الأمة المحبة الولهى ـ أن يجده كما هو انقياداً منها، لا يشوب صفاء استسلامه كدر الريب المريض ولو دعاها من النقيض إلى النقيض، ورآها كما ألفها طاعة واعية مدركة في قمة الوعي البصير، لكأنها معه البليدة العمياء حيث تدار تدور، ودوى لها نداء جاهر عظيم ما دامت له الأرض، وخشعت له النفوس، وخلعت به أفئدة من يتربصون الدوائر من هلع، وضاق بهم الفسيح الرحب من حيرة، ودارت أبصارهم كالذي يغشى عليه من الموت... (رضينا...رضينا).

---

[1] الشؤون: جمع شأن وهو مجرى الدمع إلى العين. (لسان العرب/ج ١٣).

وكان بعد ذلك زحف عارم ملأ ساحة البلاد وطرقها يعاهد (ولاية الفقيه) بعهد مجدد على الولاء المؤكد، وكانت مكرمة الدين الحق وأهله، تسلس به لأوليائه الأزمة، وتذل بسلطانه لقادته الأعنة، وتفرش لهم الصدور، وتباح القلوب، وتزال إلى أحضان النفوس العثرات في درب ممهدة للقادة الفاتحين ليملكوها كما كانوا ظافرين غير منازعين ولا مشاركين.

وكان أظهر ملامح تلك القيادة وأعلاها شأواً، وأسناها وجهاً (حرصها على الإسلام) وطمعها البالغ في أن تسود كلمة الله، وتخذل كلمة الباطل، وأن يستعيد الإسلام مجده التليد، نوراً ثاقباً ممتداً، وهدى مستطيلاً شاملاً، وفتحاً غامراً سائداً، ورائداً مهيمناً على الدين كلهو الحكم فيه على الأرض لله، والأمر له وحده، لا منازع له في أرباب الأرض، وأصنامها، وقواها المنتفجة كذباً وخداعاً.

وأمة الإسلام كان لها تلك عند تلك القيادة القرآنية جرح نازف غماً وكمداً، وما يشبه البخوع أسى وحسرة لما ضيعه من جدها وعظمتها حين ضيعت إسلامها، وما آلت إليه من الذل والهوان، والعبودية للطغيان، واستبدال الهدى بالضلال، والركون إلى الباطل، والذهاب عن الحق، والتيه في مفارز الضياع والحرمان، والإعطاء باليد، والتسليم للاقتدار المزيف لقوى الشر، والتمكين المشين لمخالبها وأنيابها.

وما زال نداء هذه القيادة مدوياً أن (أوبي يا أمة الإسلام إلى أحضان الرشاد، وارجعي عن الحمقات التي أدمت قدميك، وأحرقتها بعثارها ونارها، إلى رحاب الهداية حيث سعادة الدارين، وكفي عن التركاض خلف الأوهام والسراب، وعودي إلى الحقيقة الناصعة لدينك الحنيف لتعيشي فيها محبورة موفورة، وتخلصي من أزلام الشياطين ونُصُبهم الذين أردوك حياض المهانة، وخذلوك في كل الأدوار، وألبسوك ثياب العار والصغار، وأوقفوك أمام (إسرائيل) عاجزة ذليلة، تشتمين فلا تحيرين جواباً، وتصفعين فلا تحرِّكين يداً، ويغار عليك فلا تغضبين، ويذبح أبناؤك بين يديك على مرآك فلا تحرِّكك دواعي الأمومة الممسوخة أو المكبلة).

هاكها خذها في الحرص على الإسلام أرفع آياته وأسمى بيِّناته، موقفاً يقفه الإمام لربه ودينه وأمته، وفيه بادي الرأي بالنظر الدنيوي عليه وعلى بلاده وثورته مضاعفات الآلام، وعرامات اللئام، وعذل العاذلين، وتخبيل المخبِّلين، وسهام الحاقدين، وفيه ـ بين يدي ذلك ومن خلفه ـ رعود مدوية من الوعيد والتهديد، كأن طلعها رؤوس الشياطين، من قدرات سموها كبرى فذلوا لها خاسئين، وألوان

وحالات من التخويف كأنهن الليالي المغدقات العاصفات، والرياح القاصفات، وموج يغشاه موج في بحر لجي عباب، وسحاب أسفع من فوقه سحاب، راح يعاني منها الزورق الرافض الأبي بجرم نهجه العليّ، فيأبى أن يلين أو يستكين لأنه الحق المبين، ويبقى يمشي على هامات البلايا والأذى، يتجرع مرارات الشجى، فلا يزيده ذلك إلا عزمة وصلابة واحتساباً، تزيد أعداءه مخافة ولوعة واضطراباً، هناك حيث تسعرت حمية الإسلام في قلب ذلك الأسد الهمام، وقالتها (ولاية الفقيه) النقي الطاهر بصوت ثائر جاهر (الموت للمرتدين، والفناء للحاقدين) حين طلع (رشدي) بوجه الإلحاد الكالح، المتدجِّي بحقده الأدكن، فشنها على الإسلام وحرماته العظيمة وآياته الكريمة حرب اللغو والهذيان والكذب والبهتان، فأي حرص على الإسلام ذاك الذي يؤرق ليل هذا الشيخ الكبير، فيبقى يسامر النجم المنير، يسلبه السهاد المقدس تلكم اللحظات الوادعة، ويحرمه الأرق الشريف أوقاته الحالمة الهاجعة، وتنأى عنه المرابطة الصابرة الساهرة بأشهى ساعاته، مرهف الحس، واثب النفس، رامق الطرف، مصلت السيف، حياطة على دينه العظيم، وحرصاً على نهجه القويم، وغَيرة الأدعياء والكاذبون غافلون وادعون هاجعون، حامت على عيونهم طيور الكرى، فناموا نومة من أحشاء الثرى، يظلَم الإسلام فلا ينتبهون، ويستعديهم فلا يهبون، ويستصرخهم فلا يصرخون، وأني لهم وقد اعطوا الدنية وذلّو للظالمين، ومشوا في دروب المتاهة على نهج الشياطين؟

و(حب الأمة) أمة القائد في إيران له في وجود القيادة الخمينية ــ وهو من خصالها الباهرة ــ سنام المقام، وعلو المنزلة، والصدارة في هوى القلب، وعاطفته، وتوجهه، وحرص النفس وحياطتها واهتمامها، فهي الأمة الرائدة التي ضحت بالأبناء الأوفياء، وسخت بالدماء، وأعطت أغلى العطاء، مظاهرة للحق، ومؤازرة للهدى، ومناصرة للإمام القائد، ومعاضدة له على طريقه الدامية إلى غايته السامية ــ في مجاهدة عزَّ نظيرها، ومناضلة قلَّ بل عُدِم مثيلها، وصيال قد نأى بل استعصى على المشابهة والمحاكاة.

ولم يزل لهذه الأمة على لسان الإمام شكر وتكريم لم يماثلا، وثناء وتعظيم لم يشاكلا، وتوصية بها أبلغ توصية، وأمر حازم صارم بالبذل لها، والحرص على راحتها، تسخير كل إمكانات البلاد لها، بعد أن كانت تسخَّر للمستعمرين يتنعمون بها فكهين، وتمكينها من التمتع بثروات أرضها بعد أن كانت تلت ذبها الوحوش الكاسرة للقوى الآسرة، وظل في قلبه لأمته وفاء وإخلاص غريب الطور عجيباه،

إذا لم يتجسد في الواقع مثلهما من أدعياء القيادة والريادة المخادعين المخاتلين، فالإمام قد وفى ويفي لأمته أروع الوفاء كما له حين بايعته على الطاعة والانقياد فحققت فيها أرفع المصاديق وأعجبها، ولم تر الموت ـ بأفظع أشكاله ـ حائلاً دون بلوغ حقيقة الوفاء، والاستقرار في بحبوحتها، وأخلص لها إخلاصاً منقطع النظير كما أخلصت له كذلك، فوهبها قلبه الزاكي ونفسه الرضية، ومحضها الهوى والرغبة والنصح، وصفَّى لها توجهاته وتطلعاته من كل شوب، ونقّى اهتماماته لها وسعيه من كل عيب، لم يكذبها قط، ولم يخذلها، ولم يغفل عنها، ولم ينصرف حيناً عن دنياها إلى دنيا نفسه، ولم يُشغل بهمومه عن همومها، ولم يؤثر راحته بالقعود على راحتها، ولم ينس قطٌّ أمته وعنائها على طريقه بهدى قيادته، تنشد الحق الذي ينشد، وتطلب الحرية التي يطلب، فلم ينس بعد ذلك أمته هذه مهما اعتكرت عليه ليالي الآلام، واكتنفته دياجير المشاكل من هنا وهناك، وأحاطت به هموم الدنيا قاطبة، ولم يخلو قلبه ولو مقدار نقير من الاهتمام بها، والإخلاص كل الإخلاص في ذلك الاهتمام، غير واهن فيه، ولا وان، ولا مخادع، ولا مصانع، وكان أول معالم إخلاصه لها أن خلصها بكل اقتداره ووسع طاقته من أي لون من ألوان الخضوع والتبعية، حتى لو لبس لباساً خادعاً يحجب عن النظر الضعيف حقيقته المستورة، وأراد لها أن تعيش حرة، سيدة نفسها وموقفها، لا تعنو لأحد، ولا تخضع له، ولا تأتمر بأمره، ولا تذل بالانقياد له، بل إنه يدعوها إلى التحرر من رق الاحتياج إلى أحد في كل أمورها ومطالب حياتها، فدعاها دعوة صادقة إلى السعي الجاهد، والعمل الحافد، حتى تبلغ مكانة الاكتفاء ومنزلة الاستغناء، ليتحقق بذلك استقلالها كاملا غير منقوص، وتتجسد سيادتها تامة غير مبتورة وهذا هو غاية الوفاء والإخلاص لها، والصدق في قيادتها وهدايتها، ودلالتها على رشادها في كل شؤونها، في رهج هذه الضلالات، وهيجها، وشبهاتها، وعرماتها، وفي عنف هذه الحياة وظلماتها، وخبطها في غياهب عماياتها، وفي كَلَب هذه القوى المستكبرة، ولَجَبها، وأهوالها، وفظاعات شرورها، غير هيّاب ولا متلكئ، ولا محابٍ ولا مداجٍ، ولا متوجس من عقبى ما يصنع لأمته، والغاية التي يقودها إليها، لأن الله معه وهو ثقته ومنشوده، وهو غاية مسيره ومقصوده.

و(حب المستضعفين) في الدنيا والاهتمام بهم، من سجايا تلك القيادة العالية وخصالها الحميدة، فالإمام يحب المستضعفين جميعاً كما هو حبيبهم جميعاً، وهو دائب الفكر مشدوده بهم، كما هم واصبوه موصولوه به، قد ذاب حباً لهم، ورحمة بهم، وإشفاقاً عليهم، فذابوا هم شغفاً، وإعظاماً،

وتقديساً، وشوقاً إلى اليوم الذي يرون فيه طريقهم قد وصلت بطريقه، وقيامهم قد وشِجَ بقيامه، وتحررهم قد تحقق تأسياً بتحرر أمته.

إن نداءه الكريم لَيدوي في أسماعهم فتجيش به قلوبهم:

«**يا مستضعفي العالم انهضوا، وانقذوا أنفسكم من مخالب الظالمين والمجرمين**».

«**إننا نذكر جميع المضطهدين أن الحق يؤخذ ولا يعطى، فليتنفضوا بروح ثورية وعزم ثاقب لإقصاء القوى المتجبرة عن مسرح التحكم بمصير الإنسان، والتلاعب بالحياة والتاريخ**».

وما أروع في هذه القيادة الخمينية القرآنية(حُبَّها وإكبارها للشهادة) وعشقها للشهيد، وصبابتها به لما تعرفه مما عرَّفها الله في دينها من حقيقتهما، ودورهما، ومنزلتهما، فالشهادة وأهلها حقيقتان هما أسمى حقائق الإسلام وأرفعها، واجلها قدراً، وأعظمها مكانة، وهما سر البقاء المكتوب للإسلام، ومغزى الخلود المقدور له، وهما حارسه الأمين، ودرعه المتين، وحصنه الحريز، وحاميه المقتدر العزيز، وهما مفتاح نصره وعلائه، والسبب الوثيق إلى إظهاره وإحيائه، حيث تتكثف عليه دواعي الحقد المسعور، وتأتلف عليه أمواج الشرور، وتشتجر حوله رماح الصنمية، وأسنة الجاهلية، لتبسله وتبيره، فتتطمس معالمه وتمحق نوره، وما زالت الشهادة والشهيد مع الإسلام البلسم الذي يأسو جراحه في صروف كربه وبلائه، والعزم الذي يقوم به في مثاورة أعدائه، والصرخة التي يطلقها في حنايا الصمت يستثير بها الهمم الخامدة، ويستنهض العزائم الراكدة، فتستعر حمية الإسلام في قلوب الكرام، تصنع الحماسات، وتخط في التاريخ سطور البطولات، تغذّيه زاد الحياة والمدافعة والبقاء في سَورة الخطب وشدَّة البلاء، حتى بلغت به يوم الظفر الكبير، حيث طلع صبحه المنير، في أفق إيران المجاهدة المضحية ليعمَّ فيها بالضياء دنيانا الصادية، يبرِّح بها الظمأ الشديد إلى نميره السلسبيل، ويسعرها الشوق إلى شروقه المحيي بعد طول الأفول. وللشهادة والشهيد ــ بعد ذلك ــ منزلة عند الله لا تسامى، ومحل لا يفصح عن حقيقته أبلغ الوصف، وأجرٌ لا يعلم مقداره وآثاره إلا الله ــ سبحانه ــ ونعيم لا تدري نفس ما هو ليعبر عنه اللسان بما أوتي من طاقة البيان، وإذا رأيت في دنيا الإمام رأيت ثَمَّ أمراً عجيباً من تعلقه بالشهادة، وإجلاله لها، ولهفة إليها، ومن إعظامه للشهيد، واحترامه بل تقديسه له تستبين أفانينَ وألواناً في ذينك الأمرين من فعاله وأقواله. فكان دائماً يطلب

الشهادة، ويدأب في ورود حياضها، ليلتحق بصفوة أهل الآخرة وشهدائها وسادتها، وهو لم يبرح يعظمها وأهلها بلسانه، ويطريها ببيانه، ويذكر من فضائلها وشؤونها ما يحار به العقل، ويخشع القلب، وتطير له النفس شعاعاً من فرط الوله والهيام، وفائق الإكبار والإعظام.

ولم تفتا وصاياه واصبة موفورة، مشددة مؤكَّدة على رعاية الشهداء في ذويهم وأهليهم، وتنفيذ وصاياهم، والاقتفاء على آثار خطاهم، لبلوغ مجدهم، وشأوهم، وعلاهم. ومؤسسة الشهيد غيض من فيض، ونزر من جم من مظاهر التجليل والتكريم والرعاية، يرى منها الشهداء الأبرار من رحاب الغيب وفاء الإمام لأبنائه الشهداء وبرّه بهم، وحرصه على رغباتهم، ورعايته لحرماتهم بمظاهر مأنوسة يتنعمون بها فوق نعيمهم. ويتلذذون بمرآها مع لذاتهم، ويشكرون الله على قيادة صنعها على عينه، ونفخ فيها من روح دينه، فقادتهم رشيدة سديدة على سبيل الهدى إلى أرفع المنى، ففازوا بالكرامة الدائمة، والسعادة القائمة.

ولأرينك صورة واحدة هي حسبك شاهداً مغنياً عن الكثير من شواهد الحقيقة الكبرى في نفس الإمام وواقع فعله، حقيقة الحب والإجلال والتمجيد للشهادة والشهيد. فبعد أن يعود الإمام إلى بلاده الوفية بعد الهجرة الطويلة المضنية، يرى فرضاً عليه لداعي تلك الحقيقة في نفسه أن يبدأ بالتحية شهداء ثورته، وأن يزورهم مأخوذاً بسلطان شوقه ولهفته، مأسور القلب بيد أشواقه الحرَّى إليهم، مجذوب الفؤاد بجاذبة هواه المعطوف عليهم، ويا له من موقف خاشع، ومقام رفيع، حين يطل وجه القائد الوضاء على ضرائح أبنائه الشهداء، فكأنهم قد هبُّوا له حفيين به، محبورين للقائه، قد أحاطوا به من كل صوب، وتكنفوه من كل الجهات، يلحون عليه بالسلام فيلح عليهم قلبه بالجواب، ويلحفون عليه السؤال عن رضاه عنهم، فتجيبهم نفسه أنهم جاءوا بفوق ما يرجوه منهم، وكأنه قد وقف في جموعهم في رعدة المقرور، واضطراب السليم، وخشوع العابد المتبتل، فإذا هي نجوى تفت في قلب الجلمود، وتحرك الإحساس في الصخر الأصم.

(يا اخوتاه، هذا هو الظفر المبين الذي بذلتم أنفسكم من أجله، وسعيتم سعيكم الجسيم لنيله، هذه حمايتكم لي وذبكم عني، وجهادكم معي وبين يديَّ، روح قوية ناهضة يمشي بها جسم هذا الخير، ويسعى بها هيكل هذا العطاء الوافر، صبركم في الجهاد الدامي قاد إلى الفتح الكريم السامي، نضالكم المجيد في ساحتي سار بي إلى غايتي، مقامكم في جنبي جناح طرت به إلى شموخ هذا

المنال، هذه دماؤكم الزاكية قامت من أحضان تربصها وانتظارها لتقول إني غالبة، فقد أزفة ساعة الفتح والظفر، ليصبح المستضعفون سادة، ويمسي السادة أذناباً، ويقبل الناس إلى هذا النمير العذب ينهلون، ويميلون إلى رحاب الإسلام يهنأون.. أيتها الأرواح الطاهرة ما أكرم ما أعطيتِ، وأجزل ما بذلتِ، أحضان السنية الرؤوم في الداجية الغليظة أفاضت في القلب المدود معين النشاط، وغذته بالعزم والاقتدار.

وجوهكم الباسمة المشرقة آنستني وأنعشتني ببسماتها وشروقها وأنا في أطواء آلامي وكروبي تلتمع لي الساعة في آفاق هذا النصر الكبير المطل.

هذه أيديكم التي كانت مع الهتاف بمجد الإسلام وقيادتي والسلام عليَّ في ساحة الجهاد، راحت تدق باب طهران تقول لها هيا افتحي ذراعيك وضمي إلى صدرك هذا الفاتح العظيم، مطهرك من الأرجاس، ومنقذك من ربق الاستعباد).

وإن نكن قد نسينا ذكر صفات أخرى من صفات تلك الروح القيادية لإمامنا فلا ننسى أن نذكر (قدرة التدبير العسكري) وتصميم فن القتال، وتخطيط ملحمة النصر، ورسم طريق الظفر، وان يكن يكن قد غاب عنا الكثير من براهين هذا الأمر لارتباطها بشؤون الحرب وأسرارها فلا يغيب عن بالنا قول ممثله في مجلس الدفاع الأعلى (رفسنجاني)

(إن مهمَّ أمور الحرب وجلائلها صنعة رأي الإمام وتدبيره، وإن خططها غذية عقله وتفكيره، أو موضع قبوله ورضاه، ومحل رغبته ومشتهاه، يصوبها فتصدر عنه لتَرِد أرض المعارك دليلاً هادياً إلى الفتح المبين، وطريقاً سالكاً إلى الظفر المكين).

ولن يعزب عنا في هذه الخصلة من قيادة الإمام موقفه في كردستان، حين همَّ أن يغلب عليها الأشرار ليفصلوها عن أمها إيران الإسلام، وحين عجزت الحلول من هنا وهناك عن أن تبلغ إلى حل يصون حرمة البلاد، ويعصمها من التمزق، ويحجز عنها عوادي الانشقاق، فأصدر القائد الحكيم أمره لجيشه بالصولة الظافرة قطعاً لدابر البغي، وكبتاً لأهله، وبواراً لهم، ومضى جنوده يستهدونه ويسترشدونه حتى أفلحوا في حفظ كردستان وإبقائها في أحضان أمها بعد أن أوشكت أن تفطم مكرهة، وتذوق حر البعاد راغمة.

الإمام الخميني والاستيعاب

إن أبهى خصال القائد الرسالي الفذ الظافر في قيادته أن يكون متحلياً بصفة الاستيعاب التي هي مشروع استراتيجي وأساسي في مسيرة التصدي والقيادة، حيث يراد أن يكون هي الصدر الدافئ الذي يضم المتصدي وصاحب تلك المسؤولية الكبرى بين جوانحه قلباً نابضاً بالحب، والحكمة، والتسامي، والبصيرة، والتدبير، والترفع ونكران الذات.. هنالك حيث يجتمع السَّنَدان الأساسيان لاقتدار الانطلاقة وديمومتها وبلوغها الهدف المنشود وهما: القيادة الرائدة المستوعبة، والأمة المشدودة بقيادتها لخصائصها وكفاءتها في الوفاء، والعطاء، والانفتاح، والتضحية (بالأنا) والتمحض للخلوص في ذات الغاية المقدسة.

والاستيعاب في الاصطلاح هو سعة الصدر، والشمولية في التعامل، والانفتاح على الآخرين، وممارسة دور التفهم واحتواء لهم.. زهو في العمل السياسي مطلوب شرعي مهم للتصدي، وضرورة سياسية قصوى، وبديهية من بديهيات القيادة، وهو اقصر سبلها إلى قلوب الناس للارتباط بها، وتوجيهها نحو الهدف المنشود، وإن هذا الأمر الخطير يتمتع بأعلى درجات الالتزام والضرورة بحكم الشريعة المقدسة، وبحكم العقل، لكونه مقدمة واجب كبير، وبحكم الوجدان والفطرة السليمة، وسيرة المتشرعة والعقلاء، وعلى رأسهم سادة العقل والشرع (الرسول وآل بيته) صلوات الله عليهم، وبحكم منطق التدبير والحكمة، ومقتضيات الروح القيادية.

لقد كان الإمام يرى ما يراه جده وأسوته أمير المؤمنين عليه السلام ـ أن المتصدي الملتزم هو المستوعب، والمستوعب هو المتصف بخصائص مشهودة في حياة القادة المنتصرين، منها أنه هو المتقي في ذروة التقى والخلوص، الذي يكسر نفسه عند الشهوات والميول، وينصف من نفسه فيما أحب أو كرهت، ويلزم الحق من لزمه من القريب أو البعيد واقعاً ذلك ما وقع من القرابة والخاصة، وهو المنفتح على الأمة بالأمل الواسع، فلا يتشاءم أو ييأس منها، بل يعتقد أنها عماد الدين، وجماع المسلمين، ويسعى جهده إلى تقريبها ثم قيادتها بحسن سلوك القيادة، وزهدها، وتفكيرها، بشؤون

أمتها، وانصرافها عن ذاتها إلى هموم رعيتها، وكثرة الثناء على الأمة وجهادها، والإشادة بمآثرها ومحامدها، وعدم الاحتجاب عنها..

القائد المستوعب هو البعيد عن المحاباة والأثرة، وهو المتحفظ من الأعوان والخاصة، والمتواضع لله وللناس، لا يحب الإطراء الذي يحدث له الزهو، ولا يعجب بالنفس، أو يثق بموقفه ورأيه ثقة العصمة والتنزيه عن الخطأ، ولا يتثاقل من قول الحق له، أو مطالبته بالعدل، لبعده عن نسبة الكمال إلى نفسه في تصوراتها ومواقفها.. وهو الذي فهم التاريخ فهم بصيرة واعتبار وتدبر، وأحاط الماماً بواقعه والدنيا من حوله ليعرف كيف يستوعب أمته وقضيته على ضوء شريعته ومستجدات حياته. وهو الذي يرى أن أحب الأمور إليه أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضا العامة، ولا يبالي بسخط الخاصة والبطانة إذا تنافى مع رضا العامة... وهو الذي يداول بين الحزم واللين، ويزاوج بين القاطعية والمداراة القيادية... هو الذي يتميز بسعة الصدر، وحسن المداراة، والروح الأبوية الحانية، وعدم إلغاء الآخر، وفسح المجال لرأيه المتزن المنضبط، والاهتمام بتفقد الرعية، وعدم اتخاذ بطانة من دونها تعزل المتصدي عن أمته وواقعه، وعدم إيثار النفس أو الأهلين والخواص بالمكاسب التي تجعل الأمة ترى في القائد المستأثر سبعاً ضارياً عليهم... إذا كانت هذه وغيرها هي صفات القائد المستوعب، فهلم نقرأ حياة الإمام، وعمر قيادته الشريف، لنبصر خصيصة الاستيعاب وهي أرقى خصائص القادة الفاتحين لحمى القلوب والأرواح يجندونها لقضيتهم ورسالته.

لقد كان رضوان الله عليه أروع تجسيد معاصر للقيادة الإسلامية التي افلت شمسها في القرن السابع، وامتد بها الأفول قروناً طويلة لا يرى فيها الناس إلا في السيرة قصص تلك القيادة، فتخشع قلوبهم وتتمنى، ولكن متى وأنى؟

لقد التزم الإمام نهج التقى التزام المسؤولية والعشق والتنزيه حتى أرهق نفسه، وأعطى المسار الورع حقه من المستلزمات، وفرض على نفسه فيه ما هو حق النهى عليه في سنام العلقة بالمعبود لأنه عبد قائد، ركل الشهوات، وجعل حياته نبراس المترفعين عن الذات والأهواء والرغبات، فلم تتلوث حياته الممتدة بشوب الأنا والحطام، ما دامت قد تمحضت للدعوة والجهاد والمحرومين، قَرَأت فيه الأمة المصداق الأروع للقيادة الذاهبة، والممثل الأسمى للريادة الحية الغائبة، ألزم نفسه الحق له أو

عليه، وألزم خواصه والقريبين من ذلك كيف كان وقعة عليه أو عليهم، وإن اخسره ذلك راحته أو رضا أعوانه.

التزم أمته أروع الالتزام، وكانت كرامتها وسعادتها أكبر همه بعد ربه، وأعطاها من الامتيازات في قلبه وهمومه وتشجيعه ما يفوق الوصف، وسخر بصدقه معها قابلياتها الكبرى أفضل تسخير لأهدافه النبيلة، فانسابت أمامه بحبها ويقينها، وتأثير شخصه وشمائله ـ انسياب الماء الرقراق على الصفا، واسترخت معه على طريقه الأرواح والراحة، فما زالت واصبة الفداء والعطاء، وهي ترى أنه فدى دينه وفداها بكل وجوده، وجعل رسالته وأمته نصب عينيه في كل حركاته وسكناته وكلماته، وعافت نفسه لأجلهما بهارج الدنيا، وزخارفها، وأقل القليل من مباحاتها، وما يتمتع به حتى المدقعون من ميسور أطايبها.

كان له أهل بيت وأعوان لهدفه ومسؤوليته لا لذاته، ولمسؤولياتهم ووظائفهم لا للمكاسب والمناصب التي لم يغرهم بها، ولم يجذبهم إليه ببريقها، بل جاهرهم بالعناء منذ أول خطوة، ووضع على أكتافهم أحمال الهموم في معترك النضال، وقذف بهم في لهوات الصراع للحق فكانوا أول القرابين، وإن عظمت المصيبة بفقدهم، وجلت الرزية ببعدهم عن حلبة المنازلة مع الكفر المسعور الذي ذمر حزبه كله للإجهاز على تجربة فريدة لا يريدها لها أن تعود من جديد بعد أن ظن أنها لزمت جدثها الأبدي بلا انبعاث قبل يوم النشور؟

عاش معه أهل بيته، وقضى منهم من قضى وهم أناس اعتياديون في دولته وسلطته في دولته وسلطته، لم يحتز لهم المواقع، ولم يؤثرهم بالقدرات، وكان ولده أحمد كأي ابن من أبناء العريضة، عاش مع أبيه القائد على الهامش، وبقي بعده على الهامش أيضاً، يسمع ويطيع للزعيم الخلف كما كان يفعل للقائد السلف، وأعظم بهذا مثلاً لروح الترفع، وصدق القيادة، ونزاهة المسؤولية، وشرف الالتزام، وطهارة الضمير، وروعة الأداء المقدس لوظيفة التصدي، وفريضة الإمامة الهادية الرشيدة في ذروة الورع والتحفظ والمقاومة لنوازع الذات والشهوات.

استوعب التاريخ بفهمه، وبصّر أمته بواقع الأمة الشاهدة من خلال الدروس المعروضة في مدرسة التاريخ الشاهد، واستوعب الواقع المعاش ببصيرته الفذة بالزمان، فقاد أمته بتلك البصيرة النيرة قيادة العارف الخبير.

لقد استوعب قضيته ومسيرته أهدافاً ورؤى، وآمالاً، ومباني، وتاريخاً، ودروساً، وشحذ لذلك همة الصبر بمحد العزيمة الصادقة المعتصمة بذمام اليقين الفذ، وجاد له من معين البذل بما هو أهلة، واحتمل نقل خطاه على الجمر، وعناق قلبه شبوات التهمام، وسهاد روحه الملتاعة في ليل الحسرات الطويل، واستوفر الإمام لمشروع قيادته ثورة الحلم المكابد المتصبر، فعفا عن ضراوة الكيد، وتحنن على قسوة الصد، وفرش قلبه الوادع الحنون للآخرين تذوب فيه أظلاف هفواتهم، ورش نفسه الزكية المنداحة بشفافية القيم، المتأرجة بعرف الفضائل، تنعش أهل الجفوة، وتأسر غيظهم، لم يأبه لصغائر الزلات، واستوعبها بالأعراض الأشم، واحضن على كبائر الأذى بالصفح والإغضاء المقاوم، وعارض الخنا والطيش بالمثلى من الكلمة الحانية، واليد البيضاء، والردع الرافع الذي يلوي عنق الغلواء، ويجعل جبال النزقان والنزوات دكاً..

الإمام المجدّد

ما هي الجدَّ والجديد؟ وما هو الأمر الطارف الوليد، مما طلع به الإمام من فجر الإيمان، على دنيا الظلام في هذا الزمان؟

من الذي أحياه من أمر الشريعة الغراء؟ وما الذي جدده من معالم الرسالة العصماء؟ عمَّ أزاح الستار من عظيم شؤونها؟ وماذا حيَّر به خافق العصر من عجيب فنونها؟ هل جاء بشيء زائد على ما في الحنفية البيضاء؟ أم افترى متقولاً ما ليس من وحي السماء؟ أم زاد في أحكام الرسالة السامية، وأضاف على مفاهيمها العالية؟ أم هي تلك القضية العظيمة دعا إليها ودلَّ عليها، كما دعا إليها سواه من الداعين وما أكثرهم! وهدى إلى سبيلها القويم غيره من الهادين وما أوفرهم!

لم يأتي الإمام هذا العصر الصاعد بما ليس من حقائق النبوة الخاتمة والدين الخالد، ولم يطلع عليه بمفاهيم جديدة في الإيمان ابتدعها، ولا بأحكام وليدة في الدين اخترعها، إنما أتاها بما غابت عنه من شأن الإسلام في مطاوي الجهل والتضليل، واقبل عليها بروح ذلك الدين التي نفخها الله في الأمة الشاهدة فأصبحت بها أمة رائدة، وابتعث للدنيا من جدث العزلة والطمس والتضييع حقيقة ذلك النهج الفذ الرفيع، وجدد الهدى كما جاء من ربه رسالة وثورة، وأحيا أمر النبيٍّ المصطفى هداية وقدرةً، نوراً يدل به التائهين في ديماس العمايات على سواء السبيل، وباساً قادراً يدك أصنام الأضاليل، ويهد العروش المستبدة الطاغية، ويمحق الجاهليات البليدة الغاوية. قرون متمادية تصرمت على هذا الدين في أطواء الأفول عن وجه الحياة بعد ذلك الطلوع المشرق المهيب الذي لم تفتح عينيها اللَّتين أغمضتهما في ظلمة التيه والانحطاط، على مثله. وبقي في الأمة تراثاً يذكر بخير، وتنشر حوله الكتب، فتهدى إلى الملوك والأمراء، أو تقدم للناس بعد أن تمر عليها عين الرقابة السلطانية، تزن حقائقها بميزان عدل من معرفة الدين لا يحيف ولا يظلم! وتبصرها بعين محيطة بلبِّها لا ترى غير الصواب حيث ترى! وبقي حكايات في الخوارق والكرامات يؤنس بها الوعاظ والخطباء مجالسهم، ويستدرّون إعجاب مستمعيهم، وبقي نوادر عن البلاط الأموي والعباسي، والأنس الطافح فيه على وجوه الشعراء المطرين، والمغنيات والمغنين، والكواعب الحسان اللواتي سطع عبيرهن مع

شميم الخمرة الذاكي، وفعلنَّ في النفوس فعلها في العقول، في نديّ يطرب، وسامرة تلهو، ونشوة غالبة أسرت الألباب وطافت بها منقادة في دنيا الأوهام، وصرفت النفوس اللاغبة عن عالم الحقيقة. وتتحدث بذلك القصص والروايات والصحف والإذاعات تصفه بأنه مسيرة الإسلام في عصرها الذهبي!!.. وبقي أحاديث شريفة صحيحة السند! واضحة المدلول!! عن الرضى والقناعة بما قسم الله واختار من شؤون الحياة وصروفها، والواقع الفاسد وأحواله، والدنيا الدنية وطلابها من الملوك وأتباعهم، وما يعبثون وما يعيثون!

وبقي اخبار مقدسة سليمة العنعنات والدلالات! عن الحياة الحالمة الوادعة للمؤمن الذي صرف نفسه عنها وما فيها، وتركها لأهلها يفعلون فيها ما يشاؤون، وجعل همه الآخرة، فهو مشغول بذكر الموت والقبر والقيامة، ينشد النجاة، والسلامة، يوم الحسرة والندامة.

وبقي قرىن مفسراً على وجهه السليم! وسنة سالمة غير مدخولة! عن شمائل الأمة الراضية بقضاء الله وقدره ولو فيما ينزل بها على أيدي هؤلاء الذين هم إرادة الله في الأرض من الحاكمين، يلزمها القرآن بلزوم ظلهم لأنهم أولو الأمر الذين تجب طاعتهم!! ويفرض عليها الخبر الصحيح الرضي بهم، والصبر عليهم، والاستماع لهم، والانقياد مهما فعلوا بالعباد والبلاد.

ولَهْوَ فضل كبير على الدين في القرن العشرين أن يؤذن له بأن يتدخل في الشؤون الشخصية للأفراد في المعابد، وأن تصوغ الحكومة منه قضاءً لمحاكمها في تلك الشؤون، وهو في هذين الفصلين من حياة الأمة يدعى (دين الدولة الرسمي) أما شؤون الحكم والنظام والدولة والقيادة فإن زعم تدخله فيها فرية على ذلك الدين الأقدس الأطهر الأسمى؛تدنسه بأرجاسها، وتحط من قداسته، وتنزل من بمقامه الرافع إلى أدنى مكانة! ولقد ختم على القلوب بهذا فلم تعد تقوى على أن تفقه غيره من شؤون الإسلام، وطبع على بأقاويل المضلين فهي لا تنهض بها بصيرة نيرة لترى ما خلف معتكر الجهل والتضليل، وطمس على العيون بعماية الإغواء عن حقيقة النهج العظيم، فهي لا لتبصر غير جثمانه الملفع بالبُرد الأخضر على صدره القرآن المنمق الأنيق، يطلبه الناس حتى سلاطينهم يتبركون به فيجدونه في مظان إجابة الدعاء في بيوت الله، أو عند ضرائح الأولياء، ومقامات الأصفياء. في مثل وضع الدين هذا؛ المألوف الرتيب العتيق الذي صفوته (المسجد والصلاة

والمسبحة والأذكار، وطاعة أولي الأمر أنى كانوا، والقراءة أو المحاضرة في تأريخ الإسلام وشؤونه مما رأته عين جلاوزة الرقابة أو سمعته آذانهم).

في مثل هذا الليل الشتائي الراعد البهيم الأيهم في حياة الرسالة طلع وجود الإمام الزاهر المشرق.

وكان عجيب شانه، وعظيم أمره، في وجوده الميمون ذاك، أنه أبدى أموراً هن روح دينه التي بها يحيا لم يزلن في سجن الطغاة الرهيب في زنزانة الانفراد، حررهن باقتداره من السجن فهو المحرر الأعظم، وطلع بشؤون لرسالته هن صميمها المهجور قد زواهن في المنفى البعيد القهر والتحريف والشبهات، فاستجلبهن من منفاهن فهو الفاتح الأكبر، ولقد كن أموراً وشؤوناً لم يدعُ إليهن سواه على تلك الحال الفريدة من الدعاء، قد أنصب فيها بدنه، وأسهر عينه، وفارق داره وقراره، وما فتر فيها ليله ونهاره، وبذل فيها الدماء الغالية، وأجرى فيها فيض المهج الزاكية، وصارت شغله الوحيد في المشاغل، ومسألته الكبرى في المسائل، كل همه فيها، وكل فكره نصبها، وكل سعيه إليها، وجهد إقباله عليها، فلا شيء غيرها يعدلها، ولا أمر ما خلاها يفضلها. لقد دعا الإمام الهمام إلى الثورة والقيام، ودك العروش الطاغية بالهمم الوارية، فمن أين أتى لتلك العروش حق الحكم والتدبير، وتصريف الأمور، وملك رقاب الناس، والناس هم الأحرار في زروة الحرية بعبوديتهم لله وحده!؟ ومن خولهم أن يكونوا قادة الناس ورادتهم؛ إرادة الله ورأى الناس وصالح الأمة! أم القوة الغاشمة، والوراثة الظالمة، وعملاء المستكبرين، وتدبير الشياطين؟ أليس في الإسلام منهج الحكم وصفات الحاكمين قد دلَّ عليهم، وعرَّف بهم، وأشار إليهم؛ فهم الرسل والأنبياء والأولياء والعلماء، يسوسون عباد الله بأمره، ويحكمونه بعدله، ويدلونهم على صراطه، ويأخذون بأيديهم إلى نمير العذب الزلال، وما سواهم الطغاة الظالمون، والفراعنة المتجبرون، والغاصبون المستبدون.

ومن جديد أمر الإمام في ثورته الشماء نداءه بالأوبة على هدى السماء ورجوع الأمة الشاهدة إلى رسالتها الخالدة، وتحكيم شرع الله وهديه القويم في حياة عمَّها الضلال القديم، فالرقي والازدهار والعلاء في نهج الشريعة وأحكامها وتعالمها، والهبوط والرجوع والتخلف في نبذها وإتباع ما عداها من الجاهلية التي أراد لها الإسلام أن تزول من الوجود، لكن سعى أبنائها وأوليائها وضعف أعدائها وخصمائها مكناها من الأوبة الظافرة على حالها التليد، ظلام خانق وعصاب مرير، وحياة تعمها

الشرور. فالتقدم ــ في رأي الإمام ــ بالإسلام، والرجعية في ما عداه من مناهج الباطل التي اشتقت من الجاهلية الجديدة، وانتشرت لياليها السود من ديجورها المقيت.

وتطبيق الشريعة ــ في الواقع الرافع، وفي عصر الذرة والصاروخ المحلق في الفضاء، والعلم الحديث المبدع الخلاق ــ كان من مزايا قيام الإمام الفريدة، وآياته المجيدة. فحيث بهر البسطاء بضلالة القرن العشرين، وتحدث المخلصون بصوت خفيض خائف، وسكت العملاء والأذناب، ودأب الأسياد والأرباب في جعل الإسلام دين عبادة هامدة، وشعائر جامدة، يكتفى منه بالأذكار في العشي والإبكار، ويكون غيره مما سمي نتاج هذا الزمان من ضلالات الشيطان وحماقات الإنسان هي الدليل الهادي إلى الراحة، والسبيل الموصلة إلى السعادة، وما سوى ذلك رحم عقيم لا تلد غلا الخواء، وأرض يباب لا ينبت فيها إلا الجدب والمحول، هناك في تلك الحالة نادى بصوته المدوي رجل الإسلام والثورة في هذا القرن أن تطبيق الشريعة هو المطلوب غاية المطلوب، وهو الحل منتهى الحل، وهو الفريضة الأسمى التي لا تساميها فريضة، والسعي إليها هو أقدس واجب، والبذل فيها أروع البذل، والفداء فيه والتضحية شهادة لا تجارى، ومنزلة لا تبارى. ولم يزل صوته راعداً واصباً ممتداً «الإسلام هو الحل» يقض مضاجع المستكبرين، ويكدر صفو الطغاة، ويأخذ عليهم بالخناق فلا يفيئون معه إلى راحة، ولا يصيبون حظاً من سكينة ودِعة، وليس هذا يعني رأيه (قدس سره) إلا أن تقوم دولة اسمها (دولة الإسلام) حيث تقوم من بين يديها ومن خلفها وعن يمينها وعن شمالها دول الكفر والضلال، فهل من العدل أن يكون الإسلام ــ رائد الحضارة وبانيها، ومؤسس الدولة العالمية الكبرى التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ــ أعزل في الحياة، وجوده المجيد زاوٍ، ويده الكريمة جذاء، وشريعته البيضاء معطلة، وألطافه الغامرة في المحجر، ودستوره الرائد العظيم تحت الوصاية، وأبناؤه يخيرون بين أن يقبلوه علاقة فردية بربهم، أو يساقوا إلى الموت أو إلى المطامير، وقادته الحقيقيون العلماء الأبرار يقال لهم لكم إمامة الناس في الصلاة ولنا قيادتهم في المسيرة، لكم منهم صور الاحترام والتعظيم، ولنا منهم فرض الطاعة والتسليم، لكم منهم أن يستفتوكم فتفتوهم في لا يخص شأن الدولة والسياسة، لأن شأن دينكم غير شأنهما، وهو أسمى من أن يبتلى بنقائصهما أو يخوض في أوحالهما! ولنا أن نحكم عليهم فيسمعوا ويطيعوا لأننا الساسة والقادة.

وليست تعني دولة القرآن في نظره الشريف إلا (جمهورية إسلامية) حين تهب الجماهير تهتف للدين الحنيف بالأوبة والحكومة وتدبير الأمور، وتعطيها الرأي القاطع في استفتاء لم تعرف له الدنيا شبيهاً في صفائه وحريته وعصمته من شوب القيود والوعيد والوعود. وحين لا تكون الدولة دولة الجماهير وليست هي غير دولة الإسلام، ولا النظام نظامها الذي تختاره وليس هو غير نظام القرآن هناك يقول الإمام إنه الطاغوت، وإنها الدكتاتورية، والرأي الفردي الظالم المطلق، شعاره السيف المرهف، ودثاره البطش والعنفوان. فيهب يصرخ: «الموت للطواغيت وضلالاتهم» يدعو ـ غير هيّاب ولا خائف ـ إلى الكفر بهم، وحربهم والثورة عليهم، فرضاً مبيناً من الله، والزاماً قاهراً من شرعه وهداه ﴿ **فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ**﴾[1].

وليس يقود دولة الإسلام في رأيه إلا الفقهاء العلماء العارفون بربهم ودينهم وزمانهم، المخلصون المجاهدون الثائرون، الذين منحهم الله زمام الريادة والزعامة، وأولاهم حق القيادة والإمامة، فهم وحدهم قادة الأمة إلى ربها، وهم هداتها على دربها، بنورهم تستنير في الظلماء، وبهديهم تبصر في الفتن الداجية، وإن لهم ولاية على الأمة بعد ولاية الله ورسوله والهداة الميامين يسميها (ولاية الفقيه) فيها يكون أولئك الفقهاء العارفون ولاة الأمة ورادتها، وهم بعد الرسول وخلفائه ـ بدلالة الله ودلالتهم ـ أولو الأمر الذين عناهم الله بقوله: ﴿**أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾[2]. لا ما سولت الأهواء الساهية والآراء الخاوية، وغير ذلك إنما هو ولاية الطاغوت، وفيها يكون الظالمون طغاة الأرض وجباريها.

ودولة الإمام (الجمهورية الإسلامية) هي دولة المستضعفين وهذه الكلمة القرآنية لم يحيها بذكره لها سواه، ولم يعرها طرف الفكر والسعي عداه، قام لواقعها المنشود أحسن القيام، وصاول أعتى المصاولة، وناضل نضالاً قرآنياً مقدساً هو أشد النضال وأضراه وأقساه، ولم يزل ذكره للمستضعفين مكرراً حتى عاد ذكراً من أذكاره، ووِرداً من أوراده، لا بل يراه في تلك أسماها وفي هذه أعلاها، ويرى شأنهم بعد شأن الله، وحفظ حرمتهم بعد حرمته، وأداء حقهم بعد حقه، وأن السعي في أمورهم أفضل من عامة صلاته وصيامه، وهو السنام الأعظم في مطلوب دينه وإسلامه.

---

[1] ـ البقرة، الآية: ٢٥٦.

[2] ـ النساء، الآية ٥٩.

وإن أعجب ما في هذه الدولة الفريدة دولة الإيمان في عهد الإلحاد والجاهلية (الاستقلالية عن كل القدرات) في زمن ناموسه المشهود وشأنه المعهود: (الاستعباد والعبودية) و (سيادة العمالقة) و (الأرباب المزيفون وعبادهم المطيعون) وإن حاولوا ستر ما في ذلك عن أمتهم من المعائب الفاضحة والعاهات اللائحة بما يسمونه علاقات المودة الصادقة! وروابط الاحترام المتبادل! واتفاقيات الصداقة الحميمة! فدولة الإمام هي دولة الإسلام، والإسلام حضارة رائدة، وطريق فرد بلا نظير، ومنهج عظيم، فيه من الخصائص العالية والمحامد السامية ما يكون بها ــ وقد كان ــ سبيل الخلاص لهذا العالم الغارق في بحر العذاب اللجي، وهو بما لديه وفيه من فضائله الوتر وسموها الرفيع؛ ليس في حاجة إلى شيء من ضلالات الأرض القائمة، ولا غواياتها الجاثمة، وأمته التي يصنعها ـ وهي الأمة الشاهدة التي صنعها من قبل فجسد أروع الصنع لأروع أمة ـ ليست بحاجة إلى شهادة أمة أخرى عليها، وإن دولته التي يبنيها بهداه ورشاده ونظامه الفذ المتكامل، والتي طوت عاديات الزمان وعرامات الشيطان أمها وأصلها خير دولة تفتح الدنيا عينها على محيّاها المشرق الباسم تغمرها ضياءً وأنساً وبهاءً بعد أن أغمضتها في عمايتها الفقماء الممتدة، وليلتها الطخياء المتمادية. هذه الدولة في قمة الرشد والهدى هي أسمى وأعلى من أن تحتاج إلى أنظمة الآخرين ودساتيرهم تدير بها شرونها، وتصلح أمورها، وتحل مشاكلها.

ففي دينها الإلهي العظيم لها غَناء عن ذلك وأيما غناء، يتعالى بها من مواضع الحاجة والاستجداء لشيء من سفساف هذه القدرات المتجبرة وزيفها، أو للون من الجهل البشري الذي يتبدى عن تفاهتها وسخفها، حيث راح الأزلام والخائفون والخانعون في متاهات أولئك الأسياد يسيحون، ويحترفون لهم آبار مصالحهم فيميهون، يروون ـ أذلة خاسئين ـ ربوع الأسياد الساخرين، قد امتطوهم زوامل ذللاً إلى غاياتهم، وسخروهم خدماً مهطعين في شهواتهم.

وكان أعجب شعار طلع به الإمام رائد الثورة العظمى بعد شعار الحاكمية للإسلام ـ شعار (لا شرقية ولا غربية) وهو وصف شجرة الهدى في القرآن، تلك الزيتونة الطيبة التي يضيء بزيتها المضيء ذلك الكوكب الدري. وكان لعمري شعاراً حير العقول السديدة، وأذهل الفطن الرشيدة، وصعقت منه قلوب المستكبرين بتيار مريع من الهول المبين، بعد أن وسمهم قبلها بميسم الاستكبار، ودأب الامتطاء والاستحمار، ولم لا يصعقون ويذهلون وقد طلع عليهم الصبح الخميني المسفر المنير بما

يجلو الدياجير، ويفضح العشوات العنيدة، ويهتك أستار الحياة البليدة، يدل الناس على طريق عزتهم إلى أكناف الجوزاء في عنان السماء، ويشير إليهم بالنور الثاقب إلى مواضع الآفات والعاهات، ومواطن الأدواء والبليات التي كانت أمها العبودية والخنوع، والطاعة والانقياد لمن سماهم (الشياطين) أو الشيطان الكبير، وهي من شعاراته الرافضة، وألقابه الثائرة، التي ينبز بها الأعداء الألدّاء، ويطعنهم بها في صدورهم طعناً دراكاً لا يجدون معه راحة ولا فسحة.

وهم حين يصفهم الخميني بالاستكبار والاستحمار والشيطنة الماكرة، ويدعو أمته بأروع شعار ثائر في العصر الحاضر «لا شرقية ولا غربية» فمن ذا الذي لو فاء إلى رشده برشاده يعنو لهم بعد اليوم، ويبقى على التبعية لهم والارتباط بهم؟ وأي أمة آبت إليها عوازب هداها ونهاها لا تكسر الأغلال، وتنطلق مارداً عظيماً يدك حصون الاستعباد، ويهد قلاع العبودية؟ من هذا الهم أو غيره المهم ائتلفت كلمة القدرتين على حرب الخميني فتجدَّت عليه منهما ليالي التبريح والإيذاء، وتكثَّفت سحب العداوة والبغضاء، تسح وابل الويلات والثبور، وتهتن الشرور تتلوها الشرور. وكانت دولة الخميني هي الدولة الفرد التي أجمع عليها العالم بقدرتيه بأذنابهما على حربها وإيذائها، وتلك مفخرة كبرى لأنها تعني استقلال الرأي والإرادة، وإن أريد لها ـ رغماً على حقيقتها ـ أن تكون سبّة في رهج الإعلام الظلوم بوصفها العزلة في أحضان تخلفها ورجعيَّتها، وأن العالم قد رفضها لأنها الناكصة على أعقابها، تبحث عن خلق الأولين ونظام الأقدمين.

وكان سر الانتصار والغلبة في مسيرة الثورة إلى هدفها العظيم سلاح مهيب هو كالعاصف الرهيب، لا تقابله الجحافل، ولا يصاوله مصاول، وقد عيَّ به المحللون وخر من فزعهم أمامه المجرمون، وقد أحسن الخميني تحريك ذلك السلاح والإفادة به ونصرة الإسلام بفتكته وبطشته، ألا ذاك هو الدم المسفوح تجود به الأمة الثائرة على هدى الإمام الظافر في طريقه الكربلائي المتلفع برد عاشوراء، المخضب بالدماء، وهو يجدد دور ذلك المنحر الأقدس والقيام الأرفع، وكان شعاره الفريد «الدم ينتصر على السيف» نظرية جديدة، ومنهجاً غريباً في النضال والمقاومة والجهاد في هذا العصر دهشت لها حلوم الكثيرين حتى من أوليائه وأحبائه، وفزعت لهما قلوب أولئك الجهلة المتنسكين، وصرخ في وجهيهما أولئك العبدة المتهتكون ووعاظ السلاطين. فما زال الخميني منذ خرداد (حزيران ١٩٦٣) وحتى اليوم يرى رأي جده صريع الطفوف أن شجرة الإسلام لا ترتوي بغير الدم

الجاري، لأنها شجرة النفوس والأبدان، فغذاؤها من مائها، وأن النجيع القاني هو الزيت المضيء يوقد منه كوكب الثورة لأنه أصل الحرارة فيها ومن الحرارة يكون الضياء، وأن فيض المهج خطيب بارع مصقع، بصوت جاهر أرفع، تسمعه آذان القلوب فتزيد وقدتها، وتشتد ثورتها، كيف لا وفي ذلك الفيض خلاصة البيان البديع لتلك الأرواح المطهرة التي صعدت إلى بارئها تاركة مقول الدم يتكلم بالكلام الرفيع.

وظل الخميني يرى أن قضية الإسلام وحدها هي التي تنتصر بالقرابين العلية والدماء الزكية، ويغلب في ثورتها الدم المهراق بواتر الطغاة وصوارمهم. منذ ذلك اليوم الذي كان فيه دم الأمَة صانعة الحرية (سمية) وزوجها المظلوم ياسر، يقهر بعنفوان الإيمان القاهر، والثبات الظافر؛ لواء أبي جهل والعتاة المردة من المشركين، ويرد لفح سياطهم إلى وجوههم، ويسعّر قلوبهم بضرام نار غوّالة لا يعرفون كيف يطفئونها.

ومشى معهم ذلك الدم في ساح المصاولة والمناضلة حتى فت أعضادهم فتاً، وفلّ سيوفهم فلا، فقدّ رقابهم قدّا، وحتى هذا اليوم الذي حسب به المستكبرون وصوروا لأزلامهم أن المدافع والقوارع هي الحل الناجع، وأن سيفها هو السيف القاطع، وأن السجون والمقاصل هي الحد الوثيق الفاصل بين مصالح القوى الكبرى وأدواتها، وبين رغبات الأمة وطموحاتها.

وقال الخميني إنَّ سحَّ الدم يطفئ نار المدافع فإذا خابية، وإن حدها المرهف يفلّها ويشلها فإذا هي عاثرة نابية، وإن الدم المؤمن المارد العملاق ليشدُّ على ذئاب البغي فتفر أمامه فرار حمر مستنفرة فرَّت من قسورة، وصدَّق الواقع العظيم قوله الكريم فانهزمت قوة سموها (السادسة) عميل قدرة سموها (العظمى) أمام الجماهير العزلاء التي تحصنت بإيمانها وقرآنها، وشهرت على راحتاها قلوبها تنزف الدماء، ترشها ناراً حرها يشوي وجوه الظالمين، وتصهر بها أحشائهم، فتخور قواهم وعزائمهم، وتخوي هممهم ومدافعهم. وكانت معجزة الإسلام الجديدة التي خرقت المألوف، وخرجت عن السنن (أن ينتصر الدم على السيف) وأن تقهر الأمة الجسور بدمائها الطهور قوى الغي والفجور.

(والانتظار) الذي هو فلسفة عميقة للأهبة والاستعداد ليوم الظهور الذي تزينت بالبشرى به الكتب السماوية والمسانيد والصحاح والمصادر على شتى مذاهبها ومشاربها، والذي يعني في أدق معانيه

وأرفعها وأصدقها مواصلة المسير بالمجاهدة والفداء كفرس في المضمار يُعَدُّ للصيال، أو كسيف لدى القيِّ يشحذه للقتال، إلى اليوم الذي تكون فيه المجاهدة في أعلى صورها ليكون الفتح في أعلى دراجاته على يد الموعود المنتظر، والظافر المؤزر. هذا الانتظار بذلك المعنى المقدس الكبير، صيَّره الخانعون فلسفة للقعود والخمود، وذريعة إلى السكون والركود، احتج بها الساكتون دليلاً على سكوتهم، واختبأ في وحلها القاعدون فلا يعنَّفون على قعودهم، واستدلوا لصوابهم بمدخول الروايات فطمسوا بها معالم الآيات البينات، أو أخطأوا في فهمها فضلوا عن حقيقة علمها، هذا الانتظار صيَّره الإمام حركة واستباقاً، وظهوراً بالهدى وإشراقاً، ونهوضاً بواجب الأمر والنهي، وفريضة البذل والسعي، يأخذ من القرآن آيات الجهاد فيقارع بهن رواد الفساد، ويضرب لهن واهن الأخبار دأب العليم عرض الجدار، ويحكّمه عليها ولا يحكّمها، ويقدمه أمامها ولا يقدمها.

وكان هذا من فكره المبدع، ونفسه الصافية، وفقهه البارع الواسع، وبصيرته النيرة الثاقبة، ومعرفته بربه ودينه، ومطالب رسالته، وشؤون دربه ـ كان من إبداعاته الجسيمة وآرائه القويمة، فالانتظار عنده ثورة الأباة المنتظرين يعدّون أنفسهم بالإباء إلى اليوم المكين، ويطهرون الأفق الملبد بالسحب والليالي، لظهور دولة الخير والمعالي، فإنها تصنع بالرجال لا بالخيال، وتأتي من الهمم العظام لا بأحلام المنام.

وتصدير الثورة الكبرى إلى أقطار الدنيا بالموعظة الحسنى كان من شعاراته البارعة وشموسه الساطعة، فثورته ثورة الإسلام، والإسلام دين العالم، ومثل هذا الدين لا تحده الحدود، ولا تقف في وجهه السدود، بل هو النور من فيض الشمس ينساب من علٍ بالهدى والاستقامة، لتبصر الدنيا طريقها في زحمة الطرق المعتكرة المتشابكة، وترى به موطئ أقدامها في ظلمة أغدفت وأغدقت، فاشتد فيها الصدام والاحتدام، فما دام الإسلام كذلك فثورته العظمى يكون هدفها الأسمى انتشاره بالموعظة الشافية، والدليل النيّر، والبرهان القاطع، والحكمة الناجعة، فإنه بذلك تسلس القلوب، وتذعن النفوس، وتلين أزمة الأرواح والضمائر، وتسلم البواطن والظواهر.

وفي تجربة الإسلام الأولى، وسيادته العظمى، وعبوره إلى القارات، وامتداده عبر تلك المسافات ـ دليل حي على شأن الإسلام في الوجود، وعظمته واقتداره في الامتداد عبر الحدود، فهو دين العقول والبصائر، به تنشرح الصدور وتنعم السرائر، فما على الإسلام اليوم بعد أن هز الركام الثقيل هزة

قاهرة فانتفض من تحته كالبركان ألا يعيد تجربته الأولى فيبسم لعبوس الحياة الكالحة، وينساب إليها شميماً ساطعاً ذاكياً، يعطر قلبها المليء بنتن الحياة وعفنها، فتبقى حلس روضه لا تفارقه، ويمد يده الآسية الرؤوم يأسو كلْمها، ويمسح قلبها الجريح، يشفيه من القرح الممض، ويضمها إلى الصدر الودود، يذيقها من طيب حنانه ما ترى به طيب الحياة، وبهجة العمر، وحقيقة معنى الوجود؛ وجود الإنسان الكريم في ظل ربه الرحيم.

ومن شعارات هذا الإمام التي هي من صميم الإسلام شعار (يوم القدس) يوم مسرى الرسول، ومهد عيسى، وأولى القبلتين، ومهوى قلوب المسلمين وأبنائها الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، فقد برّحها الوجد وأضناها البعاد واصطلت أنحاؤها كأبنائها بسعير اللهفة والحنين، فهذه السنون قد التي فصلت بينها وبين أهليها نصال تعبث في أحشائها، وهي في نفوسهم محنة من الفراق تشب لها نار فيهم تأكل خضراء بهجتهم، ويقوم لها عندهم عاصف مرزم يخضد روض دعتهم، وليس يعني القدس وحدها بل إنما يعنيه ذكر عاصمة البلاد ليس إلا البلاد جميعها لأنها منها بمنزلة الرأس من الجسد، والقلب من البدن، على أن فلسطين كانت من شعارات هذا الإمام وغاياته، وكانت لها في نفسه لوعة ضارمة لا تهدأ، ووقدة متسعرة لا تخبو، وحسرة لاهبة لا تنقطع، وكان لها على لسانه نداء رفيع إلى تحريرها، ودعوة صادقة إلى إنقاذها، وشحذ للهمم الوانية في نفوس العرب والمسلمين الذين يرونها تنتهك فلا تضرى فيهم نار الغيرة، ويبصرونها تهان فلا يبدون ولا يعيدون، ويسمعونها تستغيث فلا تحشمهم الاستغاثة، ولا تهزهم من رقدة الخنوع صرخة الحرة السليبة بين أيدي الغزاة المجرمين تنادي «يا للمسلمين».

وإن في اختيار شهر الصيام، وانتخاب الجمعة الأخيرة، ليوم القدس مداليله الكريمة ومراميه العظيمة التي منها أن المدينة المقدسة التي اشتق اسمها من القداسة لا بد لها من يوم مقدس يُرفع فيها ذكرها، وتُعلَن نصرتها، وتعاهد على السعي الكبير وإن طال المسير إلى تحريرها وتطهيرها، وأن الفكر بهذا عبادة سامية، وطاعة عالية، فليكن ذلك في أقدس الأيام وأسماها، وأطهرها وأعلاها، وأنها بعد الغياب في دياجي الاغتصاب، وعجز أبنائها عن ردها، وإعادة عزها ومجدها، وبعد طول مكث الغاصبين فيها، وحرصهم الأكيد عليها، وجعلها عاصمة لهم ليقولوا إنهم فيها ماكثون، لا يحولون عنها ولا يغادرون، بعد هذا كله لا يصلح استرجاعها في العقل والتدبير إلا بالعزم الكبير،

يعاضده الإيمان والسلاح، وبذل المهج والأرواح، وقوة الإرادة على درب الجهاد لتحرير البلاد، ورأس ذلك الجهاد الصبر والمصابرة، والتحمل والمعاناة.

وفي شهر رمضان لهذه المعاني السامية ألوانها الزاهية، وليس يكون للقدس منالها المحبوب، وطلوع شمسها بعد الغروب، إلا بجلَد راسخ في دنيا الطاعات، وصبر مكين عن الشهوات، وأولها شهوة البقاء على قيد الحياة ولو بالذلة والاستخذاء، والسكوت عن نجدة الحق الغصيب لمعرة الحق العصيب، فبالصوم عن الشهوات؛ شهوة البقاء، وشهوة الدعة والراحة وشهوة الأمن والسلامة، يكون التقحم في الهلكات لأجل الشرف القدسي المضام، ويكون الخوض في غمرات النصب والوصب من أجل مكرمة الفتح المبين، ويكون بذل النفس والنفيس لتعبق تلكم الأنفاس الفلسطينية في رياض فواحة للنصر الأغر.

وفي شعارات هذا الإمام بل واقعه الرفيع هو، وواقع أمته الذي صنعه بدينه وعلمه وحكمته، حقيقة (حزب الله) فحيث يكون للشيطان أحزابه المنظمة، وجنوده المدربون، وصفوفه المعبئة، وتنظيماته المبثوثة التي حملت على كاهلها أثقال الليالي، وأعباء الدياجير، ورسالات الجاهلية وأوزار الصنمية، تريد لها أن تسود الأرض لتعود بعد الاستصباح في فحمة الظلماء، وبعد الهدى في غمرة الضياع، وبعد حيرة الوحدانية وبهجتها في عبودية الأرباب وأغلال العذاب. حيث يكون ذلك يكون لا بد للإسلام الأصيل برأي قائده الجليل من حزب رائد وتنظيم راشد يمشي في أحناء الأمة مشي الدواء يشفي سقامها، ويفيض فيها روح الاستقامة يقّوم بها أودها واعوجاجها، وينساب بها سيب فرقان فيصل تعرف بتوجيهه رشدها ونهاها، وتختار بدلالته صلاحها وهداها، ويمتاز بنوره حين تبصر به من أحبها ومن عاداها، وينبعث هذا الحزب في أحنائها روح هدى ورشاد واستقامة وسداد، ويكون فيها ـ حفظاً لمصالحها، وحرزاً لثورتها، وحماية لمكاسبها ـ رائد الأمر ومدبره في رضا الله، وموجه الركب ومسيره إلى مجده وعلاه، وتنبث خلايا هذا الحزب العظيم في أرض الله الواسعة، شموس الرسالة الهادية في الأرض الداجية، وسحائب الرشد القويم تهطل بالخير العميم، تعشب جدبها، وتورق مَحْلها، وتبعث خواءها وتحيي فناءها فلا خصوم الحق ولا مدّعوه يسوسون، ولا الدخلاء

والعملاء يدبِّرون، هنالك حيث تكون الولاية للحق المبين، والغلبة لحزبه المكين ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

إنه يقول ـ قدس سره ـ :«إنني آمل أن يبرز إلى الوجود حزب واحد، وعلى المسلمين في جميع أنحاء العالم الدخول في هذا الحزب الذي هو حزب الله، وهذا ما يوافق إرادة الله في وراثة الأرض».

«بتشكيل خلايا حزب الله للمقاومة في جميع أنحاء العالم سوف يستنقذ المسلمون الأرض الإسلامية...».

[1] سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

الإمام والحرب والشامتون

تلكم الحرب العوان فُرضت على أمة الإسلام في إيران، بكل شراسة البغي ودعارة العدوان، فأناخت على الثورة الفتية بكلاكلها العصية، واندفعت صوب الحقيقة الماثلة بمعابلها القاتلة، وكان همها الوحيد الداعر قتل هذا الوليد الثائر في مهده الزاهر، وسدَّ باب الشروق الرائع بنور الإيمان الساطع، فلا يمشي في الدياجير يبددها ويجلوها، ولا يتفجر في الضلالات يفضحها ويمحوها، لتقوم في عصر الشياطين حقيقة الدين المبين، بعدما أريد له أن يبقى طيلة المدى رهين الثرى، يبكيه الباكون، ويندبه النادبون.

تلكم الحرب الضروس كيف طلعت على الإمام بوجهها الكالح الغضوب؟ وكيف طلع عليها بوجهه الباسم المقتدر؟ ماذا كابد منها من رزاياها، وماذا كابدت منه من مواقفه وبطولاته؟ وماذا تجلت في هذه الحرب من الحقائق الواضحة؟ وماذا كان منها في صالح الإمام وثورته وأمته؟ وما الذي جناه من ثمرها من جِنان ثباته وعناده وإباءه؟ ما الذي فجر في نفسه ينابيع الرفض القاطع لإيقافها؟ وصرفه حتى عن مجرد الفكرة في الراحة من رزاياها وبلاياها، حيث رأى دوامها فرضاً لازماً لا محيد عن أدائه، ووظيفة مقدسة لا بد من إنجازها؟ من الذي جاء بالأمر العجاب محيِّر الألباب في لحظة هزت الدنيا وأمادتها، وصارت هي البركان الذي تفجّر هادراً فذهبت حممه تغزو القلوب بجحافل الدهشة، وتطعن النفوس بحراب الذهول، وصارت حينها هي الحدث الأعظم الذي شخص في الأفق الأعلى جسداً حسياً، وإنساناً علياً، صارخاً بلوعة الحق الأسمى عرجت به الظروف القاهرة، والخطوب الفاقرة على غير ما يرجو، والسعي العظيم القدسيّ الذي عثرت به خطاه دون غايته، قد أدنى من فهمه كأساً مصبَّرة من السُّم الزعاف يريد أن يشربها؟.

إن ما طلعت به الحرب من حقائقها يفوق الإحصاء، وتتسامى معالمه الباهرة عن الوصف والثناء. لقد كان مما تجلت به السبب الذي من أجله شنَّت غارتها الرعناء، وشبت نار حربها الهوجاء، ولم يكن غير هاجس الخوف من تلك الأوبة المحظورة للإسلام التي أبا الاستكبار ـ منذ دهره السالف يوم طمس معالم الدين وضيَّعها ـ أن تري العالم روح ذاك الدين العظيم رأد الضحى، ونوره الوهاج كالشمس الطالعة، وحكمة العدل كأنه القسطاس المستقيم، ورحمته الغامرة كالفيض الغامر، ونعمته السابغة وسع السماء، ترفع عن كاهل الإنسان شقاوة الحرمان في النفس والواقع، وبكلمة أجمع للمراد، حضارته

الفريدة التي طلعت على البشرية كما يطلع عليها من أفق التحقق نور الأمل الكبير، فتألقت فيها حياة الإنسان مطهرة مهذبة، بالواقع الرفيع النزيه، والحركة الصاعدة المتسامية بفكرها وعلومها ودأبها ونشاطها.

ومما تجلت به الحرب وقوف الاستكبار كله ضد هذه الثورة التي رفعت ـ تقود المستضعفين ـ لواء التحرر من رق الكبراء، وانعتاقهم من نير الاستخذاء، وقيامهم كالأسود الكاسرة تحطم القيود الآسرة، لتكون الأسرة رائد نفسها لا يرودها سواها، وقائد واقعها لا يقوده عداها، ومالك مقدراتها وثرواتها تفعل فيها ما به صلاحها، وتضعه فيما تحب وتختار مما فيه سؤددها ونجاحها، مختارة حرة، لا مكرهة ولا مضطرة.

وهذه هي الضربة التي رأى فيها المستكبرون مقتلهم إن نالتهم، فقاموا لعلاجها بألوان العداء، وهي الصيحة التي إن دوت فبلغت كل القلوب عن الآذان الواعية لكانت هي الداهية، فسارعوا إلى نصب الجدران حولها وسد الآذان عنها، ودوى لهم حولها رهج صاخب، وصراخ واصب، لتضيع فيهما، وتموت في أحشائهما. وهي الصبح المنير إن اطل بوجهه البسام في غمرة الظلام جلّى عن الأرض عشواتها، وبدد من حولها ظلماتها، فعادت مستنيرة مستصحبة، ترى طريق السلام والنعم الوافرة، وتهدي إلى شاطئ الأمن في اللجج الغامرة.

وعاد ـ بوقفة المستكبرين كلهم لقتلها ـ يوم غابر طوته القرون، حين خندق الإسلام على نفسه وقد أحاطت به عوادي الشرور فعاد كالزورق المهيض في الخضم المزبد، أو الهباءة في الفسيح الواسع الممتد، وأبت الثورة اليوم كما أمها بالأمس أن تعنو للذل، أو تضعف أمام الكرب، أو تلين لفرط القسوة، أو تخور أمام العاصف المرزم، أو تحور عن الهدف، وقد وقفت على الدرب إليه كل المحن والعقبات. ويبقى فرع تلك الشجرة الطيبة الثابتة الأصل يتنامى ويمتد حتى أوشك أم يطبّق الأرجاء، ويأخذ على الظالمين أجواز الفضاء.

وكان من بركات تلك الحرب برهان تلك القضية الكبيرة (دور الأمة في ثورتها) فإنها نبتت في قلبها، وارتوت من دمها، وامتدت فروعها مع عروقها في وجودها، وفاحت أريجاً مع أنفاسها ومشاعرها. فالثورة كانت ثورة الأمة فكانت الأمة هي الحامي والذاب والناصر، وكانت هي الكهف الحصين

والملاذ الحريز، وكانت هي بدينها سرَّ المنشأ في مغزى البقاء، وكانت هي المستشار لذلك التيار، فهي تصونه وترعاه وتحوطه وتتفداه.

ووقفت الأمة في حرب العدو اللدود كالطود لا تهزها بوائق العدوان وقد طلع عليها بحالات وفنون من الخطوب والكروب هي تاريخ كامل من البلايا والفجائع، لم يلفتها أحد في فصل واحد من فصول الرزايا في التاريخ، ولم ترها عين الزمان في حقبة واحدة منه، فراحت تجمع الفصول والحقب بعضها إلى بعض حتى ائتلفت كتاب فاجعة عظمى، عندها رأت فيها كفؤ فاجعة الحرب الظالمة، وعدل رزيتها القاصمة.

وبانت في الحرب حقيقة سامية مما كشفه الفكر العملاق للإمام من واقع الرسالة العظمى وتاريخها، وأفاد منه وبه أروع الإفادة وأعلاها، ألا تلك حقيقة (انتصار الدم على السيف) وفيض المهجة على قذيفة المدفع، فحين طلع العدو بلامة الحرب التي لم تر لها عين الدهر مثيلاً في واقع مناضلة وميدان مصاولة من كل جديد فريد ابتدعه الأسياد وادخروه في مضامير المذاخر للأيام المشهودة... طلعت الأمة في إيران كما هو شأنها في طلوعها على أعدائها باليد العزلاء أو شبهها، قد أحمت مواسم العلاج للداء العضال وذلك هو دمها الفائر في عروقها، ومهجها الضامئة الحرى إلى البذل، وقلوبها اللهيفة إلى العطاء. والتهب الدم الفوار ناراً حامية، واشتعلت المهجة لظىً متوقدة، وانتشرت أفلاذ القلب حمماً قاتلة من بركان العزم الذي يسعره الإيمان، ويفجره القرآن.

وبقيت الثورة كما هي أكثر عزماً وشموخاً واقتداراً، لأن أمتها التي أنجبتها أرادت لها البقاء، لتُستعلَن بذلك حقيقتان باهرتان هما: لا ثورة بلا أمة، وغن ثورة الإسلام في إيران هي دم تلم الأمة الثائرة على هدى الإمام العظيم ونهجه الكريم.

ولقد طلعت في هذه الحرب من صنع الإيمان والأمة المؤمنة معاجز للفداء والعطاء لم تبصرها ناظرة التاريخ في هذه الأمة الشاهدة إلا في فصل واحد هو الصدر الأول لهذا الدين. فلقد أنجبها رسوخ الإعتقاد، وصدق الإيمان، وعزمة الحق، وروح البذل، ونداء القائد وحكمته، وفداء القيادة واستبسالها؛ صوراً باهرة تدهش بها العقول، وتطير لها القلوب شعاعاً في الأجواء من عجب وحيرة لأبهى مظاهر الثبات والتصدى، والرفض والتحدي، والإباء والفداء، والجود والسخاء.

وجسدت الحرب ـ أروع التجسيد ـ حقيقة الارتباط بهذه الثورة وربها، وصدورها عن أمره، وصنعها على عينه، وأخذها من مصدره، وفيضها من نبعه، وسيرها على هداه الذي أنار لها دربها به ولياً من أوليائه العظام، ودليل من أدلائه في الأنام. وحين كانت الثورة ثورته كان حقاً عليه نصرها، وهي لم تعتمد سواه، ولم تصمد إلى غيره، وقد كفرت بكل آلهة الدنيا وأربابها وأصنامها وجاهليتها، لتتمحض عبودية له، وإيماناً به، وعملاً بشريعته.

وتجسَّمت في العون الإلهي الكبير في الحرب وما قبلها وما بعدها حقيقة المصدر الرباني في الثورة، وقضية التأييد الغيبي لدين الحق والسداد، وإمام الرشد، وأمة الثورة، ولولا ذلك ما قامت لها قائمة في محنة أيسر وصفها أنها قاصمة، ولأضحت شوكتها مخضودة، ونبتتها محصودة، تحرق بنار الغيظ والعداء، وتذرى رماداً في الهواء.

ولقد قال لي أخٌ في الله ـ ولم يعدُ الصدق في التعبير عما في نفسه ـ إنني لا أبحث بعد اليوم عن أدلة معمقة أو ميسرة على وجود الله وحقانية الرسالة الخاتمة، فعندي ببقاء هذه الثورة في حوازب المحن، وجوانح الخطوب من بين يديها ومن خلفها، ومن فوقها ومن تحتها، وعن يمينها وعن شمالها ما عزَّ على غوص الفطنة كنه بأسه، ومعرفة فرط وقعه، فظلَّ رهن الأحاسيس والخيال، فليس له ما يتسع له غيرهما من مجال، عندي بذلك ألف دليل على وجود الحق الذي أبى إلا صون الحقيقة الغراء، ووجود الإله الذي أنجز وعده، ونصر عبده، وأعزَّ جنده، ولولا ذلك الوجود المشهود بدلائل العقل والوجدان لما بقيت هذه الثورة ساعة واحدة تتنسَّم عبير الحياة، فضلاً عن أن تبقى عزيزة شامخة ترمى في الأتون ولا تحترق، وتقذف في كل غضب الدنيا ونار سخطها فيكون ذلك برداً وسلاماً، وها هي تمتد كأنها النور لا تصده الغرابيل، وتنساب لطيفةً كأنها الموج الخفي لا تعوقه العوائق.

وتجلى في الحرب بعد كل ذلك وقبله خُلُق الثورة وخُلُق قائدها وأمتها، ذلك الخلق الذي طلع من الإسلام فأشرق بخصاله، ونبع من عينه ففاض بشمائله، وتمثل له بأمته بأرفع الفضائل والخلال في المواجهة، رغم أنه المظلوم المضطهد، فدفاع أمته كان أنزه الدفاع، قد خلا من السبل الملتوية، والحيف الحرام، والظلم المرفوض، ومن رد العنف الذي طال الأبرياء بعنف مثله يفعل فعله، إلا بقدر الضرورة مما يسمح به الدين الحنيف لردع المعتدي، وصد المبتدي.

ولقد دخلت إيران الحرب وخرجت منها بثوب نقي هو ثوب الظلامة والطهر واليد البيضاء من الرذائل، ودخلها عدوها وخرج منها وهو ألأم أهل الأرض وأوغلهم في الجريمة، وأبعدهم في التيه، وأكثرهم وزراً مما جنت يداه فيها من عظيم الجرم، وكبير الإثم، وغريب الجنايات، وفادح التبعات. وشتان بين ما نزلته إيران في الحرب وبعدها في قلوب البشر من المنزلة العليا، وحظيت به من المكانة السامية ـ لأنها المظلوم الصابر الذي لم يخرجه أبشع الظلم عن حد التقى والنزاهة والاستقامة ـ وما هوى فيه عدوها من القعر البعيد لذلك الحضيض في مستنقع العار والشنار، تهتن عليه فيه لعنات اللاعنين من شتى الأمصار والديار، وتُعرَض على الناس سواءته وسيئاته يندى لها جبين البشرية على شتى سلائقها وأذواقها.

ولقد طلعت سجية التقوى عند الإمام من أجلى الأمور الرفيعة في هذه الحرب؛ تلك التقوى التي حالفته سحابة عمره رفيقاً لم يصاحب غيره، وأنيساً لم يهنأ عيشه بغير الأنس به. حالفته وصاحبته في كل خطوة خطاها على دربه المليء بالأشواك والعثرات والمداحض، وكان يقدر ـ لو أسلس عنان نفسه، وأرخى زمامها لتذر التقوى ولو حيناً ـ أن يصل إلى غايته ببعض راحته عن طريق سالكة خالية من نصال الهموم وسهام الغموم، لكنها غير طريق التقوى، وكان يمكنه في الحرب ـ لو نزع لباس الخشية من ربه آناً من عمرها ـ أن يظفر بعدوه ظفراً قاهراً لكنه غير ظفر المتقين الأبرار.

وكان في وسعه وذلك رغيب النفس الأمارة، وسجية الإصرار والعناد على ما تبدلت فيه الأحوال والظروف، مخافة حزِّ السيوف الباترة للشامتين، ووقْع النصال الضمأى للحاقدين ـ كان في وسعه أن يديم الحرب حتى يأمن قلبه الوادع الذي أتعبته المحن والسنون تلك الطعنات النجل التي تصميه فترشه أوصالاً في الفضاء، وليكن بعد ذلك ما يكون، ولو كان قتل الإسلام والثورة، وتدمير البلاد، وإهلاك العباد، لكن تقواه الوتر، وخوفه الفرد من ربه، وإخلاصه ووفائه لبارئه وثورته وأمته، أبت عليه إلا أن يقرَّ للواقع الجديد الذي يفرض عليه أن يقبل بما تأباه، وأن يذعن للإلزام به ويرضاه، لأن به مصلحة الدين، وخير المؤمنين.

ويدخل الحرب ويخرج منها نقي الثوب، سليماً من العيب، قد رفعته تقواه فيها عن المزالق ومواضع العثرات، واجتالته عن المسير إلى الغاية في السبل الملتويات، وظلَّ رهن التقوى يكابد فيها بالعياذ بها مرارة الصبر على الطاعة والمعصية، مع عدوٍّ لم يصرفه صارف دين ولا ضمير ولا قانون عن أن يأتي في عدائه وحربه أي دعارة، وعرامة، وفجور وشراسة، ومجافاة للعرف والأخلاق، ولأيسر ما اتفقت عليه

كلمة الناس من مبادئهم وقيمهم، ولقد كان في رخصة كاملة من الإلزامات الدينية والإنسانية والدولية؛ يصول صيال الوحش الكاسر ويخبط خبط العشواء في الليلة الظلماء، وإذا ما كانت الأشياء والأمور تُعرَف من أضدادها، فعدو الإمام الكريم كان ذلك الوغد اللئيم، وهذا من مفاخر المقربين، وسيماء الصالحين.

ولا ننسى ما أنجبته الحرب من قضية الزيف في مدعيات المدعين ومزاعم الزاعمين فيما سمَّوه المنظمات العالمية لإنصاف المظلوم، وردع المعتدي، والذبِّ عن حقوق الإنسان، فاستبانت هذه الحرب أداة بيد الظالمين يضربون بها خصومهم، ويحققون بها مآربهم، ودوابَّ ذللاً يمتطونها إلى غاياتهم، وثياباً براقة يستغشونها تستر عن عين الدنيا كلوح وجوههم وقبح فعالهم. وكانت الحرب، وطلعت على الدنيا بجرائرها التي عزَّ لها النظير، وكأن عين تلك المنظمات كانت عمياء لا تبصر شيئاً مما يجري، ثمَّ لما أحاطت الخطيئة بصاحبها، وانتقض غزل الغازل، واحتبلته أشراكه؛ ارتفعت عقيرة المنظمات تنادي بحق الإنسان، وقبح سفك الدماء، واقتتال الجيران ومساوئ الدمار، وفجائع الخراب، وحرمة الإصرار، على ما فيه الهلاك والبوار.

ومما التمع في معمعة الحرب من حقائقها الزاهية؛ حقيقة عالية يزاح بها الستار الذي كثَّفه الظالمون على وجه دوافعها الزاكية في مواصلة الحرب حتى بعد أن قمعت عدوها فانكفأ ذليلاً صاغراً يلعق جرحة، ويندب حظه. فثمة حقيقتان في شأن الإصرار على المصاولة والنضال المقدس هما سرٌّ ذلك العناد الأشم، ومغزى ذلك الرفض القاطع.

لقد كان عقاب البادئ المعتدي الذي سفك دماء الأبرياء، وخرب الديار العامرة، وانتهك الحقوق، مما فرضه الله في كتبه، أو أقرته الأمم في ضمائرها أو في عصبتها، وتجاوز كل الحدود التي رسمتها الشعوب أو منظماتها، يراد بذلك العقاب أن يكون نكالاً لما بين يديه وما خلفه ومثلاً للآتين، وآيةً على مصير الجناة الظالمين. كان ذلك أولى الحقيقتين، وحقيقة أخرى تأتي بعدها تظاهرها في بيان الدافع؛ هي نصرة المظلوم المستنصر في الدين: ﴿ **وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ** ﴾[1] فالعراقيون المجاهدون الذين خاضوا الحرب ضد عدوهم في عقر داره ومن خارج الحدود، وسطروا للمجد في ذلك الجهاد أروع الصفحات، وأنزلوا من سماء العز والفخار أسمى الآيات، يتلوهن الواقع العظيم فتخشع

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

القلوب، وتقشعر الأبدان، وأعطوا للدين الذي أرادوه حكماً وشريعة ونظاماً أغلى العطاء هو عطاء الأسخياء، أولئك كانوا في صميم الحرب، وطليعة ركبها الحافد إلى النصر؛ سيسألون إمام المسلمين نصرتهم، ويستنصرون أمته على عدوهم، ويناشدونهم بفرض الدين والإنسانية، وحق المسلم على أخيه في نجدته أن ينصراهم في صيالهم، وأن يعضداهم في قتالهم. وجاء إلزام هذه الفريضة ليؤازر فريضة رد البغي وعقاب الباغي فتكونا فاطر العناد الكبير، وبارئ الإصرار المثير، في لجج الفواجع، ورعود القوارع، وفواقر النكبات، وبوائق المصيبات.

ثمَّ ماذا كانت الحال؟ وكيف آل المآل؟

رضي الرافض المصر بوقف القتال بعد أن كان يراه عين الضلال، فماذا عدا مما بدا لتذهب تلك الجهود سدى؟ لماذا كان الإصرار والعناد حيث يقال له لا تصر ولا تعاند؟ ولماذا الرضى والقبول وقد كان يسميها خيانة لله ورسوله؟ لماذا لم تتوقف الحرب والعدو ضعيف مهزوم ينشد الصلح مستجدياً ذليلاً بعد أن يعطي كل شيء ويقر بكل شيء؟ أين صار طريق القدس الذي قال عنه إنه يمر عبر كربلاء؟ وأين إنقاذ الشعب المظلوم في العراق يستنصر الأباة على الطغاة والظالمين؟

لقد آلت الحرب إلى السلام، لأن ذلك هو مصلحة الإسلام، بعد أن حالت فيها الأحوال، وتغيرت الظروف، وتمادت الأمور، وولدت (عناوين ثانية) من رحم الواقع المرير ليُغض بها الطرف عن (الحكم الأولي) وذلك هو رأي الإسلام والعقل والوجدان، وأنجبت المستجدات القاهرة المصلحة الأهم التي ترجُح ما دونها فيعزب عن هذه بتلك بفرض الدين والعقل والحكمة، وأحاطت ببيضة الإسلام وثورته المحن الفاقرة، وأتلعت أعناقها من كل صوب لتنهد نحوها بالبلاء العياء كل غريبة من الرزايا وعجيبة من البلايا، مما صار معها الحفاظ على تلك البيضة أقدس الواجبات، وألزم الفروض، وأعلى التكاليف، وأوضح مطالب النهى والشريعة.

وأبصرت حكمة الإمام النافذة، ورأت بصيرته المدركة، وأشرفت على الأمر من على قمة الفطنة والتقوى والحصافة باقتدار الفقاهة العميقة، ومعرفة سر الله في دينه، ورأي الدين في الواقائع، وبعزمة اليقين المكين من البينة الواضحة في أمره، والحجة اللائحة في رأيه، فهو رافع الراية، وصاحب الولاية، وهو الحجة التي جعلها الأئمة الهداة بجعلهم خط الفقهاء العارفين حجة على أمتهم، وألزموها بالطاعة والتسليم والانقياد لهم، وترك الملاددة والإباء والعناد، فهو الفقيه الذي صان نفسه عن المحرمات

والشبهات، ووَزَعَها بوازع العقل والدين عن الضلال والباطل، وخطمها بخطام الاعتصام والتقوى فلم تتقحَّم في الورطات، وعَقَلها بعقال الزهد والترفع عن أن تذهب به في مسلك الشهوات، وله بعد ذلك من البصيرة والبصر ما حيَّر الفكر، وله من المعرفة بشؤون الدين والزمان ما يعي عن وصفه اللسان بأرفع البيان، وله مع ذلك من الأخلاق والفضائل ما هو آية بينة لحقيقة الإمام الحق. أبصر الإمام ذلك كله فرأى فيه فرض إيقاف الحرب أسمى الفروض وإن كانت فيه شماتة الشامتين، وعيب العائبين، وقدح القادحين، وما عليه أن يناله من ذلك فيشربه سماً ناقعاً وقد نال منه من هو أسمى منه...جده المصطفى وآباؤه الهداة.

ألم يقم نبي الهدى ليقول للناس إني ذاهب للعمرة فهبوا نعتمر لله، ونجدد عهدنا ببيته الذي أرهقه البعاد كما أرهقنا، وذاب شوقاً إلى اللقاء كما ذبنا، ويذهب الناس معه والرؤى الحالمة لرؤية الوطن السعيد تملأ الآفاق أمام ناظر المشرد، فحيثما ينظر لا يرى سواها تملأ قلبه بالبهجة، وتطوف بنفسه في عوالم الأنس، وتصعد بها إلى ذرى الراحة. كان ذلك الأمر هو مصلحة الإسلام والرسالة وأهلها. رآه الرسول فبشر به، ودعا إليه، وسعى مهطعاً شطره.

ثم ماذا كان؟

وقف الرسول محجوزاً دون غايته بالظروف القاهرة، وصُدَّ ممنوعاً دون هدفه بالسدود الفاصلة، ورضي ـ حيث كان مصلحة الإسلام ـ بالصلح مع قريش المشركة الظالمة، ورضي لتلك المصلحة ـ ما رضي الخميني معشاره ـ أن تحذف البسملة والرسالة من صحيفة الصلح. وعاد الرسول الذي يرى لطف الله يسدد خطاه حتى فيما ظنه بعض صحبه غير السداد، ويبصر بركاته تحوطه وترعاه، يغمره اليقين بأن العاقبة للمتقين، وإن طال المسير، أو تأخر المحبوب، أو ائتلف موج المكروه... عاد بلا عمرة مريحة، ولا نصرة صريحةو سوى وعد الله بالنصر المبين لعباده الصالحين، ولقد غرق الناس آنئذ في بحر تلك الواقعة يخوضون لجج الظنون، ويكابدون شراسة التيار للوساوس، ويصارعون أزّ الشيطان ونفاثته، ويساورون تخبيله ونزغاته، حتى قام قيهم من قام بدعارة الظن السيء، وعرامة الشك الخانق، ليُسمع الرسول ما يكره فيما فعله مما أعطى به الدنيّة، وأذل المسلمين، وأعز المشركين لقد قال له: ألست برسول الله؟

(بلى).

ألسنا بالمسلمين؟

(بلى).

أليسوا بالمشركين؟

(بلى).

فعلام نعطي الدنيّة في ديننا؟

ويكون جوابه الحق المبين، من نبع التقى واليقين:

«إني رضيت وتأبى؟ أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني».

وقالت كل طوائف الإسلام: إن رسول الله كان محقاً حيث ذهب للعمرة، وحيث صالح، وحيث عاد بدونها.

وفي صفين ماذا كان من علي أمير المؤمنين بعد أن رأى حرب عدوه الباغي فرضاً لازماً يهون لأجل إقامته بذل الدماء، وتسترخص مهج الأزكياء، ويستسهل خوض الملاحم النكر في لهوات البلاء؟ وحين لام اللائمون وعنَّف المعنفون لم يعطهم سمعاً واعياً، ولا أذناً صاغية، ومشى في الطريق العسير ذلك المشي المقدَّس المرير الذي ذهب ضحيته الآلاف المؤلفة، بعد أن أطبق فيه عليهم دياجي البلاء المغدفة، وأسرعت فيه إليهم المنايا الموجفة؟

ثم ماذا كان المآل بعد ذلك الكرب العضال، حيث تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال، ودخل في الأمر ما لم يكن في الحسبان من فعال الإنسان ونوازع الشيطان؟ لقد صار الرضى بالصلح بقهر الطارئات وغلبتها من رضى الدين وهواه، فصالح ليؤوب بحسراته وزفراته بعد أن تركها ساحة غرقت بالدماء، وملئت بالجثث والأشلاء.

وقالت طوائف المسلمين كلُّها إلا من أجمعت على ضلاله، أن علياً كان محقاً حيث حارب بالمسلمين المسلمين الباغين، وحيث صالح فلم يظفر بشيء من غايته.

ومثل هذا قُل في شأن صراع ولده الحسن وصلحه مع عدو ربه ودينه وأبيه، وقال المسلمون بصواب ذلك، ورووا فيه عن رسول الله الإسلام رواية كريمة تجعل صلح سبطه الأمين من مكرماته وحسناته. فمثل هذا فليقل اليم المسلمون لو أنهم أحسنوا التأسي بأسلافهم المخلصين في فهم الشريعة، وإتباع أهلها وقادتها وأولياء الأمر فيها، فصححوا عمل أوليائهم في حالي الرفض والرضا وإن كانا متنافرين،

وفي مسلك الحرب والصلح وإن كانا متعاديين، وفي نهجَي القبول والرد وإن كانا ضدَّين متخاصمين، وذلك هو فرض دينهم عليهم بطاعة أولي الأمر، وحسن التسليم، وكمال الانقياد، فالخميني فقيه الإسلام، ووليّ الأمر، وقائد الأمة، وزعيم المسيرة، وحامل الراية، طاعته فرض لازم، وإتباعه أمر حتم، والرضا برضاه على كل حال هو حقه على المسلمين لأنه فقيههم، ورائدهم، وحامل رايتهم، وزعيم ثورتهم، وعدوُّه اللئيم من لم يخفَ خبره على المسلمين، رجل من رجال الكفر والإلحاد، بعثيّ الدين والهوى، عفلقيّ التربية والتوجيه، أقام حكمه على الأشلاء والدماء، هو والإسلام كقطبي هذه الأرض، بل هو والإيمان بالله كالذي بين السماء وهذه المعمورة، نشر فكر البعث وإلحاده وفساده، وحظر الإسلام الأصيل ومنعه وقمعه، وقتل العلماء الأبرار، وأعدم المجاهدين، وحالف الكافرين، وسار على منهاجهم، واخذ منهم ضلالاتهم، قد تجسَّد شراً، وتمحَّض كفراً، لم يأمن مكره حتى أصحابه المقربون، فهم في نار شره يذوبون، وبسيف خوفه وتوجسه منهم يُذبّحون.

وهو بعد ذلك بدا العدوان على إيران، وأضرم تلكم النيران، فأحرق خضراء بلاده قبل غيرها، وقتل أبناء العراق ورجاله قبل غيره، وأتى بها ألواناً من الدمار والخراب، تحار في وصفها الألباب، قد شاب من هولها الرضيع، وذاب الصخر الأصم، وتفتت الجلمود، لم يدع باباً في الشر إلا ولجه، ولا سبيلاً إلا سلكها، ولا آلة إلا صال بها، ولم يدع حرمة إلا انتهكها، ولا محظوراً إلا ارتكبه، ولا حداً لله أو للدين أو القانون أو للإنسانية إلا تجاوزه.

لقد رضي الإمام بما كان هو الضلال، لأنه قد تبدل بتبدل الشروط الموضوعية والأحوال (موضوع الحكم) فهو غير ذلك الذي كان حكمه في الدين الحرمة عين اليقين، وجاءت العناوين الثانوية لتقول: إنني على الحكم (الأولي) فائقة، وصار التزاحم بين حرب أصبحت المهم وقد كانت هي الهم، وصلح غدا هو الأهم قد فضُل الحرب وفاقها في الأهمية، منذ خفَّت موازينها في غبطة الإسلام والأمة بما وردها من الطارف الذي أذهب عنها جل شأنها الأول، وثقلت موازينه هو في ذلك بما أتاه من الجديد الذي لم يكن في الحسبان، فأضحى الراجح في الميزان.

وكان الإصرار والعناد منه على الحرب أقرب وسائله وأيسرها إلى طاعة ربه ورضوانه، وكان خلافه خيانة له، ومخالفة عن أمره، وحين صار الأمر غير الأمر؛ غدا الحكم غير الحكم، فعاد ما كانت الخيانة بقبوله أمراً مقبولاً يخون من يأباه، لأنه بعين الفقيه العارف فرض الله.

ولم تتوقف الحرب والعدو ضعيف مهزوم لأن ضعفه وانهزامه كانا يعضدان الحكم اللازم بالسعي إلى عقابه وتأديبه، وأخذ حق الأمة منه، وأي رسول، أو خليفة رسول، أو عاقل لبيب له أدنى مسكة من عقل ورشد يرى في دعوة عدوه الظالم المهزوم ملزماً إلهياً وعقلياً إلى قبول الصلح معه، وإعطاه الدنيّة بالمسالمة، والرجوع عن عدو جائر قد أطلق ساقيه للريح هارباً، فإن هو تُرِك سالماً عاد إلى شأنه في الجور والإفساد وظلم العباد؟!.

وحين كان المسير على الطريق إلى كربلاء المسلة المنتصرة فرضاً، وفتح تلك الأرض المقدسة الطهور المستغيثة عزيمة، كان الهدف الأسمى بعد فتحها نصرة القبلة الأولى، ومعونة الشعب الطريد، وإعادة الحق الغصيب، وهذا في غايات الثورة أرفعها وأعلاها، وهو في أهدافها أشرفها وأزكاها. لكن السعي إلى تلك الغاية السامية.. نصرة أبناء العراق المستنصرين في الدين، حال دونها ودون ما هو أسمى منها ما حال بين الرسول وخلفائه وبين بعض أهدافهم السامية، فحجزهم حجزاً قاهراً بالظرف الغالب القاهر، وصدهم عنها صداً ملأ قلوبهم قيحاً، وشحن صدورهم غيظاً، لكنهم راضون برضا الله غير ساخطين، مستسلمون لإرادته، متوكلون عليه، صامدون إليه، وإن لم يواتهم المحبوب له ولهم، ولم يوافهم المرغوب عنده وعندهم.

ولم تذهب جهود الإمام وأمته في تلك الحرب سدىً، كما لم تذهب جهود أسوتهم وقدوتهم كذلك، وإنما كان بذل الجهود لرضا الله لا لتحقيق النصر، ولو رضي الله بلا نصر فهو أسمى الظفر، ولو كان الظفر بلا رضاه فهو الهزيمة المنكرة.

وليس على الساعي الباذل جهده لغاية كريمة أن يبلغها، وله بعد ذلك أجر الساعي وأجر البالغ غايته وهدفه، فمن هم بحسنة فلم يفعلها بحجز القواهر كتبت له، وسجلت في صفحة الحسنات، وعدت له عند ربه والمنصفين من المكرمات.

ومسك الختام في هذا الموضوع كلمات الإمام ـ قدس سره ـ في حربه وما جناه وأفاده منها وأفاد به، وماذا يقوله هو عن عاذليه ولائميه وعائبيه:

«إن نظرة منصفة تحلل أحداث الثورة ـ خصوصاً أحداث السنين العشر التي أعقبت انتصار الثورة ت تحكم بأن الثورة الإسلامية في إيران كانت موفقة في أكثر الأهداف وعلى مختلف الصُّعُد، وبحمد الله

لم تهزم في أي مجال ولم تخسر، وحتى في الحرب كان النصر حليفنا، ولم يحصل أعداؤنا على شيء مقابل تلك الخسائر الجسيمة التي لحقت بهم.

ولو أن جميع العلل والأسباب اكتملت وتمكنا منها لبلغنا في الحرب أهدافاً أكبر وأكثر كنا نتطلع إليها، ولا يعني هذا أن العدو هزمنا، وأننا لم نحقق هدفنا الأساس المتمثل في رد هجوم العدو وإثبات صلابة الإسلام، كلا.

في كل يوم من أيام الحرب كانت لدينا بركة نستثمرها في مختلف المجالات.

*إن ثورتنا قد صدِّرت إلى العالم أثناء الحرب.

*لقد أثبتنا ظلم العدو وأثبتنا مظلوميتنا في الحرب.

*استطعنا من خلال الحرب أن نزيح عن وجه المستكبرين قناع التزوير.

*إننا من خلال الحرب عرفنا الأصدقاء من الأعداء.

*إننا من خلال الحرب توصلنا إلى حتمية الاعتماد على النفس.

*إننا من خلال الحرب عمقنا أواصر الأخوة وحب الوطن في وجدان أفراد شعبنا.

*إننا من خلال الحرب أثبتنا لشعوب العالم ـ وخصوصاً شعوب المنطقة ـ إمكانية محاربة القوى العظمى، والثبات في هذه الحرب لسنين متمادية.

*إن المساعدة في فتح أفغانستان إحدى ثمار حربنا.

*حربنا سوف يعقبها فتح فلسطين،

*لقد أحس جميع قادة الأنظمة الفاسدة بالذلة مقابل الإسلام نتيجة لحربنا.

*لقد تسببت حربنا في صحوة الهند وباكستان.

*إنها الحرب التي جعلت صناعاتنا الحربية تنمو بهذا الشكل.

*والأهم من كل ذلك أن استمرار روحية الإسلام الثوري كان في خلال الحرب.

*كل هذه الإنجازات هي من بركة دماء الشهداء الطاهرة التي أراقتها ثماني سنين من الحرب.

* إنها ثمرة جهود الأمهات والآباء وشعب إيران العزيز في عشر سنين من النضال ضد أميركا والغرب وروسيا والشرق.

*حربنا حرب الحق والباطل وهي لا نهائية.

*لقد كانت حربنا حرب الإيمان ضد الرذيلة، وهذه الحرب كانت منذ آدم وستبقى إلى الأبد.

*كم هم قصيرو أولئك الذين يتصورون أن عدم وصولنا غايتنا النهائية في الحرب يعني أن الاستشهاد والإيثار والفتوة والتضحية والثبات عديمة الجدوى! والحال أن نداء إفريقيا المطالب بالإسلام نتيجة لحرب الثمان سنين.

*إن رغبة شعوب أميركا وأوربا وآسيا وإفريقيا في التعرف على الإسلام هي من ثمار حرب الثماني سنين.

*إنني من هذا المكان أعلن وبشكل رسمي اعتذاري لجميع أمهات وآباء وأخوات وإخوان وزوجات وأبناء الشهداء ومعوقي الحرب عن التحليلات الخاطئة التي تطرح هذه الأيام، وأسأل الله أن يقبلني في صف شهداء الحرب المفروضة.

*نحن غير نادمين ولا متأسفين للحظة واحدة عن خوضنا الحرب.

*حقاً، أو نسينا أننا حاربنا من أجل إنجاز المسؤولية الشرعية والنهوض بالتكليف الشرعي والنتيجة هي فرع منه! إن شعبنا بقي إلى اليوم الذي كان يشعر فيه بالقدرة وتوَّجه تكليف الحرب إليه مؤدياً لواجبه، وطوبى لأولئك الذين لم يترددوا حتى اللحظة الأخيرة... تلك اللحظة التي اقتضت فيها مصلحة الثورة قبول القرار فقاموا بالواجب الشرعي وعملوا به، وهل العمل بالواجب يبعث على القلق؟!

*لا ينبغي في إبداء وجهات النظر، وإظهار العقائد أن نتصرف بطريقة خاطئة من أجل إرضاء شرذمة من الليبراليين العملاء بحيث يشعر حزب الله العزيز أن الجمهورية الإسلامية أخذت تحيد عن مبادئها.

*ماذا ينتج عن تحليل الأمر على صورة أن الجمهورية الإسلامية لم تجنِ شيئاً، أو أنها لم توفق، غير إنهاك النظام والتشكيك في المسؤولين؟ إن تأخر بلوغنا جميع الأهداف لا يعني أننا تخلينا عن مبادئنا، نحن جميعاً ملزمون بأداء الواجب وليس بتحقيق النتيجة.

*لو كان جميع الأنبياء والمعصومين عليهم السلام مكلفين بتحقيق النتائج في عصرهم لما كان ينبغي لهم أن ينطلقوا إلى أهداف خارج قدرتهم العملية أبداً، ولا أن يذكروا ذلك، ولا أن يطرحوا الأهداف الكلية بعيدة المدى التي لم تتحقق في حياتهم أبداً! والحال إن شعبنا تمكن بلطف الله من تحقيق شعارات الثورة التي نادى بها في أكثر المجالات».

ويقول فيما يشبه هذا الأمر:

«إن السؤال: ما هي نتيجة الدماء التي أريقت؟ سؤال خاطئ وهو كسؤال من يسألنا: (لقد أديتم الصلاة عشرين سنة فماذا حصل؟) إننا نؤدي واجبنا الشرعي وإذا تحقق النصر فلله الحمد وإلا فقد أدينا ما علينا».

*لقد كان كثير من المنظرين يطرحون أن النصر في هذه الثورة هو أمر مستحيل وليس عملها إلا تقديم القتلى بدون نتيجة، إذا تحقق لنا النصر فيها وإذا قتلنا فهذا شأن الأنبياء والأوصياء الذين نهض وثار كثير منهم ولم يمكّنوا من تحقيق أهدافهم.

خط الإمام

حيث تتشعب الخطوط وتختلف، وتلتقي المناهج وتأتلف، وتسير في شتى الجهات والأنحاء، تنمقها الآراء والأهواء، وتمتد في الحياة طرقاً من الأوحال،يكابد منها سالكوها أشد الوبال، وتحت قشرها الأفعواني تكمن الأهوال، فهي أرضية يغمرها تراب الأفكار الواهنة، وشهوانية عجت بأفانين الرغبات الماجنة، لها فنون وشؤون من سجية الحيوان، وعليها ظاهر خادع من طبيعة الإنسان، نفخت لها الأبواق حتى صيرتها قمة الإبداع، وتحدثت عنها الصحف فسمتها الأريج والشعاع، وذهبت في الحياة والإحياء كل مذهب، وطارت إليهم في الفضاء على متن كل مركب، فتكنّفتهم كما تتكنف الظلمات من في أطوائها، وطوتهم طي السجل للكتاب في أحشائها، فهم في غمراتها الهادرة يصطرعون، وفي نيرانها المستعرة يصطرخون، كلما أنضجت جلودهم أبدلَتهم جلوداً عداها، وكلما أذابت قلوبهم وعقولهم أعارتهم من سخفها سواها. في رهج الخطوط والمناهج هذه يمتدّ منهج نوريّ عُلْويّ من كبد الضياء والعلياء، ويشرق شروق الشمس الضاحكة في الأرجاء، يسدِّه مسدِّدٌ سماويٌّ هو الله العظيم، ويدعوا إليه لهيفاً عبده الخميني الكريم، قد انداح قلبه مع امتداده يدعوا العباد، ينادي بصوت رفيع هنا طريق الرشاد، وتفيض في أرجائه نفسه النقية الطهور، أمواجاً من الندى والبهجة والنور، فتهفو إليه ظمأى القلوب والنفوس والألباب، وتهش له في غمرة القلق والحيرة والعُصاب، تقول له مرحى لهذا المنقذ المسدِّد الأمين، يدل الورى مخلصاً على منهج الرشد المبين.

ولذلك الخط أهداف وصفات، وعليه أقاويل وشبهات، وله اليوم في الحياة آثار واضحة، وله فيها ملامح لائحة، وله منها وجوده الوتر المجيد، قد أحضنوا عليه دأب الأم الحنون. قد اشترى منهم أرواحهم فباعوها غانمين، واستوهبهم راحتهم فاسترخصوها باذلين، فهم من أجله يخوضون الرواجف لا يعبأون، ويمشون على متون الأهاويل لا يحفلون، فهم له ثورة دائمة ليس لها ركود، وصيحة هادية ليس لها خمود.

صفات ذلك الخط هي صفات الإسلام وخصال الإمام، لأنه رائده وداعيه والذائب فيه، وشمائل ذلك المنهج هي شمائل الرسالة الخاتمة والقرآن المجيد، وخلال عارضها وحافظها وناشرها، والذاب عنها، والمضحي بكل شيء في سبيلها.

وفضائل ذلك الطريق الخميني هي فضائل الدين الحنيف في أصالته وعظمته ونزاهته، قد جسدها حامل رايته في واقع فذ فريد، أصالة بلا نظير، وعظمة تستجلب الدهشة، ونزاهة كأنها روح الصفاء والنقاء، فتبدي للناس بذلك الواقع المشهود ما تضمره وتبديه رسالة الإسلام التي ذاب فيها مجسمها وداعيها وحاميها من حقائق الخير والكمال، ودلائل الفضل والجلال.

وقد تكشفت بذلك الخط حقائق غيره ممن تسمى بالإسلام وتظاهر به، وطلع مخادعاً بمظاهر منه ليست من الدين إلا في اسمه ورسمه، يفتل الناس به عن النهج الصحيح لدينهم، ويصرفهم عن المسير المرسوم في شريعتهم، ويغويهم عن الطريق السوي المتكامل الأصيل الثائر الرافض إلى طريق كله الأود، والنقيصة، والخنوع، والاستسلام، والرضا بالقوى العظمى وما تمليه وما تعطيه، بل عبادتها في معابد الخوف والخضوع، وفي محاريب الرهبة والبخوع. وقد سمى هذا خط الإمام (الإسلام الأميركي الذي لفقته اميركا مما يرضيها من الإسلام، ونزهته مما يخيفها، وصيرته مسيحية أخرى تشد الإنسان بربه في زوايا المحاريب والمعابد والكنائس، ولا علاقة لها بواقع هذا الإنسان وحياته ومسيره. ويرتكب المنكر الموبق من يدنس ساحته بفرية الإدعاء أنه دين سياسة، ودستور حكم، ونظام حياة في شتى مناحيها، وطريق خلاص من عذاب الضلالات القائمة!!

أما أهداف ذلك الخط فجمة قد يضيق الحصر بها والإحصاء، كما ضاق الوصف والإطراء، وهي نفسها معالم التجديد في مسيرة الإمام الثائر المجدد، الذي تنفس صبح نهجه من روح الإسلام المضيئة. قيام أول دولة إسلامية على أساس الإسلام الأصيل أول أهدافه وأسمى مراميه. وحين تقوم هذه الدولة في إيران تكون المشعل الذي ينير الداجيات، يبصر به المسلمون وغيرهم مسالكهم التي راحوا فيها يخبطون، ويتيهون، ويشقون، ويكابدون علقم المرارات وجمر الحسرات، وحين تدعو تلك الدولة أبناء الإسلام وأهل الأرض إلى هدى الله وواقها الكريم بالحسنى والموعظة الشافية، والكلمة الصادقة، والدعوة المخلصة، وتعضدها دلائل الواقع البهي المنير الذي مضى في الصدر الأول في الإسلام والذي

أرادت هذه الدولة اليوم أن تجدده وتطلع به على الحياة من جديد، تتملى فيه بعين العجب لترى محاسنه الرفيعة، ومحامده البديعة، وواقعه الطهر السامي العظيم الذي ظلمته صروف الحياة فحجبته، وسترته، وضيعته، واستبدلته بواقع حيوانية مبعثها الشهوات والحماقات، ودليلها الجاهليات والضلالات، راح منها الإنسان المتوحش على نهج الغاب يمزق أوصاله بمخالب الطمع والجشع، والرغبة الجامحة، والأهواء السادرة، لا يألو في ذلك جهداً وسعياً وبذلاً ولو كانت فيه مضاعفات الآلام والتهمام، وغاية العذاب والأوصاب.

ومن أهداف ذلك الخط إعادة الدور الرائد العظيم لأمة الإسلام... دور الشهادة على البشرية والقيادة للإنسانية، كما كانت الأمة الإسلامية في الأيام الخالية والقرون الماضية سيدة الأمم ودليلها، وتلك هي الغاية الأسمى التي خلقت من أجلها، وخصَّتها لها السماء برسالتها الخالدة ونبيها الخاتم، وانتهت بدورها أدوار الرسالات، واكتملت بها النبوّات، ولم يزل يحز في نفس هذا الخط أن يرى هذه الأمة التي كانت صانعة الحضارة ومنطلقها، ورائد الركب ودليله... أمة عاجزة ضعيفة ذيلية تابعة، قد أسلست للغير عنانها، وأرخت له زمامها، يقودها كما يحب إلى ما يحب، ويسخرها كما يشاء إلى ما يشاء، خاوية القوى، مسلوبة الإرادة، منهوبة الثروات، خانعة خاضعة كأنها القن الذي لا يملك من أمره شيئاً.

وإمام هذا الخط يرى أن عودة ذلك المجد الأثيل لا تكون إلا بتيار إسلامي مارد، ينحدر صارخاً هادراً من قمة الوعي والثبات والفداء ليهد معاقل الشرك والضلال والفساد والاستعباد، ولا يكون ذلك إلا حين ينفخ (حزب الله) من روحه في هذا الهيكل الخاوي لأمة الإسلام، لتعود حية ناهضة مقتدرة، وحين تنساب تلك الروح الإلهية في هذه الكتل المتصارعة للأمة الواحدة لتجمعها في حلبة الإسلام ومضماره، وتلم شملها على حب الله ورسوله، وتعد منها (كوادر التعبئة الإسلامية العالمية) التي تقود إلى الفتح الزاهر، وتهدي إلى النصر الباهر، بتلك الأهبة المباركة والإعداد المقدس ـ يعود تاريخ الإسلام، يبدد الجاهليات، ويدك العروش والأصنام.

وهذا الخط يرى أن دوره في الوجود هو الإعداد لليوم الموعود، يوم يعود لهذا الدين مجده المشهود، ولا يكون ذلك إلا في إياب الأمة إلى دينها وانتظارها للفرج، انتظار الثائرين الرافضين لا المستسلمين الخانعين. ويدعو هذا الخط ت بنداء قلب أرمضته الآهة الحرى، والحسرة الضارمة لما فقدته الأمة بعد دورها الشاهد الرائد حين ضعفت وخافت وخنعت ـ إلى عودة الأمة إلى استقلالها ووحدتها بعد أن

ذهبت بها المذاهب في مفارز الظالمين ومتاهاتهم، قد تفرقت أيدي سبأ، وهي أمة التوحيد والوحدة، وعادت أوصالاً تقطعها ذئاب الحياة المستكبرة، وقد كان بيدها زمام العالم، وأفلاذاً انتهشتها نصال الفراعنة والطغاة، وبات دمها وعَرَقها وقود شهواتهم، وباتت ثرواتها وخيراتها مرتع السيد الأمير تعمل هي فيه كالأجير، يصفعها إن توانت أو لانت. فليتها إذ خسرت دورها لم تفقد استقلالها وشخصيتها، وليتها غذ ضيعت رسالتها لم تضيّع عزتها وكرامتها، ولكن أني وكيف وبينهما دأب العلة والمعلول، إن زالت تلك فهذا يزول،و شأن القلب النابض بماء الحياة في عروق البدن وأنحائه، لا حياة له بغير نبضه، ولا قرار له بغير خفقانه.

وقيادة الفقهاء العارفين بربهم، الواعين لدينهم، المحيطين بشؤون زمانهم، المبصرين بناظرة الحكمة والبصيرة والفطنة في معتكرات الليالي السود، وعشاوات الضلال والشبهات، وصخب الإعلام المضلل الخادع، وكثافة الأحابيل والمكائد، هذه القيادة هي دعوة هذا الخط ونداؤه، قد تزيتن بها رايته ولواؤه، يدعو إليها بديلاً عن قيادات الزائفين من المستكبرين المضلين، أو أزلامهم المخدوعين، فأين قيادة هؤلاء الأغرار الأوشاب الجاهلين من قيادة أولئك العلماء الحكماء العظماء؟! يزهر في قلوبهم نور الإيمان، وحقيقة العرفان، وتسمو بعقولهم معارف الشريعة السامية، وحِكمها العالية، وتتعالى في نفوسهم عن الرذائل والصغائر نزعة الترفع عن التفاهات، وزهدهم فيما لا يبقى، من معرفتهم بقدر الحياة وشأنها ودورها في وجود الإنسان، وأنها ليست إلا معبراً للوجود الأبقى، وسبيلاً إلى الحياة الأسمى، وتهفو بقلوبهم الرحيمة الممتلئة برحمة الإسلام إلى الرحمة بعباد الله، والإحسان إليهم، وفك إصر البؤس والحرمان عنهم، بعد أغلال الضلالة والضياع التي كانت تكبلهم، وإنها بكلمة أجمع للمراد تناظر قيادة النبيين والصالحين، فأين منها قيادة الشياطين والساقطين؟!

وهذا المنهج الفريد ينادي برفع كلاكل الحرمان عن كل المحرومين، وهو يبذل جهده ـ ما وسعه البذل ـ في إعانتهم أنى كانوا، فهم نظائر في الإنسانية إن لم يكونوا مماثلين في الدين، وللإنسانية حقها الكبير، ولها حق العون والنجدة، وحق النصيحة والتسديد، وهو ـ في رأيه ـ شيء مهم في وظيفة التعارف التي أرادها الله من خلقه وبشريته وعباده.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[1].

[1] سورة الحجرات، الآية: ١٣.

أما آثار ذلك الخط في الحياة بعد دأبه الجاهد إلى أهدافه، فكانت أموراً عظيمة، ومظاهر كريمة، هي حقه وهو أهلها، وهي بعض واجب المسلمين والمحرومين ازاءه، وهم يتأسون بقائده، ويصيخون لندائه، وينهلون من فيض علمه وفهمه، ويستنيرون في الدياجير بنور تسديده وتوجيهه.

لقد كان منها ظهور الإسلام العظيم المشهود الذي أوشك أن يطبق الأرض، على درجات متفاوتة، وحالات مختلفة في قوتها وضعفها، فلا تكاد تجد أرضاً على للمسلمين أو الكافرين إلا وفيها من صحوة الإيمان ما يحار في وصفه البيان. فالإسلام ـ صانع تاريخ البشرية، ورائد حضارتها ـ عاد اليوم (بسعي هذا الخط، وجهده، ودولته الفريدة التي صنعها) يكسر القيود والأصفاد، وينفض من فوقه ركام القرون، وينتفض رويداً بعزمات أبنائه، وجَيَشات أوليائه، ودماء الأباة الثائرين، وحرص المؤمنين المخلصين، وأصبحت (الظاهرة الإسلامية) هي ظاهرة القرن حتى سموه قرن الإيمان والإسلام، فكانت (أسلمة العصر) التي نشدها الخط الخميني أرفع طموحاته وأروع فتوحاته.

وكان من آثاره أن أصبح الإسلام الذي كان في لجة المحنة الطاغية للشبهات والافتراءات التي قال عنه فيها أصحابها: إنه الأفيون الذي يخدر الشعوب، ويرضيها بمصائب الحياة، مسلياً لها بنعيم الآخرة، ويقيدها بأغلال الغيبيات والأساطير والخرافات عن جزاء الصابرين عن الأذى والغصب والقهر والقيود، طلباً لأسمى منشود، وهو رضا الرحمن في بحبوحة الجنان.

وقالوا عنه: إنه صنعة القرون الخالية لحياة البدوي والبعير والجهل المستطير، التي صهرتها الرمضاء في الصحراء، وكثفت عليها ألوان البلاء والعناء، فما شأنه وعصر الفضاء، والذرة، والصفائح المفكرة، والعجيب الغريب مما طلع به عقل الإنسان العملاق في القرن العشرين. أصبح هذا الإسلام ت المتهم بالأفيونية ومجافاة روح العصر ـ قضية العصر الكبرى، ومحير القرن الحاضر، ومعجزة هذا الزمان الذي حسب الجاهلون أنه أبعد شيء عن الإيمان، وراحت الصحوة العملاقة والفورة الإسلامية الواقدة، تقولان: إن الإسلام هو ثورة الحياة الحرة الكريمة على العبوديات والأغلال والإذلال والامتهان، وهو بركان الرفض المتفجر يصب حممه المهلكة على الجهل والخرافات، ولأساطير والحماقات، والأوهام والسخافات، وهو الدعوة الصادقة بل النداء الصارخ في بني الإنسان، أن يصعدوا بأنفسهم باقتدار العلم والمعرفة، وفنون المدنية الخيرة؛إلى ذرى الحياة السعيدة المنورة المطهرة. تلك الحياة التي ينجو بها

إنسانها بإيمانه وانشداده إلى ربه، من عصابه وقلقه وحيرته واضطراره، ويسعد بها بمدنيتها النزيهة، تطورها الصاعد المخطوم بخطام الدين والفضيلة، فلا يطغى ولا يتجبر، ولا يستعلي ولا يعتدي.

فالإيمان الصحيح والعلم المنضبط هما حصن الحياة الرغيدة، تتحصن به من دعارات الكفر والجهل والعلم المنفلت، ومن عرامات الإلحاد والخرافة والإيمان المدخول، والفهم المضلل، والتطور الخارج عن الضوابط والحدود. فكل هذه في رأي هذا الخط ـ وهو رأي الإسلام ـ بلاء الحياة ومصيبتها، وبهما أمست اليوم تتسعَّر في لظى آلامها، ويفور بها تنور تهمامها، وتنوء بالمعضل العياء من أدوائها وأسقامها. قلوب أبنائها دوية، ونفوسهم غوية، وأجسامهم نهب الآفات والبليات، وراحتهم نصب الآهات والحسرات، في الظلمات الموبقة، والعمايات المطبقة، تتنابهم مستحدثات العلل من مستحدثات الفنون التي لم يعقلها الإيمان بعقاله، وتتعاورهم المحن الفقم، وتارات البلاء من صعدهم في شؤون الارتقاء الذي لم يصنع على عين الإيمان وهداه، ولم يهذَّب بأخلاقه ونهاه.

وأصبح الإسلام ـ بجهد خط الإمام ـ دولة رائدة، يسوسها بنظام فريد شامل محيط، قد ملئت أصوله وفروعه بأحكام النفس والواقع، وامتلأ قرآنه وسنته بهدى المسير بكل فصوله وملابساته وأحواله، وازدان فقهه وقانونه وشريعته بما وضع ـ حتى للاحتمالات البعيدة مما قد يقع في الحياة ـ أحكامها السديدة، واستوعبت كلياته وتفصيلاته، وما أعطاه وأتاحه لخلفائه وفقهائه من الفراغ يملأونه على نوره وهداه بالموائم الملائم لشؤون الزمن القائم. استوعب ذلك كل الحياة، فلم يغادر من أمرها صغيراً ولا كبيراً إلا أحصاه، وأحاط به حكمه، واضعاً له هدْيَه ورشده وصلاحه.

وقالت هذه الدولة القائمة في قلب القرن العشرين تفجر فيه بركان الحيرة منها والعجب بها:

*أنها الممكن الفريد الذي أريد له أن لا يرى وجه الدنيا بتهمة الإمتناع.

*وأنها الأمر الواقع الذي دوّى ضده الضجيج ـ قبل أن يقوم ـ بأنه الأمر المستحيل.

*أنها صُلب الدين لأنه به يقوم، وأعظم مراده لأن به تحكيمه، وهو غاية النبوة.

*وأنها أسمى وسيلة لتحقيق أسمى هدف، وان نظامها ـ الموسوم بسمات الحاقدين في أعين الجاهلين والمغفلين ـ هو نظام الحياة في كل أعصارها وأمصارها، وإنه شريعتها في كل أحيانها وأوطانها، وإنه الكنز الذي كانت تحن إليه نفوس الطامحين كأعظم منشود، وتبحث عنه في الخيالات بعد أن أيأسها منه الواقع المشهود.

لقد كان من أعجب ما فعلته الروح المؤمنة الثائرة المجددة العملاق عند الإمام في نهجها الجديد، هو أنها صيرت أخبث الأشياء في أعين الجاهلين والمخدوعين أطيبها، ورجسها أطهرها، وأبعدها أقربها، ومستحيلها ميسرها، حين كانت فرية فصل الدين عن الدولة، وخدعة التنزيه الخادع للإسلام عن السياسة ـ يستشريان ويطغيان، ويدخلان عقول الناس ونفوسهم بوساوس السلاطين ووعاظهم، وإعلام المجرمين وتضليلهم، حتى صار ديناً يدان به، وعقيدة تمتلئ بها القلوب، ينزه بها الدين، ويعظم، ويحمى من شر الضلالات والبدع والانحرافات، ويصان صوناً لازماً كصون الفريضة من مستحدثات الفتن والأباطيل ترأستها ضلالة السياسة التي أريد إدخالها إلى الدين الحنيف، تُهتَك بها حرماته، وتُحصد مقدساته، لتداس دوس الحصيد، وتُذرى ذروه!!

ومشت هذه الشبه الرعناء وغيرها أسرع المشي وأقواه، وأكثره تأثيرا ووقعاً، قد تألب الأشرار والأغرار على معاضدتها ومظاهرتها حتى قرار المطلوب، لأن فيها غاية المرغوب، أن يظل الإسلام وراء الحجب الساترة لا تبدر منه للواقع أية بادرة، فلا يعود ذلك العظيم المهول الذي أخد عليهم أقطار الأرض وآفاق السماء، فطبق حكمه الإلهي الواقع كله، وعمت حضارته الأسمى شرق الأرض وغربها، حيث ماتت الضلالات، وانجحرت العمايات، وخنس الباطل المستشري، وانعكم الشيطان الغوي.

في مثل هذا الركام الهائل الذي دفن القلوب في أحشائه لتلك الشبهة، ومشى الواقع عبر الأجيال المتمادية كما تحب، ديناً معزولاً في زوايا المساجد والبيوت، لا تعرف منه إلا الأذكار الخاوية، والعبادات الضاوية، لا يمتنع من حمايتها وأدائها حتى الطغاة المجرمون وأذنابهم ـ خداعاً وتضليلاً وتغريراً ـ وقرآناً منمقاً تزَّين به المعابد والمنازل، ويحمل في الجيوب دفعاً للبلايا والمنايا، واستجلاباً للمحبوب والمرغوب، وتقرأ لهم آياتٌ منه في محافلهم ومناسباتهم وإذاعاتهم، ويعلقه قضاتهم الجائرون على صدورهم، وينقشون آيات العدل والقسطاس المستقيم منه على موازينه الجائرة، وسيوفهم الباترة التي راحت تقدّ رقاب أبنائه وأتباعه، وتقطّع أوصالهم، أما غير ذلك من كون القرآن دستور حياة شاهدة، ونور حضارة هادية؛ فذلك هو الضلال البعيد.

ويا لها من ظلمات موبقة من الشبهات نبتت عليها الأجيال، وخبطت في ديماسها، وعشت في عماياتها، وشربت من مائها الآسن، وأكلت من مرعاها الوبيل، فشبَّ جسمها عليها وشاب، لا تعرف غيرها، ولا تدري سواها. في كل هذا يطلع ذلك الثائر المحمدي بصوت مقدّس صارخ مادت له الأرض، وخشعت

السماء، واهتزت العروش الظالمة، وخلِعت الأفئدة المتجبرة، وهفت إليه القلوب المحروبة المستضعفة، وحفدت نحوه لتعانقه وتشدَّ على يديه، وتبايعه بيعة الوفاء الوتر لا مثيل لها، وتعاهده عهد الصادقين على التضحية لا شفع له.

وكان من آثار ذلك الخط؛ ذلك التحرك الواسع في العلن والخفاء لإعادة تجربته في أماكن أخرى غير إيران من دنيا العالم الإسلامي، وانطلقت لذلك التحرك صرخات مدوية تنادي بإقامة الإسلام دولة الإسلام، وتطبيق حكم الشريعة، وتنظيم مسار الواقع على هدي السماء كالذي فعلته إيران الإسلام بقيادة الإمام.

وكان من آثاره الحسان حقيقة البيعة والولاء لإمام الخط الوضاء لما صنع فحير، وأبدع بما دبر، فقد بايعته جموع المسلمين وكوادرها المخلصة إماماً لها، وارتضته قائداً لمسيرتها، وعاهدته على الانقياد والتسليم لأنه القائد الرسالي العظيم، ورأت فيه رافع اللواء الذي تجب له الطاعة والولاء، وإنك لتراها في كل مكان من هذا العالم تلهج بذكره كأنه وردٌ من أورادها، وترفع صوره على مرأى من الزعامات الزائفة وأسيادها. لا تخشى في ذلك غوائل الجفاة الطغام، فإنها البيعة الصادقة للولي الإمام.

وبقدر هذا الوداد لرائد الخط، كان الوداد لما صنعه وأقامه من صرح يناطح عنان السماء... ثورته العصماء، ودولته الغراء، فها هي امة الإسلام حيث كانت ولو تحت أثقال الكبت والصمت والوعيد والتهديد، تعبر عن صادق الولاء والثناء بأروع لون من التعبير، وهي تمشي على طريق حبها الكبير لا تحور ولا تخور، وتفعل فعل الألسنة والأيدي والضمائر في حسن التأسي بهما، وتبذل جهدها كي تحيي ذكرهما إن منعتها العوائق أن تجدد تجربتهما، وتمشي من بركات هذا النهج شعاراته الرافعة كأنها الشموس الطالعة، تعرِّف الأمة حقيقة الأهداف النبيلة، وسمو الغايات الجليلة، وواقع الرفض والثبات، وموجبات البلاء الشرود، وتزودها من الفكر الأصيل من صحائفها النبوية ما يغذيها بزاد من الفكر يغنيها عن أن تقتات من فتات الموائد لحماقات الجاهلية، وتصرف عنها الظمأ إلى الماء الآسن في حياض المفسدين.

ولا تعجب فليس نكراً أن تسمع تلك الشعارات الثائرة تهتف بها تلك الحناجر الهادرة، من هنا وهناك في أرض الإسلام، لأنها شعارات خط الإمام.

وهلمَّ من مواقف الخط وآثاره ذلك الأمر العجاب الذي صعقت به القلوب والألباب، أمراً لم تعرف له الدنيا نظيراً، ولم تر مثله أمرا وتراً مثيراً، عرفت به أمة الإسلام قائدها، ورائدها، وحامي كرامتها، والذاب عنها وعن حرمات دينها ورسالتها، وعرف به المستكبرون عدوَّهم أشرس عدوّ يكابدون عدائه علقماً يتمزقون كؤوسه أنفاساً، وحميماً يشربونه فيقطّع أحشائهم. قد رأى العداء للطغاة والجبابرة فرْض دينه كصلاته، فهو في محراب العبادة الثائرة الرافضة يتقرب بها إلى ربه، بل رآه أصل دينه يجسد حقيقة التوحيد، فهو عبد ربه لا عبد الطاغوت، وربه العظيم هو مولاه لا الأسياد والمستكبرين، وأسمى فروضه اليوم وألزمها نبذ هذا الشرك الجديد، وحربه، والكفر بأصنامه، وتحطيمها، وكشفها للناس، وإزاحة الستار عن دعاتها وعبادها والراكعين لها في محاريب الذلة والخنوع.

هذا موقف الإمام في قضية (سلمان رشدي) حين نجمت فأهين بها الدين، دأب كفر عالمي حاقد يشن الغارة الهوجاء على الصحوة الإسلامية الصاعدة، فسكت إزائها العملاء والأذناب، وخاف ما عدا الصمت أمامها أدعياء الإسلام والحفاظ على حرماته، والدفاع عن مقدساته. لكن الأمة المسلمة هبّت كأسد هصور أهين في عرينه المقدس، يقودها إمامها الذي ملئ قلبه الرسالي بحب الله ورسوله ودينه كأعظم ما يكون الحب واصفاه وأنقاه، ونبتت مشاعره وشبّت وفتيت على الهدى والاستقامة والرشاد، ودواعيها من الثبات والصلابة والعناد، وذابت روحه في الرسالة ذوب التقديس والإجلال والإعظام، فأنى لذلك الصبِّ المعنِّي بربه بربّه وهداه أن يقرَّ على سبِّه وأذاه؟ وأنى لذلك المحمدي المتين أن يهدأ ومحمد قد أهين؟ وأنى لذلك الرسالي الكريم أن يذوق طعم الكرى ودينه قد باء بالكرب العظيم؟!

ويقولها صاخة تسمع سمع الرعد القاصف، هادرة متفجرة تفزع البراكين، ليسمعها الطغاة المستكبرون، والكافرون الحاقدون، نذير بلاء ليس له مثيل، ومكربة قاصمة هي الهول المهول، إن هم عادوا على أصلات هذه السيوف الغادرة، وشن مثل هذه الحرب الفاجرة.

وتسمعها آيات الشيطان وخنّاسها، قد نفث بها للغواية وسواسها... حفيد سيف بن همرو و(آياته) العلى، التي بها شفاعة الظالمين ترتجى، ليعرف أن مناوأة الحق والإسلام، شيء ليس بعده إلا الموت الزؤام، وأن منابذة الرسول المصطفى، داهية تقول له عليك يا سلمان العفاء فهذا الخميني حفيد النبوة ووارثها وحاميها، قد أرهف البتّار يفري به قلوب أعاديها، ولو كانوا جبابرة العالمين أو أجراءهم، أو كانوا ذوي

النفاق الخادع وأشباههم.

وتسمع الصرخة العظمى كلُّ الدنيا فتمور موراً من فزعها، وتفور فوراً من هلعها، ويسرع المفسدون فيها إلى الاعتذار، وفيه من روح الهزيمة ما فيه، وقد صكّت أسماعهم تلك الصرخة الخمينية ترددها حناجر المسلمين المقيمين في بلادهم، يفهمون من ذلك أن الخميني هو ولي أمر المسلمين، وأنهم أتباعه المخلصون المطيعون، يمشون على خطه لا يحيدون، ويستنيرون بهداه حيث كانوا لا يحلفون.

ويبادر كثير من الأصحاب والأذناب إلى منع ذلك الكتاب، وحسبك هذا شاهداً على الضعف البادي أمام عزمة الإسلام التي تفجرت من قلب الإمام، بل تبادر الصين الملحدة إلى حظْر كتاب وهَّن المسلمين وأهانهم، تخشى غائلة ذلك الهول الذي كانت بعض آيات فعله وتأثيره مع رشدي وأسياده. فأي نصر كان هو للحق والهدى ذلك الموقف الخميني الجبار المنهد من عزت الجبروت! وأي إعزاز للدين الحنيف كان ذلك الحكم الذي لم يشهد له الكفر الحاقد نظيراً من البلوى.

فلله أنت يا رافع راية الهدى الوضاء، وتنشر أنواره وتذود عن حماه، يا من أقام الدنيا ولم يقعدها لكرامة الإسلام العظيم ونبيه الكريم، يا صاحب ذلك الحكم الذي كان لوحده ثورة... أسمى ثورة، وصمت بها الردة الحاقدة وأسيادها المتجبرون بوصمة الذل والفناء، يا من هو وحده عرّى الزيف في رهج الأدعياء والمخادعين، وكانت وقفاته العملاق الفيصل الكشاف لحقائق المخلصين والمخاتلين.

ولله أنت يا ذلك القلب الخميني الذي صنع على عين التسديد وهداه، فلم تزل الفتوة تطفح من حناياه، قد أوشكت أن تقاربه التسعون، فلكأنها من فتوّة الإيمان أربعون، يصول بها صيال الرجال، ويذب بها عن حمى الإسلام ذبَّ الأبطال، لا يعي وقد عيَّت الزعازع الغضوب بالنطاح، ولا يني وقد ونت الجبال الراسيات في فورة الجماح، ولا يضيق فيسأم ويستكين ولا يتبرم فينحني ويلين.

لقد انقسم الناس في الخطِّ ـ حين طلع عليهم بوجهه الظافر ودولته المنتصرة ـ إلى طوائف ثلاث:

طائفة هللت واستبشرت، ووجدت فيه غاية انسها وبهجتها لأنه غاية مطلوبها ومرغوبها، وهو قد نبت في قلبها، وارتوى من دمها، ومشى في أثقاله الباهظة على أكتافها.

وطائفة هلعت وفزعت، وصرخت بالويل والثبور وعظائم الأمور، لأنها عدوه اللدود الذي لم يزل يقارعه ويثاوره حتى لان مستخذياً، وذلّ مقهوراً حين غلب الحق الباطل، وبدَّدت الحقيقة ذلك الزبد

فولّى، وبقي ما ينفع الناس في الأرض يورق في مفـاوزها الخـاوية ربوع الخيـر، ويعشب بِيْـدها الجُـرْد بالبـركة والعطاء.

وطائفة أخرى توقفت في الخط لا هي له لأنها لم تفهم محاسنه الفاتنات ولم تع آياته البيّنات، ولا هي عليه لأنها لم تر منه ما يؤزُّها على عدائه وحربه، أو يؤلِّبها على سبه وعيبه، سوى ما حام حوله من شبهات تسمعها فلا تصدقها ولا تكذبها، وهي تتربص وتترقب مؤملة أن يتاح لها من الألطاف ما يعرّفها الحقيقة ليملئ صدرها، وتدبِّر على ضوئها ـ إن استطاعت ـ أمرها.

وأدت عوامل ثلاثة إلى أن تنمحي أو تكاد هذه الطائفة من وجود الموقف من هذا الخط، لتبقى الطائفتان الوالهة والقالية تصطرعان في الحب والعداء. فكان منها سعي كلٍّ من الطائفتين إلى كسب فريق من المتوقفين إليها، ببيان الدليل القاطع، أو بمكر الشبهات والتضليل، وكانت حقائق الخط التي أشرقت من فجر الفضائل والمحامد التي هي روحه، ومن أفق المواقف الباهرة التي جسدها في الواقع العظيم في جهاده، وثباته، ووفائه للأمة، وحرصه على الإسلام، وطلبه لخير المسلمين والمحرومين.

وكان ظهور الوجوه على حقائقها لأعدائه وأوليائه حيث استبان أن الطغاة، والمجرمين والملحدين، وأعداء دين الأمة من الجبابرة والظلمة، هم أعداؤه، وأن المستضعفين من المؤمنين وعباد الله المخلصين وكل المحرومين هم أولياؤه. وقد أعانت مواقف الطائفتين ـ الجاهرة أو المستورة ـ على أن يفهم أكثر المتوقفين حقيقة المحبين والمبغضين، فاستعانوا بهدي (إن الأشياء تعرف بأضدادها) و (إن الطيور تقع على أشكالها) ليستبصروا بعد وقفتهم في دجى الحيرة وظلامها.

وسعت طائفة الحقد سعيها بشتى السبل الملتوية أن تحط من شأن ذلك الخط، وتحدَّ من انتشاره، بعد أن يئست من هلكه وبواره، فكان شرُّ سعيها ـ قبل حرب السلاح والنطاح وبعدها، ومصاولة الإعلام والكلام ـ حرب الشبهات والافتراءات، والأكاذيب الباطلة، والأراجيف الفاتلة على نهج نفسية دونها ألف مرة حرب النصال، وصيال أعصاب لا يناظره صيال يقدُّ الرقاب، حيث تعتكر على الأمة بالشبهات ليالي الحيرة في أمرها، وتتجّدى حولها الظلمات الرعن تصرفها عن سواء السبيل في سيرها، فإذا هي ترتاب من وساوس الخناسين، وتشك فيما نفثته في صدرها سموم الشياطين، وإذا هي تكف يد النصرة بعد أن مدتها، وتوقف قدم السعي بعد أن حركتها، وتطوي راية البذل والفداء بعد أن نشرتها، ثم لا تلبث ـ إذا هي مشت في عروقها سكرة الشبهات بآفاتها وآلامها، وسرت في أنحائها آفة التخذيل

بأسقامها ـ أن تعود الأمة الناصبة المعادية لما كانت له محبة موالية ـ تنصب له البغضاء، وتسومه سوم الأعداء، تقصده بكل معبل، وتنشد له أسوء مقتل.

ولقد رأى الظالمون المستكبرون كم كان لهم بحرب الشبهات ومكرها في كل صريع، وفي كل أرض فجيع ، وكم قلبوا بتيارها الهادر أوضاع الدول، وأزاحوا بإعصارها القاصف ما كان راسخاً رسوخ القلل، وكم غيّروا بقدرتها الأمور والأحوال، وبدلوا ما كان شأنه في الثبات شأن الجبال.

ولقد كانت ثمة وسائل للدفاع، دفاع نهج الإمام عن نفسه في هذا الصراع العوان مع الشبهات والبهتان، وكان أولها وأهمها وضوح ذلك الخط وصدقه، وما طلع به لهذين من آياتهما السامية، ودلائلهما العالية. وكانت الحقائق الرفيعة لهذا الخط في مسيرته أقوى الروادع لتلك الشبهات القوارع، وكان وعي الأمة بنهجها، ومعرفتها بإمامها، وبيّنتها من مسيرها، وبصيرتها بثورتها، ومكائد أعدائها. كل ذلك جعلها في الحصن الحريز من تأثير تلك السهام التي أريد لها أن تصيب المقتل في حب الأمة لثورتها وإمامها، أو تنال من الولاء وعزمة الفداء، تغنم بذلك بعض ما تشتهي لهذا النهج من البلاء نكالاً لما كان منه وما هو كائن، من سبِّ الآلهة الجديدة (القدرات العظمى) ولعن شرائع الحماقات الصنمية لجاهلية القرن، وقطع أيدي الظالمين عن ثروات المستضعفين، وتحكيم هؤلاء في مقدراتهم ومصالحهم، وتقرير مصيرهم بأنفسهم. وكان حب الأمة وولاؤها لإمامها ونهجه، وثورتها ودولتها، حجاباً مستوراً وبادياً، يصد عنها عاديات المكائد والشبهات، ويحوز قلبها كله إليه فلا يأذن لشيء من أسباب البغض والكراهية أن تصيب لها حظاً فيه، فبقي الحب سليماً وارياً، وظل الولاء نقياً صافياً، وبقي نهج الإمام في نفس الأمة معشوقها الذي صبَّت به، وهامت هيامها المشهود، وحبيبها الذي أحبته دون من سواه في الوجود.

وكان الإعلام الإسلامي الصادق لنهج الإمام في بيان ظلامته، والدفاع حرمته، وكبح جماح الأضاليل، وردع سَورة الأكاذيب، وفضح زيف المدَّعيات، وبيان الحقائق الجلية في دوافع العداء، وإقامة البراهين القاطعة تسحق البهتان ـ كان ذلك الإعلام بكل وسائله وسبله؛ لسان الأمة المحبة في كل مكان، والقلم المرهف كحد السيف، والكلم الرفيع يبدد الزبد الوضيع. كان موفقاً في دفاعه وذبه عن الحرمات، منتصراً ظافراً في حربه على الشبهات. وجاءت قبل هذا وبعده المواقف العلية بحقائقها القوية الجلية، تدمغ الباطل فإذا هو زاهق، وتتنزل من سماء الحقانية مثل الصواعق، تحرق الأكاذيب الباطلة، وتمحق الأراجيف الماحلة.

حق الإمام والثورة على المسلمين

لثورة الإسلام ونهج الإمام واجب على الأمة هو في الواجبات أعلاها وأسناها، ولهما حق هو في حقوقهما عليها أسماها وأبهاها، واجب وحق يفرضهما عليها الإيمان والقرآن، والعقل والوجدان، ودور الأمة الشاهدة في هذه الحياة، وشانها في محاربة الجناة، ورد الطغاة. فإن هي ضيعت الفرض الأقدس، وقابلته بالنكران، ونبذت حفظ الحق الأعظم وراءها ظهرياً، وباء منها بالنسيان، خانت بذلك دينها وقضيَّتها، وألقت حملها الكبير لرسالتها، ومشت في الحياة مع الماشين سواها غير هادفة ولا عارفة ولا شاهدة، تطويها صروف هذه الدنيا الفاسدة، تجتالها عن عظائم الأمور وجلائلها، وتعرّج بها بمن عرّجت بهم من أراذلها وأسافلها، على التوافه الدانية الوضيعة، والمناقص المزرية الشنيعة.

لنهج الإمام وثورته على شعبه وأمته وعلى كل أمة الإيمان في كل مكان حق المعرفة بهما، والدراية بشأنهما، فبهذين تعرف الحقيقة الجلية للثورة الغراء ونهجها الوضاء، وبعرفان تلك الحقيقة تعرف الوظيفة أزاءها، والفريضة تجاهها، وبهما يحمى حماهما، من كل ما فيه أذاهما، من الأقاويل الباطلة، والحماقات الجاهلة، فيبقيان في الأمة كالطود الأرفع الأشم، من نابذة وناطحة تحطَّم، أو عاد بالخيبة والضلال عن الرغيب، يندب حظه الخاسر التريب. وإذا كانت المعرفة بالحبيب مستثار حبه، واللهوف إليه، وحياطته بالبذل والتضحية، فلتكن معرفة الأمة بأسمى شأن من شؤونها في عصرها، وأقدس فرض من فروضها في دهرها، منبع الحب والعرفان لنهج الحق والإيمان، نهج الإمام الثائر، وقيامه الفذ الظافر، وسبيله المهيع المستقيم إلى ربه العظيم. ولا ينبغي بل لا يصحُّ معرفة الثورة ونهج الإمام إلا من مصادرهما وحقائقهما، لا من مصادر الأعداء وشبهات الخصماء، وذلك حق المعرفة الصحيحة فرضها بمنطق العقل السليم.

إن الإيمان يفرض على الأمة ـ بعد معرفته بالدليل والبرهان، وما به يسكن الضمير والوجدان ـ معرفة ثورته الهادرة، تدل على معالمه الزاهرة، فهي صولته الجسور، وقضائه المبرم المحذور، وإن القرآن العظيم يعظم ذلك الحق في نفوس أبنائه وأحبائه بعظيم حق القيام على المنكر، والأمر بالمعروف، والكفر بالطاغوت، وردع الضلال، ومتابعة الأولياء، وطاعة أولي الأمر، ومنابذة المفسدين، وتحكيم شريعة الإسلام، وبسط ظلها على الأنام.

ونهج الإمام ـ في مناهج الضلال القائمة ـ هو نهج الله وطريق هداه، يدعو إلى ربه، ونصرة دينه، وتطبيق نظامه، وإحياء مجد الإسلام، وإعادة شانه، يدل الناس على جادة الهدى والرشاد، ويأخذ بأيديهم على سبيل السداد، فما أجدره بنصرة المؤمنين، ومعاضدة الصالحين، ومظاهرة العارفين بربهم ورسالتهم ودورهم.

وحكم العقل السليم، قبل إرشاد الدين العظيم، يلزم بالخير والصلاح، واللهوف إلى المطلع الوضاح﴿﴾ لبهجة الإصباح، يهتف بمن احبُّوا الخير أن يهطعوا إليه، وينادي بمن ظفروا به أن يحرصوا عليه، فليس بعد الخير بالحياة غلا شرُّها المستطير، يصلى به أهله عذاب السعير في الخطب العسير.

وأي نهج ـ كنهج الإمام ـ دعا الناس إلى الخير بلسانه، وسعى إلى ما دعاهم إليه بأركانه، وأعطى لما سعى إليه من سحاب العطاء الهتّان، ما يفوق الوصف والبيان، وبإلزام العقل تكون السبيل إلى الواجب المبين ـ وهو حفظ الدين ونهج خير المرسلين ـ واجبة وجوب الغاية التي تدل عليها، مقدسة قداسة النهاية التي تنتهي إليها، وليس في حياتنا الهامدة؛ إلا تلك السبيل الرائدة الراشدة، سبيل الإمام العظيم، ونهجه القويم.

ودور الأمة في حياتها بفرض رسالتها، دور الشهادة على الأمم والريادة لها بالهدى والصلاح يفرض عليها أن تسلك هذا المنهج الخميني الذي يسير سيراً سجحاً حافداً إلى ذلك الدور، داعياً إليه أصدق الدعاء، منادياً بإعادته إلى الوجود أرفع النداء، فمن شذَّ عنه من المسلمين فقد شذ عن هداه ونهاه، ومن نأى عنه فقد نأى عن دوره الذي رسمه له الله في الحياة. إن على الأمة لنهج الإمام والثورة واجب التطلع فيهما، تطلّعِ المؤمن في المرآة الصافية يرى فيها محاسن هيئته ومعايبها، ليرى في مرآة النهج مناقص مسيرته ومكارمها، ومثالب واقعه ومحامده، وليكون له بتلك المتابعة والملاحقة لشؤون النهج والثورة؛ ذلك الانشداد والارتباط الفرض بركبهما، وهو دون غاية المطلوب من الانمياث فيهما، والذوبان في تيّارهما، ليكون قطرة من قطرات نميرها العذب، همه أن يطفئ غلَّة الأرض الصادية إلى أهنأ الشراب، هداية غراء، ومسيرة عصماء، على نهج السماء.

وأن يستمع المسلمون لرائد المنهج، من فيضه ينهلون ويرتوون، وبسداده يرشدون ويعتصمون، وبأحكامه ومعارفه يعملون ويهتدون، وبأنواره يستضيئون ويستصبحون؛ لهو حق كبير على الأمة للنهج،

تفرضه لوازم الطاعة والانقياد، ودواعي الرشد والسداد، ومعرفة معالم المسير الصاعد إلى ذرى العلياء، في جمحان الأتون المتلظي بالظلم والعداء.

ومن فروض هذا النهج على الأمة كلها أن تتفهّم أهدافه وغاياته، وأن تعمق النظر النزيه الفاحص في كل خطوة من خطواته، وأن تتدبر حقيقة الإصرار العجاب، الذي أذهل به النفوس والألباب، وأن تطيل الوقوف عند التضحيات الجسام، ومواقف الفداء والبذل العظام، لتعرف من ذلك كله الحقيقة كلّها، حيث ترى سمو الهداف والغايات، وإنها لأهداف رب العالمين ونبيه الأمين، وتبصر نزاهة تلك الخطوات الغر ونبلها، تقتفي خطى سيد الأنبياء، وآله الأزكياء، وأصحابه الأولياء، وتشاهد عظمة ذلك الإصرار لله على طريق الهدى، وشموخ تلك التضحيات لدينه ذي الندى.

وهذا من المعارف بهذا النهج أولاها بالاهتمام، لأنه أوفرها حظاً من قدرة الفيض والإلهام، يضيء بسنائه الطريق لروية النهج في سدف الوساوس، ويجلو أمام عين البصيرة ما كثّفته الشبهات من الحنادس، فإذا هو نهج مضيء زاهر، بهي باهر، عليه من جلال الإسلام العظيم أسمى جلال، وفيه من خصاله الزهر أسمى خصال. تتجلى فيه المبدئية الشماء، والأصالة العصماء، وعمق الارتباط بنهج السماء، تجلياً تخشع له قلوب المدركين، وتنساب في قدسه ذوباً نفوس العارفين.

من ذا الذي يبصر في أهداف النهج وغاياته ما قد سبق بيانه فلا يدرك الحق اللالاء؟ ومن ذا الذي يرىفي المتبنى من تلك الغايات، والمبذول في السعي إليه أغلى التضحيات ـ من أوبة مجد الإسلام وسيادته، ودور الأمة الشاهدة، والاستقلال بالبلاد والعباد، ومناوأة الطغاة والمستكبرين، وهيمنة الأمة ورسالتها على واقعها، وإرجاع الأرض المغتصبة إلى أهلها، وتحرير فلسطين، وشدِّ عرى الأخوة وأواصر الحب في الله والإسلام بين صفوف أمته التي مزّقها المستكبرون شر ممزّق، والدفاع عن المسلمين في كل الأرجاء، وإغاثة المحرومين في شتى الأنحاء ـ من ذا الذي يرى هذا في قاموس النهج وجهوده ومساعيه وتضحياته، ثم لا يقول إنه النهج الذي يجدد الإسلام الأصيل، ويبعث روحه المشرقة في عصر الأفول، حيث غربت الفضائل، فإذا الدنيا تمور في حماة الرذائل، وافلت فيها أنوار المحامد، فهي تعمه في دياجي المفاسد، تخبط خط نافرة شَموسٍ حَرونٍ تذوق للتيه والعصاب مثل طعم المنون.

وكم هو عظيم في حقوق الدين على الأمة لثورة الإسلام (ورائدها الإمام)، حق التبشير بنهجها طريقاً للخلاص بعد أن بشَّر المبشرون بما عداه فجاءوا بالبلاء الشديد، ووعدوا بالنجاة فيما بشروا فاوقعوا في

الدمار المبيد. ومن لوازم التبشير بذلك ـ الدفاع عنها لتكون امة الإمام هي وسيلة الإعلام الممتدة، الواسعة، المنتشرة، الضاربة في كل أوساط الحياة وأعماقها، وعلى كل مستوياتها. تدعوا إليه دعوة المحب الرفيق، وتدافع عن الثورة دفاع الحريص الشفيق، بالحكمة، والحسنى، والكلمة الطيبة، والخلق الرفيع، والسلوك المتزكي، والعمل المرضي، وبالقوة إن كانت هي الميسم، وبالقدرة إن لم يُجدِ غيرها من مرهم.

ولذلك النهج ـ نهج الإمام وثورته ـ على أمته من حقوق ألا تسمع فيه عيب العائبين، ولا تصغي لنعيق الناعقين، ولا تقرا لهم ما يسطرون، ولا تنظر فيما ينشرون، فترى مجالسهم مجالس اللهو الحرام، وكتبهم الزائفة كتب الضلال، إلا عارفوها المبصرون والمدركون الواعون، يحضرون للذبِّ والدفاع، ويقرأون للرد والتفنيد، ومعرفة أساليب الظالمين في حرب الإمام والثورة، وبذلك تأمن الأمة من بوائق الأكاذيب، ووضع الكذابين، ويبقى نهجها في نفسها على صفائها المكين.

ومما هو حق الثورة وقائدها على الأمة ينفعها خير النفع في معرفتهما ويأخذها من أيسر الطريق إلى رؤيتهما على حقيقتهما، حقيقة الأصالة، والحقانية، وروح العلقة الإلهية، فما هما بالدخيلَين، ولا المنحولَين، ولا الدعيَين، وليس هما من الباطل في شيء، ولا للباطل فيهما نصيب. وليس هما بفرية الأرض على السماء، أو تقوُّلها عليها، قد أُلحِقا بها الحاق الدعي، بل هما شنجة من بدنها، ونفحة من روحها، ذلك الأمر النافع خير النفع هو معرفة الضد، ولله هذه المعرفة ما أجداها، وأعلاها وأكثر خيرها! لو امتلأ بها ذهن الأمة امتلأ بالعلم الكثير، يدلُّها دلالة المرشد البصير، ولو فاضت ألطافها في ضميرها وشعورها، فانفعلت بها، وتفاعلت معها، ألفت بذلك هداها، وسعودها، وعزتها، وصعودها. وحين تبصر الأمة في معرفة الضد ألدَّ أعدائها، وخصماء رسالتها، وحساد مجدها ودورها، والطالبين لها الجاهدين فيما يطلبون حال المذلة، والهوان، والتبعية، والخلوِّ جسداً هامداً من روح الرسالة، ودم العقيدة، وعزمة الأوبة إلى ذلك المجد، مجد العنفوان الثائر على سبيل الله، ودور الشهادة والريادة ـ حين تلفي في معرفتها تلك القوى الكبرى المتجبرة بغيِّها وطغيانها، وترى الصهيونية النابتة حربتها في أحشائها بما تكنُّه لها وتظهره من فورة العداء القديم، وما تضمره في أحنائها من أحلامها في تسخير وجود هذه الأمة لصالحها، مقدَّراتها، ثرواتها، وطاقتها.

وحين ترى أذناب ذينك العدوّين من الأزلام والفاسدين والغاوين الذين باعوا أنفسهم وحرمة بلادهم وكرامة أمتهم، بالثمن البخس، وتوافه الحطام من المال والكرسي والسمعة، في ذلة وصغار وبوار. حين ترى كلَّ أولئك عدوَّ ثورتها وإمامها، يجيش في صدورهم مرجل العداء، يسعرهم فيجمحون في درب المعاداة الظالمة، يقصدونها بكل ألوانها وفنونها، ويؤزهم الحقد الأعمى فينتفضون وحشاً كاسراً يهمّ بهما أبشع الهم ـ سترى أين موقع الثورة والإمام في مقاوم الصدق والحق، ومدارج العز والمجد، ومنازل الحسن والكمال، ودرجات الارتباط بالله ورسوله، وحقيقة الانبعاث المهيب من روح الرسالة وقلبها، والسير الصادق إلى استخراج ذلك الأمل الكبير من سجن المستحيل... وعودة الإسلام إلى الواقع بعد أن حظر عليه الظالمون بالحظر المؤبد.

بقي على الأمة من فرضها لإمامها وثورتها: النظر المتدبر فيما حققناه في هذا الأمد القصير كيوم أو بعض يوم من فراغ البال من البلبال، لما ملئ من المحن والصعاب والآلام ما لم يرَ مقصود سواهما مثله، بلى رأت دونه ثورات لم يسندها الغيب فبدّدها، ودول قائمة لم تعضدها السماء فأبادها.

فما الذي تحقق في هذه السنين المعدودة المشحونة بالأذى والكيد، المليئة بما يفوق ذلك من ألطاف الله وتأييده وبركاته؟ أليس هو الكثير مما أسلفنا ذكره في أهداف النهج ورائده؟ وظل الخميني بإيمانه وإصراره مغذّاً صوب أهدافه المنشودة بعزم بركاني، وصلابة طوديّة، وانطلاق مارد لا يعي ولا يخور. ترى لو لم يكن ما ألمَّ بها ـ من البلايا الفاقرة، وما انه دبه جموح الغيظ، وعصفت له رياح المكر، أحاطت بها من جهاتها أمواج البلاء، كأنها معها في هياج الخضم المزبد، تتعاورها سوراته، وتتقاذفها لهواته ـ أين قد وصلت اليوم في انطلاقها إلى غاياتها ورغباتها، وهي غايات الإسلام ورغباته؟

حين ترى الأمة تجد فيه نبل الأهداف وسموها، وعظم ما تحقق، ومحير أمره، وفرط العزم والتصميم على بلوغ الهدف المرسوم، وإن الثورة التي تحميها الأمة المحبة الصادقة، وترعاها المشيئة العظيمة، لهي أقوى في المسير إلى الغاية من أي سائر إلى غايته سواها، وهي أقدر على الوصول إلى ما غذت خطاها إليه أي مقتدر عداها، وإنها بعد ذلك تأبى الإنحاء في الخطب العياء، لأنها تسير إلى السماء. حيث غيرها المرقلون في انحدارهم في سبل الإخلاد إلى الأرض يضعفون وينحون ويساومون.

في رحاب العروج الملائكي

يا دار سعدى لقد طال ليل المعمود المسهد، بجوى النوى له جمرة في الحشا تتوقد، لم تكتحل عينه بالغمض ولم يزره طائر الكرى، مذ أصاب القلب سهم رائش لوتر أرزاء الورى، مذ جاء خبر الرحيل وقيل أيها الصب المضام، لقد رحلت سعدى بليل ساهر لم يذق طعم المنام، شدت رحلها ليس تلوي على غير الرحيل، كأنه منشودها الذي ليست إلى غيره تميل. فبكى حتى ظن القفر البلقع اليباب، أنه هاطل من السحاب، يرنو وماء الشجو يغشّي ناظريه محدِّقاً في الدرب البعيد، وقد عصفت في الروح رياح الغم الشديد، فلا يرى غير الغراب بلباسه الأسفع الشجي، ناعباً بالشؤم والغماء والخطب العصي، فتضطرم أحشاؤه بنار الهول للفراق المرير، يفيض عليها من مآقيه فورة الجمر والسعير، فإذا به وقد كان همه إخمادها، قد زاد غلوائها واتِّقادها، ويقف ذاهلاً بفرط مصابه الهائل، يناجي قلبه اللَّهفان حبيبه الراحل.

إلى أين يا سعدى الفؤاد؟ فيم أزمعت النوى والبعاد؟ فيم شددت رحل الفراق الذميم؟ وانطلقت نائية في الليل البهيم؟ لم تؤذني المتيم المتبول أو تودِّعيه، لكأنك أبيت إلا أن تفجعيه؟ ما ضرك قبل أن تخطي خطاك راحلة عن الحي والمحبين، أن تودعيه بروح التحية للفراق الحزين؟ هلّا رحمت هذا المعنى قد براه الهيام، وتقحَّم به العشق في المهالك الجسام، ما زال في المحراب حلس معبد الهوى، يماشي النجوم المثقلات في فحمة الدجى، قد هوى السهاد فعاف طيب الرقاد، وحالف الأرق المضني يسعِّره الشوق والوداد. وينوء بالخيبة محسوراً يقلِّب الطرف في دارها، كأنه يراها عتيدة في آثارها، فليتها ترى قلبه الحران قد أظمأت هواجره الحوازب الشداد، وفت فيه فرط السى من قسوة الصد وحر البعاد، تسح دموعه عاصفة بالحزن كصيّب من السماء، ويرفض شجناً قطعاً دامية حمرا.

ولقد عي بالصبر حين رآها فمكث ملياً يكفكف الدمع غشى حجابه نور البصر الولهان، ووجف القلب قد عصفت به روح زعزع للشوق تشوبها النيران، وانطلقت مقتدرة روح صبٍ يدعوها داعي الهوى فليس لها ألا تجيب، ويزجها زاجر الوفاء عن الأوبة فتمضي ولا تؤوب، تعتنق طيف الحبيب قد شفَّها مبرّح الوجد والهيام، عناقاً عجباً لا ينتظم وصفه بديع الكلام.

ويعلو نداء الفؤاد مفجوعاً تسمعه واعية الجلاميد، فتميد مهدودة يصدعها خطب شديد، يقول لها: أيان يا لوعة الجرح النازف يوم الوصال؟ وحتّام يا خفقة القلب الواجف هذا البعاد كحز النضال؟ أنظري هذه الأشواق تضرى كلظىً تسعَّرت بين الضلوع، من مستثار اللهيب لم يطفئها تهتان الدموع، وهذا الهوى العذري لم يفتأ يذيب الفؤاد اللهيف، فيجري في العروق مذاباً عاصفاً له فيها دوي وقصيف.

ويلح النداء دؤوباً كأنه قد قدَّ من كبد الشجون، فتلح عليه بالهول عادية الصمت والسكون، وأزلف اليأس، ومحال لمثله أن يلج القلوب الوالهات، حتى يذيبها حر الهوى في أتون الوفاء والثبات، فدافعه عن حمى الروح يذوده ببأس الصدق في المحبة واليقين، وقد اشتجرت رماحه عليه بطعن دَرَاك واصب مبين، ينازعه على مقامها في القلب فيصرخ دون ذلك جهد الأهوال، ويساوره على ودها في الأعماق، فتهتف أن ذلك عين المحال، وظل لها الحب شريفاً طاهراً طهر التقى، ولم تبرح النفس نقية مشرقة بالهوى العذري رأد الضحى، وأنى له نسيان ذيّاك الهيام وشأنه العجاب، وتلك العهود المقدسات كحرمة الكتاب؟ وهل تغيب عن باله ربوع العشق التي ما أمحلت لتغدو يباباً نبتها الأحزان، أو ذاك التتيّم لا هباً لم تزل متقدة له فورة النيران، أو تلك معاهد الهوى، وتلعابه لدى التوباد، أو سحر وقدة الجوى، أو طيب ذلك السهاد. وصاح وقته ونضوْه وحيرته هلَّم الإياب إلى الحيّ. فقال: نادوا القلب إن كان يسمع ووقر الحب في أذنيه، ونادوا الروح إن كانت تجتمع وقد ذهبت شعاعاً من فرط حبّ راحت تحترق فيه، أو ترحلون ويبقى القلب في قَرَن الحبِّ مرتهناً إلى مزار الحبيب، قد أوهقته عنيدةً أشراك العشق العجيب، يعبُّ من تياره صاب المرارات يحسبها السلافة العصماء، ويتشمم نتن العذاب يخاله أريج الروضة الغناء، وتلفحه نار السموم، فكأنه في جنة النعيم، هو في بحبوحتها مقيم.

* * *

ربَّاه ماذا أرى! أفي عالم الحقيقة هذا المشهد الجسيم؟ أم هو الخيال البائس الذميم؟ أهو الواقع العلقمي المؤلم كأنه فاض من معين الصاب والأوجاع؟ أم هي أضغاث أحلام صنعة نوم المضطرب المرتاع؟

هل أصدق عيني فيما ترى وقلبي يقول لها أخطأت فيما ترين؟ أم أكذب النفس التي راحت تستغشي الوهم حتى لا ترى ما يطلع عليها الواقع، وتملأ أذنيها بالوقر عسى أن ى تسمع صيحة النبأ وواعية الخطب؟ وإن كذبتها فمن بعدها أولى منها بالتصديق؟ وإن كانت تهرب من الحقيقة الحنظلية؛ فهي إنما تريد أن تريحني من وقع الألم المرير، ولا تفجعني بحقيقة الرُّزء العسير.

يا إلهي! لمن هذا الجثمان حفَّت به القلوب، وحامت حوله النفوس وتسمّرت به العيون، وانفصلت الأرواح عن أبدانها لتعتنقه اعتناقاً ليس له مثيل فيما قرأناه في التاريخ أو سمعنا منه؟

يا رب! ما هذا العشق الوتر الذي لم يخامر عقول الشعراء ولا خواطرهم لتتفتَّق قرائحهم في التعبير عنه بالبيان البديع والوصف الرفيع... عشق الأمة لرجل من رجالها ذابت في حبه ذوباً، وانماثت في هواء انمياثاً، وهامت به صبابة وولهاً، وارته في حياته من معاني العشق ما لم يخطر ببال عاشق، ولم يكن في واقع متيَّم، ولم تحكه الحقائق او الأساطير في نظير له من صور الهوى الغلاب صنعة الخيال النافذ أو الحقيقة؟ وها هي تريد ـ وهو في أرقى درجة للعشق درجة التجرد للهوى، والتمحض للحب، والفراغ من هواجس الطين قد تحد بحبسها وحدودها الضيقة من قدرة الروح الهائمة على التحليق في سماوات الحب ـ أن تذيب هذا الحبس الترابي لتهيم مثله في سبحات الهيام، حيث الصبابة الصافية بلا شوب، وحيث الغرام النقي بلا كدر، وحيث الوله الزكي الملائكي في عالم الطهر والصفاء والنقاء.

رباه ماذا أرى؟ في أي فصل من فصول الدهر رأت عينه هذا اللون من القداسة والمجد راحت فيهما الأمة المقدسة الممجدة تطلع على الدنيا تحيِّرها وتسلبها عقلها بصور التقديس والتمجيد لقائدها وولي أمرها؟ في أي حقبة من حقب الزمان تجسد الوفاء والولاء من أمة لرائدها مثل هذا التجسد الذي لم يبلغ كهنه سعي الفطنة، ولم يسبق لعين إنسيٍّ أن رأته في عالم الناس ولا لأذنه أن سمعت به؟

يا إلهي! ما الذي يوشك أن يذيب قلوب الأمة في صدورها لفراق زعيمها، غير الحب المقدس، والهوى العلوي، والصبابة الإلهية، والود السمائي المفروض لأهل السماء تغرسه لهم النفوس، وتسقيه من العروق، وتمد فروعه في انحاء العاشقين ليعودوا به شجرة العشق، أغصانها الهوى، وورقها الهيام وطلعها الوفاء بلا مثيل، ووردها الصبابة الوتر؟

يا رب! فيمَ هذا السهر العاشق الولهان في ظلال الجثمان؟!

فيمَ هذا الأرق كأنه أرق الصبُّ في نجوى الحبيب المسجى؟

فيمَ هذه اللوعة التي ما تضمنها صدر الزمان من كل فجائعه؟

فيمَ هذه الزفرة الضاربة التي ما عرفت حرارتها نيران الدهور؟

فيمَ هذا الألم الثائر الذي وجفت له البراكين؟

فيمَ هذا التقديس لهذا الجسد الراقد كأنه مجمع المقدسات؟

لم هذه العهود ـ تخلقها القلوب الخاشعة، وتسويها الضمائر الحية، وتطهرها من شوب الوهن والكذب؛ الدموع الساجمة الطهور ـ على الوفاء الصادق صدق هذه الآهات والحسرات، والسير على الخط المقدس سَير الأولياء الأوفياء على خط الأنبياء؟

هل هو الندم على التقصير في حق ذلك الحبيب وهو لك يرَ منكِ إلا غاية الولاء والوفاء، قد ذكره أروع الذكر، وصاغه بأرفع التعبير؟

أم هو الخوف من خلق الأولين وسننهم مع عظمائهم الأصفياء حين نقضوا العهود وخاسوا؟ فيا ليتهم لم يكونوا إلا فيك يا أمة العشق والوداد والصدق لكأنك تريدين بما تجسدين من هذه المثل السامية أن ترحضي العار من صفحات التاريخ، سوّدت به وجهه أجيال الغدر والخيانة.

فيمَ أنتِ مبهوتة جامدة كأنكِ قد صُعقت بالنبأ الفادح صعقة الموت؟!أهدَّك هدّاً أن تري قاهر الطغاة قد لف في الأكفان؟

هل أخذ بمجامع قلبك أن تري مزلزل عروش الظالمين قد أمسى ساكناً بلا حراك؟

هل أجج الشجا في أحشائك أن تبصري خالع القلوب بعزمات قلبه الجسور؛ قد غدا قلبه جامداً بلا خفقان؟

هل فجعك بالرز الأعظم أن تري من أخذ على الناس آفاق السماء وأقطار الأرض حتى عاد شغلهم الشاغل، قد غدا وليس له من الأرض إلا قيد قدّه؟

هل أصما فؤادك الشريف أن تري تلك الآمال العريضة المقدسة النبيلة لله وفي الله قد جمدت في القلب العظيم لم يرَ وجهها الباسم يطلع عليه من أفق التحقق المنير؟

هل صهر نفسك في مصهر الأسى ما ترينه من الجسد المسجى لمن أذل القوى العظمى وسجَّاها، وقهرها وأخزاها، كيف غدا مقهور للون من البلاء اسمه الموت، ولم تعلمي أنها أسمى المنى نالها إمام التقى كان يداب في الدعاء من أجلها، ويلح على دنياه بالمجاهدة لنيلها؛ الوصل العاطر الأبهى بربه العظيم، واللقاء الأرفع الأسمى بمعشوقه الكريم، لم يزل يحن إليه حنين الوالهين، ويذكره ذكر المتيمين.

أشق عليكِ يا امة الخير أن تعلمي أن إمامك الطهر قد مزقت قلبه سهام العناء لم يزل مرماها سحابة دهره، واشتجرت عليه رماح الإيذاء لم يفتأ قرينها طيلة عمره، حتى غدا قلبه النازف، وجرحه الراعف، يؤذيانه، ويؤرقانه، ويحمّلانه من الأذى ما لا قِبَل لملتاع بشري به. ولقد علمت أن دربه الذي اختاره دون سواه

بحب ويقين، واصطفاه على غيره بِولَهٍ وعزم متين؛ هو درب المحن والآلام، مسلك العظام، وطريق الغموم والتهمام سبيل الأصفياء، فيهما مغداهم بلا مراح، لا يعرفون البهجة والانشراح، قرناء الحسرات، ورفقاء الزفرات؟

أتراك يا أمة الخير قد لدغت على حين غرَّة لدغتها الصاعقة تلك المصيبة الماحقة؛ ذبول الأمل الزاهر بعودة الإمام معافىً إلى جمران بعد أن خرج منها يتوكّف إجابة الدعاء بسرعة الأوبة إلى ربه؛ وأنت علي يقين في نفسك تصنعه المحبة الطاغية بأن الحبيب الأسمى لا يموت، وأن قاهر العدى لا يفنى، وأن مذل المردة والطغاة، والشوكة في عيون الحاقدين لن يشمت بك الأعداء، ولن يفجع أوليائه الأوفياء، وأن الخارج من جمران على زجل الدعوات والصلوات لتنقى كما تظنين سماءه منسحابة الصيف العابرة سيؤوب إليها بصحو ربيعي زاهر عاطر، تعيشين في أفيائه الباردة الناعمة الحالمة، وتستروحين نسيمه الشذي العابق المتأرج. وكنت تدعين وتلحين في الدعوات، وتناجين وتذوبين في المناجاة، تسألين الله أن لا يخيب الأمل الأسمى، ولا تكبوا القدم للحلم الأعلى.

وأخذتك بغتة صيحة النبأ الذي كنتِ أبعد شيء عن توقع سماعه، فغذا بها آمالك الزهر وأحلامك الغر تذوب ذوبة طورية راح فيها التجلي الصاعق يدكُّ الجبل الراسخ الراسي ليذره هباء، وانتفض قلبك الذي كان نبضه نبض ذلك القلب السليم على فراش العلاج كأنه يريد أن يتوقف، وأوشك أن يتجمد في عروقك مبعث الحياة فيك مذ تجمد الدم الطهر في عروق إمامك العظيم، واندفعت عنفاً من الألم والأسى والندم تلدمين الصدور كأنك تقولين للقلوب بين جوانحها: عليك بعد قلبه العفا، وتضربين الوجوه قد فارقها.

لله أنت يا تلك الروح المطهرة التي لم تعرف غير الله، ولم تلهج بذكر سواه، فهو خشوعها وصلاتها، وهو قيامها وثورتها، وهو فدائها وحماستها، وهو آهاتها وحسراتها، وهو رفضها وعنادها، وهو آلامها وتهمامها، بل هو لحظات سنينها الطوال، لم تغادر منه لحظة واحدة لم تحزها إليها تذيبها في نار العشق العجيب.

لله أنت يا تلك الأنفاس العلوية التي كانت تنبعث من روض الإيمان شميماً عابقاً يحلق بالنفوس في أجواء الطهر والفضيلة والتسامي.

لله أنت يا تلك العظمة التي صنعها الله على عينه، وسواها بيده من الهدى والنور، لتتجسَّد في الأرض مناراً، وقدوة تستثير في القلوب عزمة التعالي، وتلهمها عشق ذرى المجد.

لله أنت يا تلك الكلمات التي كانت كأنها الوحي بل هي الوحي لأنها شنجة من آيات الله الموحاة تتلى على مسامع العالمين، وأحكامه المفروضة تنشر في الأرض، ومواعظه الشافية تهدى رحمة للبشر، تضرب للناس لعلهم يعقلون.

لله أنت يا تلك الفتوة المؤمنة التي لم تزل مع النشاط، والألق، والحماس، والانطلاق في تركاض دائب في شؤون الإسلام والمحرومين.

لله أنت يا ذلك الفكر العملاق الذي صاغ الواقع على هدى الدين أرفع صياغة، واستنزل الرأي السديد والهدي الرشيد من سماوات العقل والنظر إلى الحياة القائمة ليفعل غاية المطلوب، وحقيقة المرغوب، ديناً يطبق، ورسالة تجسَّد، وقرآناً يحكم، ولم يقل حسبي الموعظة والنصيحة فهما كل وظيفتي.

لله أنت يا ذلك اللسان الذي ما نطق إلا في فم القلب لتخرج منه كلماته حكمة وسداداً، وعشقاً وأشواقاً، وهدى وضياء، وبصيرة ورشاداً، ولم يكن له في فمه إلا لسانٌ عَقَلَه بعقاله، فلا ينطق إلا مستهدياً بالبصيرة النافذة، مسترشداً بالدلالة الهادية، وفي غير ذلك هو صمت حكيم، وسكوت كريم، ينطقان بأروع البيان عن أرفع المعاني وأسماها.

لله أنت يا تلك المعرفة الوتر بالله والإيمان والزمان، قد سارت بهداها إلى ربها ـ في متاهات الحياة ـ قوافل المؤمنين على الصراط السوي، ومشت على نورها إلى منهل الإسلام تروي ظمأها الحازب إلى فيضه. قد عرفت ببلاغة فطنتها وبصيرتها شؤون الزمن القائم، فتعاملت معه بتسديدها تعامل الحكمة المبصرة بأرفع درجاتها وأطوارها.

لله أنت يا من يذكرني بنوح في العالمين؛ طالت به الأيام مع الدعوة ليلاً ونهاراً، جهرة وإسرارا، فاستخلص من الناس صفوة المؤمنين، قد حملهم في لجج الطوفان الهادر للغضب الجسيم في فلك النجاة، ألواحها قلبه الرشيد، وعقله السديد، ودسرها جهاده الصبور، وآلامه الزكية، وتضحياته الجسام فهم في سفينة الخلاص، يغرق سواهم في المتاهة وهم سالمون، ويعذَّب غيرهم في الضلالة وهم وادعون.

لله أنت يا من يذكرني بذلك الشيخ الأواه، الحليم، الحنيف، الرافض، الثائر، فقد كنت حنيفاً مسلماً في عرامة الشرك والجاهليات الوافدة، وما زلت رافضاً تجسِّد الرفض عنفواناً إبراهيمياً يجعل المعبودات والمدعيات جذاذاً، وقد كنت ثائراً تفجر الثورة في السدود، والأطواق، والأغلال، والنماردة، والعروش، والبروج، وكثافات الظلمات، ودياجير الضلالات.

ويلتهمك عنف الجاهلية وغيظ الجاهلين ليقذفوك في لهوات البلاء، شأنهم الغابر مع الإنسان الامة حين بنوا له بنياناً وألقوه في الجحيم، وقال قلبك للنار يفزع عن لسان الوحي في القرآن وقد تلفّع البُرد الذي لا يحترق ولا تنفذ منه النار، وذلك التوكل الفذ والثبات المبين ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. وقال ربك العظيم لسعير الدنيا التي تاججت من حولك ضراما ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾[2] ومشيت على اثباج اللظى كأنك تمشي في الرياض، ووطأت هامات اللهيب كأنك ترقى في الذرى كلّ رغيب، وبقيت النار خلف ركبك العظيم ـ تهتن سحب عزمه الكبير بأساً وثباتاً ـ دخاناً دخاناً يخنق من سعَّرها.

لله أنت يا من يذكرني بموسى فالق البحار بعصاه بإذن ربه الجبار، يتحدى الفراعنة المتجبرين، ويفك الكبول والأصفاد عن الضعفاء المسترَقّين، فما زلت ـ يا قبسة النبوة ـ تخوض بحار الأهوال، تفجرها وتعبرها بروح التقوى والتوكل والاحتساب، من جانب الطور الأيمن لعرفانك، تنفخها في عصاك القاهرة (أمتك الثائرة) لتصنع لك المعجزات الخارقة لمألوف الأسباب والمسببات وإن كانت من صميمها، تخر لها الحلوم المقهورة المفحمة ساجدة، وتعنو لها القدرات والسطوات والجمحات ذليلة خاسئة.

لله أنت يا من يذكرني بعيسى روح الله، باعث الفضيلة وروح السمو والصعود في ارتكاس المادية وهبوطها، محيي الموتى، وشافي المرضى بإذن الله، فاسمك أيها الرضيّ هو وصف ذلك النبي العظيم، ومسيرك الإلهي الرافع معراج التسامي راح منه طلاب الكمال يعرجون إلى رحابه، وروحك الأبية العليَّة تبعث رهائن الأجداث من صرعى الضلال، وطبٌّ هداك يشفي ذوي الأسقام في مباءة الغي والوبال.

لله أنت يا من يذكرني بسيد النبيين، بصباه المفجوع باليتم والمحن، بشبابه المترفع النزيه، بخصاله المثيرة للإعجاب، بانصرافه عن الباطل ورفضه عن الصنمية والجاهلية، بدعوته للحق والهدى، بما عانى وأتباعه من فواقر المصيبات، بهجرته المحفوفة بالأذى والإكراه عن داره ووطنه إلى أرض الغربة والجهاد

---

[1] سورة الروم، الآية: ٤٧.

[2] سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

وإدامة النضال المقدس، بعودته الظافرة المؤزرة، بإبلاغ الرسالة وإتمامها، بتشابه الأمدين؛ أمد الدعوة قبل الدولة تساورها شراسة الجهل والظلم والعناد، وأمد الوجود الشريف في ظل الدولة يضعها على عين هداه، ويسددها برشده ونهاه.

إنه التاريخ يعيد نفسه، وإنها مقاطع العظمة في مسيرة الإنسانية تتجدد، وإنها السير العليَّة لرموز المجد والشموخ تحيا بأحفادها المتأسين، وإنها المثل الرفيعة يجسمها الخلق الخميني ـ تجسيم آبائه الميامين ـ نوراً متفجراً في ليل التسافل والانحطاط وذهاب القيم، وفضيلة زهراء غرّاء تطلع بوجهها البهي الوضيء في عصر الرذيلة تبصِّر الدنيا آفاق التسامي للإنسان خليفة الرحمن، وتدلهم طريق السمو في خبط المتاهة للهبوط والانحدار، وتعرِّفهم عزمة الدين واقتدار العقيدة في صنع الكمال الذي هو غاية الخلق ومبعث السعادة، وروح الأمان والسكينة والقرار.

لله أنت يا صريع الهموم لله والدين المبين، وقتيل الغموم للضعفاء والعانين والمحرومين، ما زلت تثاور أجنادها بالصبر والاحتساب، وتصاول فرسانها بالعزم العجاب، حتى إذا أثخنت قلبك الجراح، ففاض دمه الفواح، بعطر الياسمين والأقاح، أمسيت قعيد الكلم الراعف، وأخيذ الجرح النازف، تفيض الروح بفرط الرضا والقبول، وتنسلُّ نفسك القدسية من حبسها الطيني إلى رحاب الخالق الجليل، قلبك باسم بسمة الحبور لمشهد الرضوان والنور، ونفسك الرضية الناعمة تهش للكواعب الحور، ومواكب الأبرار قد اقبلت تزينها حلل المسرات، تحييك يا من حققت لها أغلى الأمنيات، تقول مرحى يا صانع المجد العظيم، وباعث الصبح في الليل البهيم.

لله تلك السكينة الغامرة التي ملأت ما بين جوانحك بما طلع عليك من وجه الرضا والرضوان، وملأ أنسه روحك من نعيم الجنان فأنت في ملم الموت قرير العين، وادع المفاصل والأعصاب، قد غدت نفسك الطهور تنساب منها بيسر ورفق، قد أقبلت على ما ترى طلائعه المأنوسة ببشارة الملائكة الكرام، فأنت تودع هذه الدنيا وما فيها وداع السجين لمطمورة البلاء في جوف الأرض يصبّ على رأسه فيها عذاب الحميم في ليل دائم بهيم. وهذا هو البشر الطافح المتضوع من رياض الأنس والراحة الدائمة، قد أشرق عاطراً في وجه روحك المكدودة في وعثاء الحياة ولأوائها، يسقيها من كأسه الروية شربة الانشراح والارتياح.

ويرى ذلك بناظر البصيرة أهل بيتك فلا يعجبون حين تقول لهم وأنت في آخر لحظة من عمرك (أطفئوا الضياء، ولينصرف من شاء منكم بالانصراف) ولو أسعفتك فرصة من اللسان المشغول بترانيم العش لله لقلت لهم بالبيان الساحر الآسر: اذهبوا عني يا أبناء الدنيا الموحشة المقفرة، يا أبناء اللوعة والأذى والصدى، فإني فيما أقبلت عليه وأقبل عليّ ـ مما يعجز الخيال الدنيوي الواهن أن يعرف كنهه ليبلغ وصفه من الرضوان الذي تدفق عليَّ أمواجاً خضراً من النور الإلهي، أحس إشرافها الأخَّاذ في نظري، وأنسها الغلاب في قلبي، وعطرها الأرج في انفي، وطعمها الشهي في حلقي ـ لأزري بدنياكم المجدبة القاحلة، وأرثي لكم في محوها وقفرها تكابدون ما تكابدون، أطفئوا ضيائكم الخافت الشاحب فهذا ضياء المعشوق كغمرة الشمس لو كنتم تبصرون، وهذا تجلّيه الذي يذيب الجبال قد ذاب في قهره القلب المتيَّم، يسبح في سبحاته الممتدة بلا حدود، ويدور في أفلاكه المتمادية بلا نهاية، اذهبوا يا قرناء والصعف والتنغيص، ورهائن الكدوح والأوزار الترابية الباهظة. فهذا الجمال الفرد، والكمال الوتر، والاقتدار الأوحد، والتجرد، والأمن، والقرار، والراحة الدائمة، والابتسام الدائم لمتصل، قد أحاطت بي أفواجها الظافرة المستبشرة، تحييني تحية الملك القاهر المنتصر تجلَّة واحتراماً، وتكرمة وإعظاماً، تقول لي:

يا قاهر الدنيا ليهنئك ظفرك بالحياة الأسمى.

يا غالب النفس ومذلها في الحرب العوان؛ هذه هي نفسك في سيدات النفوس في أحضان الكرامة والإجلال.

يا مكبل الروح بأغلال التقى والنهى؛ هذه هي روحك قد غدت عتيق ربها راضية مرضية.

يا منغص العيش بقسوة الزهد والترفع؛ بشراك ذا نعيم الكريم وافر مقيم.

يا من سخوت لله بكل شيء؛ عطاء ربك المنان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

***

آه يا مبضع الجراح! هل علمتَ وشفرتك المرهفة تمشي في الجسد تبحث عن موضع الداء أنها إنما مشت في قلوب هذه الملايين لتبصر فيها لموضع داء الإمام ملايين المواضع، وتجد عندها عبوس الخشية والفزع من عقبى (الجراحة) تثاورها بسمة الأمل بالشفاء والعافية لإمامها؟ وهل علمت يا ذلك المِبضَع أن الأمة لو كانت تدري أنك ستكون البتَّار الذي يقدُّ رقبه الرجاء لما أمكنك من قائدها،

ولأخذته إلى أحضانها تمسح على موضع العلة فيه بعواطفها وأشواقها وعشقها، ليصنع حبها الفرد معجزته الكبرى، فيشفى عليلها العظيم من دائه الذميم.

آه يا تلك الساعة التي دعيَ فيها قلب الأمة إلى سرير (الجراحة) ليستسلم لسطوة المباضع فقام بنشاطه المشهود في أيامه المنكرة، من كان يدري أن بينك وبين ساعة الفراق الأبدي أياما معدودات تذوي فيها جنة الآمال، وتموت روضة الأحلام. فإذا هي متاهات مظلمة مقفرة ممتدة الشقاوة والعناء والضنى، تخوض فيها الأمة العشواء في الليلة الطخياء، لا تملك ـ وقد صيحَ بها على حين غِرَّة لمثل يوم الحساب فدُهشت وارتاعت ـ شيئاً من فكرها وبصيرتها تستمسك بهما في خطب اللوعة وبأسها، ولا تدري ـ وقد مشى في جسدها التيّار الصاعق لصرخة الناعي ـ ما الذي تصنع غير لدم الصدور، وضرب الوجوه، والوقوع في نار الأسى حتى تموت أو تكاد تموت. وكانت صرخة كبرى أيقظت الرعب المارد في النفوس الوادعة فهو يطويها بيمينه، وشبَّ له فيها إعصار فيه نار لا يذر له خضراء إلا احرقها. وانتفض لتلك النفخة الصورية كل أهل الإسلام لقيامة الفاجعة في يوم كان مقداره ألف سنة من الآلام، تذهل لنكباته كل مرضعة عما ارضعت، وتضع من خطبه الصاعق كل ذات حمل حملها، وترى الناس في هوله الفظيع سكارى وما هم بسكارى الصهباء بل البلية الفقماء.

آه يا تلك العمامة الشامخة على صدر الجثمان، أين منك ـ يا تاج الفخار ـ مزيف التيجان؟

لك المجد يا عمامة الهدى، ولك الفخر يا منبع الندى.

يا شعلة وهاجة يستضيء بها الذين يطلبون النور في أطباق الظلام.

يا نفحة علوية يتنسم منها الذين أرمضتهم حدابير الأيام شميم الخير والسلام.

يا معقل الإسلام وسيفه الصمصام.

يا هالة محمدية تألَّق فيها الإعجاز والإقدام والإكبار.

يا هلّة قدسية تبسمت على ثغر ذي الفقار.

يا ضحكة طفيَّة طفحت على جبين الدم القاني في شموخ كربلاء.

يا صيحة الرفض والعناد تقض مضاجع البغي والعداء.

يا مسيرة الرشد في الفتن الداجيات لم تتحول، ويا وقفة الحق في المحن الطاغيات لم تتبدل.

أين منك السها يا بنت العز في الأفق الأعلى؟ وأين منك الشمس يا مطلع النور من صبح الهدى؟ وأين منك الزيف والزائفون يا حقيقة سوتها يد العليم الخبير؟ وأين منك الونى والوانون يا لطف العلي الكبير؟ ما زلت تحفدين إلى مقاوم الفخار بالهموم، وتغذين المسير إلى الغاية الكبرى في أتون الأهوال الجسام، حتى أشرقت بسمة النصر على شفتيك معجزة القرون، في دولة للحق عزَّ على مثلها في عصرنا أن يكون.

لقد مضيت تحثين الخطى والهة إلى حياض الردى، قرباناً لدين بات سيتصرخ أهل الفداء «أيها الباذلون هل من طاهر يروي غلتي وصداي؟ أيها الأوفياء ذباً فقد طغى الخطب في ساحتي وحماي» فشعشعت عمَّة خمينية نوراء محبورة تهش لداعيها، وهبت هبوب المارد الجبار تبذل الروح لباريها.

لله أنت يا روضة الحق الندية الفياحة بالأريج، تساورها الأعاصير فلا تذوي.

ويا شجرة الهدى الطيبة الزيتونة يوقَد منها كوكب المسيرة تنتابها الأعاصير فلا تميد.

يا طلعة الرشاد البهية الصبوح رأد الضحى لا تنالها من إشراقها عرامة الليل الأيهم.

أنت عزمة الظفر بسبيل النهوض، نهوض الحياة الناكسة بعد هبوطها، وقيام العلم في أرجائها البُلة، وابتسام الفجر في أنحائها الدكن، وحري بما يقيمه العقل أن يتسامى ويونق، وما يغمره النور أن يضيء ويشرق. ها هو ذا باسك العوان يهزم مقتدراً دعارات الضلالات الشقية، وتهد عزمته الجسور صروح الأحلام الغوية، ويذري بشروق الغضب الميمون ليالي الأماني الخادعة للحماقات الرعن، فقوضت أعراس مبتغاها من هول حقيقتك الزاحفة، وأضحى شعاعاً في الفضاء ذلك البأس الكذوب، تراءى مخيفاً به عدوك المريب، وأراح سيب قدرتك الدفيق عرامات الشيطان إلى المهوى السحيق.

لله كم ذببت عن الإسلام مكائد الجناة الطغام قد همَّت أن تأكل خضراءه، وتذيل مجده وعلاءه، وانصببتِ مزناً هاطلة على النار الغوالة لشحناء الضلالة؛ فخبا ضرام ثائر، وحاق المكر السيئ بالماكر.

لقد أطلت من عليائك مشاهد شامخة لا تحصى ولا تنسى، صنائع نفس عذُب فيها الهدى، وتأرج طيب الاستقامة، قد وشجت عليهما فصولها، ونمت أصولها، فلا تصدر إلا في خير، ولا تفيض إلا تسامياً وشموخاً، قد عزبت عنها أهواء الجهالة، وغربت عن دنياها التي أشرقت بالصبح البهيِّ ظلماء الضلالة، فمعدنها سراج، وظاهرها نور وهاّج.

وتمعن فيك على العجب عين الدنيا، كيف لا تزالين تثاورين، وفنون الكيد تكنَّفتكِ من كل حدب، وسهام البغي تقصدك من كل صوب؟

أي قدر قاهر شاء ذلك فأمضاه، ولمثلك فيه حتف جازم، وموت لازم؟

إنها السماء يا صنعة السماء، وأنت على عينها، فأنى تلين للبأس الغشوم قناة قد نفث الله فيها روح الصلابة؟ فلتقم في وجهه ببأس اليقين، ولتقرع كيده المسعور بالكيد المتين، ولتقعد له كل مرصد، فليقف منها موقف الخائف المترقب المذعور، لا الطامع المتربص المغرور. وليبصر فيها بعينه العمياء شيئاً من نور المشيئة العلوية، ومن ضياء التأييد والتسديد، وليبق مع الحيرة تقيمه وتقعده، والفزع يعصف فيه عصف الريح الغضوب، وقد أحسَّ أنك اليوم قد أخذت عليه أقطار دنياه، فحيث يولي فثمَّ أنت ثورة تيفع، ولواء يرفع، ومارد يهبُّ، وبلاء يستقطب.

رباه أموتٌ هذا حزين فاجع ياسر الناس مصابة الألم فيقعدون عن كل شيء سوى الدمعة والزفرة؟ أم هو الصحوة الهادرة يبعثها هذا العملاق الثائر المسجى صانع أعظم ثورة بعد ثورة جده الحسين (ع)؟

رباه ماذا أرى مما يصنعه هذا الجثمان؟! إنه يحرك الناس كأنَّ له لسان ناطقاً بأروع بيان الحماسة، وكأنَّ له يداً من حديد تهتزُّ في الفضاء رمزاً للبأس والقوة، وكأن له انطلاقة فذّة أمام الجماهير في ثورتها، فها هي الأمة وفية له وفاءها يوم جاءها إمامها في الثاني عشر من (بهمن) من أرض الهجرة، وهي تتأهب لكل محتمل من البلاء، قد أعدت له مواسمه من الدماء والعطاء، حتى تبلغ بثورتها غايتها، لكأنها وهي تودعه إلى مثواه وقبره تمشي خلف جثمانه في بدء مسيرته الثائرة إلى كل الأهوال، وبذلت لها بأمره كل نفيس وغال، وها هي بهذه المسيرة في قمة الصحوة والإقبال على الله والإسلام، تردد شعاراتها الثورية، وتجدد العهد والبيعة، وتعلن الوفاء له والولاء، وتقدم في ذلك القرابين في فورة العزم وحماس الصدق في البيعة. ما أسماها وأعجبها من ثورة لميِّت لف بالأكفان، وسير به مشيَّعاً في غمرة الأحزان، إلى روضة من رياض الجنان، وما أروع فصول هذه الثورة التي يصنعها الموت لسيد الثائرين في هذا الزمانو دأب جده سيد الشهداء الذي صنع بشهادته ثورة ليس لها انقطاع ولا نفاد، ترثها الأجيال كأنها الطبائع والخصال.

هذه وصيته الثائرة بالكتاب والعترة، تنبعث جديدة تدل على المسير الهادي في تشعب المسارات، وتنير طريق السالكين في دياجير المتاهات، وأول فعل الثائرين دلالاتهم على الطريق والمنهج، وهذا ما صنعه ذلك الثائر المسجى، وهذه هي عصارة قلبه ينتزعها من بين مخالب الموت ليسطرها في وصيته الخالدة نهجاً للثائرين، ودليلاً للقادة والمصلحين، ورشاداً للضالين التائهين، مداد كلماتها قلبه المتحفز الوثاب،

ومعانيها السامية هي روحه الطهر الزاكية، ومضامينها المشعشعة اللألاء هي شعوره المشرق الوضاء، وتعاليمها ومفاهيمها هي نفسه المرشدة العادية ترسم طريق الثورة، ومنهج الدولة، وصلاح الحكم والحاكمين، وسبيل العدل والإنصاف، وما فيه غبطة الإسلام والمسلمين، وسعادة المستضعفين والمحرومين، وواجب الرعاة للرعية، ووظيفة هذه لأولئك، وعلاقة هذا الوجود الإسلامي بما حوله من الدنيا، ومواضع الداء في هذا الوجود، ورموز الضلالة والانحراف في قياداته الزائفة، وماذا على أمة الإسلام لدينها في هذا الخضم المزبد الذي أحاط بها فعادت فيه كزورق مهيض. كلُّ أُولئك كان مهم الفصول في ثورة الراحل يفجرها وهو ينقل خطى السكينة والاطمئنان إلى عالم الخلود.

كم من ممات لعظيم رائد أعقبته الردة والنكوص، أما موت الخميني فإنه أفرغ الجسد العجوز من روح الفتوة ليفيضها خمينية ثائرة مقتدرة في الأمة، لتقوم بتلك النفس الفريدة بعنفوانها المشهود، فتبقيها متجددة خطاً وروحاً وثورة، ليس يعروها البلى لأنها حياة متمحضة للبقاء، ولا ينتابها الفناء لأنها فوق ناموسه، ولا عجب فهي روح الإسلام، وقد قضى الله خلود هذا الدين وبقاءه. إن ثورة الخُلُق العظيم في الدنيا الهابطة المتسافلة كانت جزءاً من ثورة الموت الخميني، ذلك الخلق الذي يلتمع فيه سيد الفضائل للقيادة الرشيدة، وهو الزهد والعزوف عن الدنيا، ذلك العزوف الذي حالفه سميراً لا يأنس بسواه، وأنيساً لا يهنأ عيشه بغير صحبته، يموت القائد العظيم ولا تحفظ له الآذان وصية دنيوية لأهله وعياله ولابنه الوحيد، يرثون بها من وجوده الكبير، المنصب والزعامة والملك الواسع، كما يرث غيرهم في شرق الأرض وغربها من آبائهم الملوك وذويهم السلاطين مقدرات الناس، وأزمَّتهم، ورقابهم، ومصالحهم، يسخرونها كما يحبون وفيما يشتهون، بل حفظت ووعت آذان أهله وعياله وصيته لهم بالصبر على مرارات الحياة وآلامها، والسير فيها إلى الختام مع الدين، والتقى، والفضيلة، والرغبة عن مطالبها.

ولقد ظنَّ من لا عهد لهم بالفضائل السامية التي تحلى بها الإمام، ولم يخبروا زهده وإعراضه عن الدنيا، وصدقه في ذلك، ولم يصدِّقوا الأنباء به، أولئك الذين رأوا بناظر الواقع المشهود مما يفعله أهل الدنيا، ولم يروا خلافه من شأن أهل الآخرة وفعلهم ـ ظنوا أن الإمام سيوصي لابنه بالزعامة من بعده، وقد كان يكفيهم واقع الإمام مع نفسه وأهل بيته بالإعراض عن زهرة الدنيا وبهجتها، وعزله ابنه عن كل شيء من أمور الحكم والسلطة ومواضع القدرة، وحين طلع عليهم واقع ما بعد الإمام رأوا فدهشوا أن أهل بيته ليس لهم من بعده في الوجود الذي صنعه باقتداره الإلهي إلا تعزية المعزين وتسلية المسلين، يقابلونهما

بالصبر والاحتساب والاسترجاع، ويهطعون إلى بيعة القائد الجديد الذي جاءت به القيم والضوابط والأصول، تعضدها وتعينها في الاختيار إشارات الإمام ودلالاته.

وخذ إليك في الزهد لهذا الذي يظن أو يعلم أنه يوشك أن يدعى فيجيب أن ينصرف باله عن أن يستعين بطب الدنيا من حول إيران مما بلغ الذروة في فن العلاج، يذهب إليه يطلبه حثيثاً ليستقبله ذلك حفياً حريصاً، يطلب بعلاجه فخار الدنيا، وحسن العلاقة، وأداء حق الاختيار وشكره، أو يدعوه ـ إن شاء ـ إلى إيران ليأتيه بتلك الحال لهذه الغاية. ويكتفي الإمام بطب بلاده وهو يعلم أنه ليس أرقى من طب بعض دول العالم الأخرى، ويزهد بما سوى الأطباء الذين أنجبتهم بلاده وهو يدري أنهم ليسوا فوق غيرهم في هذا الفن.

وإن من هم دونه شأناً ليقصدون أنحاء شتى في هذه المعمورة يطلبون فيها العلاج فيجدونه، لكنه يابى إلا أحضان بلاده، ودواء أطبائها، ومباضع جراحيها، شأنه شأن من لا عهد له في أبناء شعبه بطب الدنيا، خارج إيران، ولا قدرة له عليه.

وهلمّ في معالم هذه الثورة التي يصنعها موت الخميني هذه الصحوة المؤمنة التي تجلت في الحزن الثائر الذي طبق الملايين المسلمة في أنحاء العالم، لا تخاف في ذلك لومة اللائمين، ولا رقابة سلاطينها الظالمين، فهي تتحداهم كأنها تثور عليهم، وتدوس العزم والجرأة حواجز الوعيد بينها وبين حب الإمام وعشقه، وإظهارهما بأي لون من الإظهار. أما الأمة في إيران فكانت صحوتها شيئاً عجباً لم ير التاريخ له مثلاً، فقد هبت ملايينها ـ كمن صيح به عن نوم ـ فزعة مبهوتةً لا تصدق النبأ أول ساعاته، ثم عادت إلى رشدها رويداً رويداً. يعينها نور الحقيقة الناصعة لموت الأنبياء والأولياء على أن تمحو سدف الريب التي كثَّفها على قلبها الإعجاب الشديد الشخصي بفقيدها، وإباء التسليم للخيبة في الحب العجاب الذي أوهمها أن حبيبها خالد خلود حبها، وأن ذلك النور الذي عشقته فحامت حوله وذابت فيه لن ينطفئ، وأن ذلك المعين الذي راحت تنهل منه حياتها ووجودها لن ينضب.

واستسلمت للأمر الواقع، وانتشرت ي فسيح إيران سواداً حالكاً، سواد الحزن الأسفع في قلوبهم المفجوعة،تجسد اللوعة تجسيداً لم تكن اللوعة تحلم أنها تتجسد في الدنيا على هيئتها التي طلعت بها الأمة المسلمة في إيران حسرة على رحيل الإمام، وأسىً على فراقه، واحتراقاً في مصابها به، وانطلقت في ثورة الحزن العاصف تهز الضمائر الخاوية، وتوقظ القلوب الدوية، وتكسر أغلال النفوس المأسورة

بالطيش والحماقة، لتنبعث كلها ـ بسَورة الندم وعزمة التكفير ـ تبايع بيعة الصدق والوفاء. وكان الأمر الأعجب في ثورة الحزن تلك السهام والأشواك التي انتشرت في عصف ريح المشهد الفريد للولاء والعشق المقدس الفذ، والعهد الصادق الذي لا تشوبه شائبة، على دوام المسير في طريق الحق والنور والثبات، ثبات الجبال الراسيات على نهج الإمام، لا تحركه قيد أنملة عن موضع الرسوخ جوائح الخطوب، وعرامات الكروب. ومضت يجذبها حقد الحاقدين، وشماتة الشامتين لتصمي قلوبهم، وتفقأ عيونهم، وتذرهم في حيرة نكراء، ودهشة موبقة تذيبهم، وفزع رهيب تتعاورهم مخالبه تقطعهم مزعاً، وتصيرهم أفلاذاً تلتهمها غربان الشؤم والتعاسة، فلا قرة العيون التي ظنوا أنها عطاء الفاجعة، ولا حبور الأفئدة الذي حسبوه الوليد الوحيد للمصاب، ولا راحة البال من أغلظ الهم والبلبال، ولا الحياة المستكبرة الوادعة الراتعة بغيبة المارد العملاق، قاهر المستكبرين وقائد المستضعفين. فالخميني الذي ظنوا موته نهاية قد صار فقده البداية التي ليس لها انتهاء، وغدا القائد الذي سكن القلوب التي صارت مأواه ومثواه يقودها ويحركها من داخلها بأزمَّتها بعدما كان يقودها بزمام الكلمات والنداءات، وحيث سكنت روحه نفوس الأمة صار قبره مزارها الخالد، تقصده وتبثه أشواقها، وصار الاحتراق والذوبان والموت بنار العشق غاية المطلوب لخشوعها في عبادتها.

وحين يصير الخميني بموته بهذه المثابة فقد أصبح موته غاية العز والثبات لأمره العظيم، وصار تحولاً كبيراً في أمته لقضيته وغدا قفزة العملاق في مسيره لإلى الهدف أدنته منه دنواً صعق الآمال الغوية فعض أصحابها على الأنامل أسى وحسرة وغيظاً، وراحوا يعبّون من تيار الحيرة للموت الخميني الذي يصنع الحياة بأرقى صورها واشكالها، بعدما كانوا يعبُّون من مثله من قبله لحياته التي لم يروا لها نظيراً، طلعت عليهم بخارق العادة وفائق المألوف، تنفخ في صورها (الثورة) وتبعث الأموات من أجداث الخنوع إلى موقف حشرها (قيادة المستضعفين) وتسوقهم زمراً إلى نعيمها (الحرية وتقرير المصير) حيث ترى المستكبرين خاشعين من الذل، ترهقهم قَترَة الهزيمة وإرغام الأنف في وحل الخيبة والصغار، وضياع الهيبة الزائفة.

أرأيت تشييع الجثمان إلى مقبرة جنة الزهراء؟ أرأيت قبله وفيه فورة الأشواق الثاقبة في القلوب تحرك الأبدان إلى لمس ذلك الجثمان، ومسح الوجوه ـ تبركاً ـ بالأيدي التي مرت على الأعواد التي حملته أو الكفن الذي لف به؟ أرأيت تلك الحشود المليونية التي راحت تصارع الدولة على جسد زعيمها

وإمامها، تأبى إلا أن تحمله بين يديها، تروي بعض الغليل إلى ضمه ولثمه وشمه، قبل أن تفعل ذلك معه روضة قبره؟

أرأيت ما يشبه الحكم العسكري عند مثواه ليمكن به وحده تخليص البدن الكريم من أيدي الملايين التي تريد أن تدفنه في قلوبها جوار روحه التي نزلتها؟

أرأيت ما يبدي مجسم الحشر ليوم الحساب عند قبر الإمام، حيث كان الأرض قد مادت وانشقت، وأخرجت أثقالها وحقت، وكأن قد خرج الناس إناثاً وذكراناً، شيباً وشباناً، صبايا وصبياناً، من ضرائحهم مهطعين إلى الداعي، حيث عظم الشفق، والجم العرق، وأذهلت كلٌّ مرضعة، ووضعت كل ذات حمل حملها، واصرف كل امرئ لما يغنيه من شأن البلاد، ويحوزه إليه مشغولاً به وحده عن الأخلاء؟

أرأيت أولئك الذين استطاعوا باقتدار العشق المتفجر، وعزمة الأسى المندفع كالإعصار؛ أن يرموا بأنفسهم في الضريح قبل أن يوسد فيه قائدهم، كأنهم يقولون: ادفنونا دون إمامنا؟

أرأيت تلك الآلاف المؤلفة التي أصابها من الكلوم والجراحات عالجتها على عجل أو ألجأتها إلى المستشفيات؟

أرأيت أولئك الذين ضاقت عليهم الأرض في طوق اللوعة بما رحبت، وضاقت عليهم في لظى الحسرة أنفسهم، فلم يجدوا إلا في الموت متسعاً ومنجاة، ففارقوا الدنيا التي برموا بها، بعد أن افلت عنها شمس الإمام أفولها الأبدي؟

أرأيت هذا وغيره لتبصر فيه المشهد الأوحد للَّوعة الوتر، والحب الفرد، والقيام الذي لم تشهد له الدنيا شفعاً والثورة العظمى التي أنجبها الموت ولم تنجب مثلها حياة أي عظيم؟

لقد صهرت المأساة النفوس فحولتها مذاباً صبَّته في قالب الوفاء الخالد للنهج الخميني، بعد أن نقته ـ بالاحتراق ـ من كل شوب، ليعود أصفى من الصفاء وأنقى من النقاء، وذلك ما كان دأب الإمام في سعيه الهمام إلى هدفه العظيم، ومأموله الجسيم، وبه كان يأمل أن يصيب منشوده، ويبلغ مقصوده.

أرأيت في معالم تلك الثورة التي انبعثت من أحشاء هذا الموت تلك الأسئلة الكبيرة بحجم الدهشة من مستثارها؟

فيم كان ما كان في تشييع ذلك الجثمان، مما لو تره عين الزمان؟

ما الذي جمع الصغير والكبير لذلك الخطب العسير؟

ما الذي ألَّف بين هذه القلوب كلها في الفاجعة على كلمة الأسى، وجعلها تعتصم جميعها بحبل اللوعة؟
ما الذي غرس هذا الشغف في الفئدة لذلك الرجل الذي لم يطلع على الناس ولم يكلّفهم إلاّ بعبء المجاهدة الدائبة الوحيدة، ولوازمها الفريدة، فابتلوا بالمسير معه على طريقه الصعب المستصعب بفنون البلاء وصنوف العناد، فعاد آسر النفوس بحبه، ومكبل القلوب بأغلال عشقه، لأنه بنار تلك البلايا كان ينقي تبر الوداد من ألواثه؟

بأي سلطان استطاع ذلك القائد على طريقه الدامي أن ينفذ في أقطار القلوب والأرواح ليفتحها فتح الظافرين؟

ما الذي صيّر الموت بأمره على نهجه أشهى المنى؟ وأحال المعاناة له وفيه غاية المرتجى؟

أيَّ سرٍ كان وراء الاقتدار لكلماته على الأخذ بزمام هذه الأمة حيث يشاء من متوائم الأمور ومتضادها، ومتناغم المطالب ومتنافرها، وفيهما تسلِّم الأمة تسليم الأولياء لمشيئة الأنبياء ووحي السماء؟

ولا تستطيع تحليلات الدارسين والخبراء أن تجد جواب هذا الأمر العياء في مألوف دراستهم وتحليلاتهم لمعتاد ما يحضرونه ويبصرونه من شؤون الحياة الاجتماعية وعاداتها وتقاليدها، ولو أنها نظرت إلى الإيمان بالغيب، والظاهرة الدينية لوجدت فيهما لألاء مضيناً ما يفك عنها طوق الحيرة وهي تبحث في المتاهة عن الجواب.

وعرفان هذه الحقيقة (دور الدين وتأثيره) هو غاية ما كان يسعى الخميني إلى أن تدركه العقول، وتذعن له القلوب في هذه الدنيا، وما يستلزمه ذلك العرفان من قتل الأمل الباسم لأعداء الإسلام ـ فيما بعد الموت ـ لرافع لواء الصحوة الصاعدة والعودة الرائدة، والوقوع في حضيض الخيبة القاتلة، واليأس الخانق من فتل هذه الأمة أو تحويلها عن مسارها، كل أولئك كان معلماً رفيعاً في معالم الثورة الخمينية بعد موته، ولله هي ما أروعها من ثورة، ولله مفجرها ما أعظمه من ثائر.

لقد غاب أولئك الجاهلون أو المتجاهلون عن حقيقة الإيمان بالله والغيب، وعقيدة الأمة بدينها، ووعيها برسالتها، ومعرفتها بقيادتها، ولزوم طاعتها لولايتها، وما وجدته في تلك القيادة من شمائلها الإلهية، وفضائلها الربانية، ومحاسنها النابعة من روح الإسلام وسموه وبهائه، فغابوا بذلك عن السر فيما حسبوه طلاسم ليس لها في أذهانهم ما يكشف عن عيونهم أستار العمى عن معرفة أسرارها، ويزودهم بما يرفع

عنهم كبول الونى عن حل رموزها وعقدها، وليس هذا السر إلا كلمات ثلاث: (الإيمان ، المعرفة، الواقع المجسد للقيادة السامية) ومن هنا ينطلق العشق يبيح للمعشوق حمى القلب، ويعطيه مقوده.

أرأيت ذلك العابد المتبتل في محراب الخشوع والضراعة قد وجه وجهه شطر ربه، وتعلق قلبه به، في ذلك السحر المهيب، يصلي صلاة الليل على فراش المرض، قد أنشبت به المنية مخالبها، تنازعها عليه هذه الآلات والأدوات التي ظنها الأطباء هي التمائم النافعة أمام سطوة الموت؟

لقد رأيته فتذكرت به ـ وكنت قبلها أحار في الرسم والتلوين ـ أولئك الصديقين من الأنبياء والأولياء في محاريب الخشوع بين يدي ربهم يناجون ويبكون.

أرأيت ذلك النشيج الخفي لتلك الشيبة الناصعة البيضاء بياض القلب الذي أسهره عشقه وتقواه مع ربه فأقامه بين يديه في ليل هو أحوج ما يكون فيه ـ وهو العليل المنهك ـ إلى النوم والراحة؟ فأين العازفون أو الغافلون عن سبحات السحر وقدسه وأنواره؟

هلموا انظروا شيخ التقى والعرفان على فراش الموت قد صرف عنه طائرة الكرى، وسلب نفسه عذوبة الرقاد؛ فأيقظها لنجاء الحبيب الأسمى في أعذب ساعات العاشقين، وأحلى أوقات المدلهين، وأطيب حالات الوصال في رحاب الوله الأقدس.

أسمعت النبأ الكبير من آخر من كانوا معه قبل أن يودع الدنيا كيف لم يفتأ يذكر الله ويقدسه بلسانه، ولا يفتر عن ذلك وهو في آخر لحظات حياته؟ بل كيف أنه هو العارف الذائب الذي لم يزل حلس محراب العبادة العارفة حين أعياه أن يقوم بين يدي بارئه قيامه المعهود ـ وقد احتبلته أشراك الموت، وراح قلبه الكريم يذوي رويداً ـ يصلي لبره لا يغادر صلاته له حتى في ملم الموت، وساعة المنعطف العظيم، وحالة الانتقال من هذه الدنيا الفانية إلى تلك الدار الباقية؟ وصلاته هذه المرة بإشارة الإصبع حين عجز عن سبيل غيرها يجسد بها صلاة قلبه وروحه، كأنه يشير بتلك الإصبع إلى معشوقه العظيم، يقول له: **أنت وحدك أيها الحبيب قد حميت حمى النفس فليس هي إلا مرتع هواك، وأنت وحدك أيها المعشوق شغلها الشاغل قد تمحضت انصرافاً إليك حتى حين غدت سطوت الموت تمزع هذا القلب أوصالاً كأنه لا يحس بها تفعل به ما تفعل. وإليك يا مهوى الفؤاد رحلة هذا النابض الذي لم يزل هواك خَفْقَهُ الثمانيني، ودمة الدائب يجري في عروق البدن الناصب، يسعى إليك جاهداً يطلب وصلك من ذروة الاحتراق ليجدك في ذروة البهاء والجمال.**

يقول معالجوه: ما رأينا على ما هو فيه إلا متطهراً مستقبلاً للقبلة حتى حين وضوءه، عابداً مشغولاً بذكر ربه، يلهج لسانه ـ حتى آخر لحظة من عمره الشريف ـ بالتسبيح، ولم يدع النوافل قط وهو في ذلك الضعف المشهود في البدن. وقد رآه أحباؤه في اليوم الذي فارق فيه الدنيا قد أدى إلى ربه فرائضه ونوافلها بنشاط روح فتية مقتدرة بالإيمان والتقوى والهيام الإلهي، قد حركت باقتدار حبها وعشقها ذلك الجسد المريض الواهن فهب للعبادة التي لم يفارقها، ولم يسأمها، ولم يضعف فيها.

وكان في تلك الأيام والساعات في عادية المرض افتضاح العشق الخميني لبارئه أمام الأشهاد، وقد كان يضمره ويخفيه ويستر بصدقه وخلوصه عن العيون والأسماع مشاهده الفريدة وقصصه الرائعة. وإنه للعرفان العجب ذلك الذي كان ينهض بالشيخ العليل على وشك الرحيل في عبادة جاهدة نشيطة لا ينهض بها الشباب وذوو العافية من أهل الإيمان، وإنها للعلقة الفريدة أسهرت عينه،و سلبته طعم السبات، وقد هبت دواعي المرض تسأله الغفوة المريحة. وإنها للروح الخمينية الوالهة التي لم تجسِّد روح سواها هذا الزمان ولهها ذلك التجسيد الذي أخذ عليها دهرها، ونشاطها، وفكرها، وقلمها، ولسانها، فساعاتها وله وصبابة وهيام، ونشاطها تركاض في دروب الهوى والحب والغرام، وفكرها ذوب بنار الجوى لعشقها العجيب، وقلمها ولسانها وقف على ذكر ذلك الحبيب.

لقد كان أمران عظيمان هما آخر المرئي والمسموع في حياة الإمام، يطويان بالقلب صحف الزمان الغابر، ليطلا بع على أروع صفحاتها، وتلك مشاهد الأنبياء والصلحاء يودِّعون الدنيا بأهازيج العشق على زجل الملائكة المرحِّبين، ويغادرون هذه الحياة الفانية متأهبين للّقاء الأسمى بالذكر والتسبيح والثناء، ويرن في السمع نداء للوله المحمدي (بل الرفيق الأعلى) وكان مشهد الذكر البديع بالتسبيحات الأربع، ووصية الفعل الرفيع بصلاة الإصبع، آخر ما رأته عين الدنيا من شؤون ذلك المحتضر المقدس في المستشفى، كأنه يقول بذكره مقالة جده المصطفى قبل عروجه الأسمى، وينادي بنداء الهوى القدسي، بالوصية بمجسّم الحب العلي.

وتفيض الروح الطاهرة راضية مرضية إلى بارئها الرحيم، وتفد مأنوسة على ربها الكريم، وها هي المواكب الإلهية ـ التي كانت تنتظر أوبة الروح العظيمة إلى الحقيقة، وعودها على عالم التجلي والمثول، ومصيرها إلى حياة الصدق في بهجة الخلود ورخاء الأمن الدائم ـ تحف بها تكرمة وإجلالاً، تشيعها إلى

ربها على ظجل الصلوات، وأعظم ما يستقبل به الرحمن وافده الصب المضام، وأجمل بما يطلع به على قاصده العاشق المستهام!

ومن العجب لدى الملايين من القلوب التي حسبت إمامها ومعشوقها ـ الذي أخذ عليها أقطار وجودها ـ جزءاً من ناموس هذا الكون أن يستمسك هذا الكون وقد اختل ناموسه فلا يتزلزل ويبيد، وتثبت قدم الأرض فلا تهتر وتميد، ومن محير العقول لدى هذه النفوس الولهى التي ظنت حبيبها كل شيء في وجودها أن الأشياء من حول الخميني وهو يفارق الدنيا لا تفارق شؤونها، فالسماء قائمة على عمدها لا تقع على الأرض، والأرض متجاذبة الأنحاء لا تتقطع أشلاء، والجبال على رسوخها فلاتتدكدك على السهول، والطيور صافات فلا تقيئ حواصلها، والشجر قائم على أصوله لا يخر لفتكه الذبول، والماء معين لا يغيض، والنسيم رخاء لم يعصف ولم يتضرم.

وهكذا انطوت صفحة الجسد الخميني من الوجود، وغاب عنه وجهه المشرق الودود، وبقيت روحه الرافعة تظلل بجناحها البر الرحيم، وتفيض دفء الحياة الحانية الرؤوم، وتنشر من سراجها الوهاج أنوار المحامد البهية والفضائل العلية، تعشب بها قلوب المسلمين، وتمرع أرواح المؤمنين، وتهفو إلى المعالي والمكارم نفوس الطيبين.

وبقي صوته برافع النداء طريقاً إلى المجد والعلاء، ودليلاً إلى العز والارتقاء، وبقي نهجه نهج الثائرين الكماة، ودربه درب الرافضين الأباة، وظلت أمة الإسلام من بعده تستنير بهديه الوضاء، وتقفي أثر خطاه على طريق السماء. وظلت إيران روح الله معقل الهدى والدين، ومستثار الصولة العظمى على عروش المستكبرين، وبقي الوفاء للخميني رخياً حالماً كهمس الندى في السحر، وظل حبه الشذي المقتدر يلوي أزمة القلوب إلى كعبتها، وظل قبره المشهود قبلة النفوس تنحو شطرها تصلي صلاة الحب والإكبار.

ولم يعتم ذلك اللقب الكريم (الخميني) عنوان الثورة والجهاد والإباء، ورمز القيام والتضحية والفداء، ومبعث الصحوة الكبرى في كثافات الهمود، وبركان الرعب والغضب يدك معاقل الظلم والجحود، ولم تفتأ يده الزاكية البيضاء تشير للعباد إلى طريق الخلاص من الكبول والأصفاد، والمحن الشداد في غمرة الشر والفساد.

امتازت شخصية الإمام الخميني بأبعاد كثيرة ووقف الكثيرون أمام سعة هذه الأبعاد وعمقها متحيّرين ومعجبين بهذه الصياغة الإسلامية الفريدة.

في حين هامت بها الجماهير وذابت في حبّها إلى حدّ خياليّ لا يوصف. وما مظاهر الحبّ والهيام التي أبدتها حينما استقبلت عودته إلى إيران قبيل انتصار الثورة الإسلامية، وحين ودّعت جثمانه الطاهر إلى مثواه الأخير توديعاً مليونياً لم يسبق له نظير في التأريخ كله. ما كلّ ذلك إلّا مظهر من مظاهر الهيام والوله بهذا الإمام العظيم، وبما حمله من صفات إسلامية يقلّ أجتماعها بهذا العمق وهذا الصفاء في شخصية رجل.

ويحاول الكاتب الاديب في هذه السطور أن يعبر عن ما يجيش في صدره تجاه الإمام الخميني الكبير، وما يتسامى في فكره من أبعاد تلك الشخصية الفذّة.

المجمع العالمي للتقريب
بين المذاهب الإسلامية
E-mail: taghrib@taghrib.org
ISBN: 964-7994-46-X